ستانسلاف ليج

سولاريس

رواية



رجمة : محمد بدرخان





* سولاريس
* ستانسلاف ليم
* الطبعة الثانية 1999

* دار الحصاد للنشـــر والتوزيــــع
سوريـة ـ دمشـق ـ ص. ب : 4490
هـاتـف ، فـاكـس : 2126326
* دار الكلمة للنشـــر والتوزيــــع
سوريـة ـ دمشـق ـ ص. ب : 2229

ستانسلاف ليم

سولاريس

(رواية)

ترجمة: محمد بدر خان


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهبوط

أشارت عقارب الساعة إلى التاسعة عشرة تماماً من توقيت المركبة الفضائية عندما نزلت الدرجات الحديدية إلى القمرة . وصلت رأس الخرطوم في مكانه الظاهر على الجدار فانتفخت البذة الفضائية و لم أعد أستطع القيام بأية حركة على الأطلاق .

وقفت ، بالأحرى كنت معلقاً داخل المقصورة الفضائية مكوناً مع غطائها المعدني وحدة متكاملة . رفعت ناظري إلى الأعلى وشاهدت من خلال الزجاج المقعر جدران البئر ووجه (مودارد) منكباً عليه . بلحظة اختفى وجهه وحلّ الظلام بعدما أغلقوا مخروط الأمان الثقيل في الأعلى . تردد صفير المحركات الكهربائية ثماني مرات بعد أن وصلوها باللوالب ومن ثم سمعت صأصأة الهواء في المخمدات . بعد فترة قصيرة تأقلمت عيناي مع الظلام وأصبحت أميز الدارة الخضراء للمؤشر المتعدد الأغراض . فجأة سمعت صوت (مودارد) من خلال السماعات الرأسية يسألني :

ــ هل أنت جاهز ؟

ــ جاهز يامودارد .

ــ لاتقلق أبداً ستستقبلك المحطة . أتمنى لك رحلة موفقة .

لم تسنح لي الفرصة في الرد عليه ، إذ سمعت صرير شيء ما في الأعلى ،

وأهتزت القمرة . تقلصت عضلاتي بشكل غريزي ، و لم يحدث أي شيء آخر .

ــ متى سيتم الأقلاع ؟

ملأت أذني ضجة شبيهة بانسياب حبات الرمل الصغيرة ، ومن خلالها جاءني صوت (مودارد) :

ــ إنك تطير ياكيلفن ! أتمنى لك الصحة !

وقبل أن استوعب ذلك كما يجب انفتح شق كبير أمام عيني ، رأيت من خلاله نجوم السماء . عبثاً حاولت إيجاد « إيلفا فودو لي » التي طار إليها « برومثيوس ».كنت لاأعلم شيئاً عن هذه المنطقة من المجرّة . لمحت من خلال النافذة الضيقة غباراً مشعاً وأدركت من ذلك أنني أقع الآن في أعلى طبقات الجو . لم يكن بإمكاني النظر إلا إلى الأمام لأنني كنت مثبتاً ومحاطاً بالمخدات الهوائية .

كانت الحرارة اللعينة البطيئة تلفحني بأمواجها وأنا أحلق وأحلق بعيداً دون أن أحس بذلك . فجأة غطى لون أحمر نافذة الرؤية ، أحسست بنبضات قلبي تزداد قوة والتهب وجهي ثم دغدغ عنقي تيار هواء قادم من المكيف . أسفت جداً لأنني لم أستطع رؤية « بروميثوس » . ربما أصبح خارج نطاق الرؤية عندما انفتحت نافذة الرؤية آلياً . ارتجت قبة القمرة مدة ، ثم أخرى وانتقل الارتجاج إلى كامل هيكلها . نفذ الارتجاج إلى عمق جسدي مخترقاً كافة الأغلفة العازلة والمخدات الهوائية . واختلطت ألوان دائرة المؤشر المتعدد الأغراض . شعرت بالرعب فأنا لم أجتز هذه المسافات البعيدة لأموت قرب الهدف الذي جئت من أجله ، وهتفت في السماعة :

ــ محطة سولاريس ! محطة سولاريس ! أفعلوا أي شيء ،

أني أفقد توازني .. أنا كيلفن . حوّل .

ــ لقد أضعت اللحظة الهامة لبداية ظهور الكوكب . بدالي الكوكب ضخماً منبسطاً مستوياً وعرفت أنني مازلت بعيداً عنه ، وذلك من تحديد حجم المنطقة على سطحه . أدركت أنني كنت على ارتفاع شاهق بعدما اجتزت تلك الحدود اللامرئية حيث يصبح الارتفاع هو المسافة التي تصل إلى كبد السماء . بدأت أهبط وشعرت بذلك وأغلقت عيني .

انتظرت بضع ثوان وكررت ندائي لكن لم أتلق أي جواب . وترددت في أذني توترات الجو كرشقات يرافقها ضجيج خفيف وعميق . بدالي كأنه صوت الكوكب ذاته . رأيت من كوة المشاهدة أن السماء البرتقالية مغطاة بالغشاوة وأحاطت العتمة بالزجاج . تقلصت عفوياً بقدر ما سمحت لي الأغلفة الهوائية وأدركت بعد ثانية أن هذه الغشاوة مجرد سحب عابرة . كانت الشمس تغمر عيني بأشعتها تارة وتارة تغمرني بظلالها إذ كانت القمرة تدور حول محور شاقولي وشيء ضخم منتفخ شبيه بقرص الشمس يقوم أمام وجهي يظهر من ناحية اليسار ويغيب في ناحية اليمين .

فجأة اقتحم أذني من خلال الضجيج والفرقعة صوت يناديني :

ــ من محطة سولاريس إلى كيلفن ، من محطة سولاريس إلى كيلفن استعد للهبوط في اللحظة صفر . انتبه إنني أبدأ العد . مئتان وخمسون ، مئتان وتسع وأربعون ، مئتان وثمانية وأربعون ....

كان وقع الكلمات شبيهاً بتساقط حبات الحمص والفواصل بينها واضحة متميزة كأنها تتردد من جهاز آلي . أمر غريب . من العادة أن يهرع الجميع إلى مدرج الهبوط عندما تصل إليهم أية مركبة فضائية وخاصة إن كانت المركبة قادمة من الأرض .

لم يكن الوقت للتفكير بذلك طويلاً . وفجأة هب القرص الموسوم حولي بأشعة الشمس من السهل الطائر لاستقبالي . مالت القمرة جانباً وتأرجحت كحمل ثقيل على بندول وشاهدت وأنا أصارع الدوخة في رأسي على سطح الجدار القاتم للكوكب المتقطع بخطوط داكنة وأخرى ليلكية وسخة ، المربعات الشطرنجية البيضاء والخضراء . وهي العلامة المميزة للمحطة . في هذه اللحظة اندفع الطوق للمظلة الدائرية وسمعت صوت حفيفه القوي . وشعرت بنفحة هواء حقيقي . هذا شيء يصعب وصفه بعد مضي شهور عديدة في تحليق مستمر .

أما ماتبقى فقد جرى بسرعة . كنت طوال تلك المدة أعرف انني أهبط دون أن أشعر بذلك ، أما الآن فأرى بعيني . كانت المربعات الشطرنجية المرسومة على هيكل المحطة الفضي البراق الشبيه بجسد الحوت تكبر أمام ناظري ، وبعد لحظة شاهدت مسلات الهوائيات الرادارية إضافة لكوى المحطة ، وعلمت أن هذا الهيكل المعدني الهائل لايربض على سطح الكوكب بل هو معلق في الفضاء لأني شاهدت ظلاله المخططة باللون الأسود على خلفيته ، تشكل نقطة اهليليجية أشد سواداً من سطح الكوكب . وفي نفس الوقت لاحظت أمواج المحيط المغطاة بطبقة بنفسجية دخانية تتحرك ببطء . ثم أرتفعت السحب عالياً ملونة بلون أرجواني يعمي الأبصار وظهرت السماء من بين الغيوم بعيدة ومنبسطة بلونها البرتقالي الداكن . ومن خلال نافذة الرؤية شاهدت بريق المحيط الأرجواني المتماوج حتى أفق السماء .

بعد لحظة انفصلت المظلة وحبالها وطارت فوق أمواج المحيط محمولة بالهواء . بدأت القمرة تتأرجح بخفة وبحركات متميزة حرة كما يحدث عادة في مجال القوة الاصطناعية ومن ثم هوت إلى الأسفل . كان آخر ما شاهدته

العرادات الضخمة المتشابكة ومرآتين دقيقتين للتلسكوبات اللاسلكية المرتفعة بعلو عدد من الطوابق .

توقفت القمرة عن الارتجاج وسمعت صريراً حاداً للفولاذ ، انفتحت الكوة السفلية وانهت المركبة رحلتها بأن نفثت هواء ملتهباً أمتد على طول عشرات الأمتار . ثم سمعت صوت الموجه الآلي الشبيه بصوت ميت يقول :

ــ محطة سولاريس . صفر . صفر تمت عملية الهبوط . انتهى .

أمسكت بيدي الاثنتين المقابض وأطفأت الموصلات (كنت أشعر بنوع غريب من الضغط على صدري وبشيء ثقيل في داخلي) وظهرت على اللوح كلمة « الأرض » وانفتحت جدران القمرة ودفعتني المقصورة الهوائية بخفة من الخلف .كان علي أن أتقدم خطوة كي لا أقع .

تخلصت من غلاف البذة الفضائية التي أصدرت حفيفاً خفيفاً شبيهاً بحركة يائسة . أصبحت حراً .

كنت أقف على قعر قمع فضي ضخم ، وحزم من الخراطيم المختلفة الألوان تتدلى على الجدران مخفية رؤوسها في بؤر دائرية . كانت المكيفات الهوائية تهدر طاردة بقايا جو الكوكب السام التي دخلت المحطة أثناء الهبوط . وقفت سلة القمرة الفارغة كجوزة مغلقة على قعر كأس مغروز في كتلة فولاذية . لقد احترق غطاؤها الخارجي وأصبح لونه بنياً وسخاً . خطوتُ عدة خطوات على منحدر قليل الميل . بعد ذلك غُطيّ المعدن بطبقة من البلاستيك الخشن . ثم اختفى البلاستيك عن امكنة ظهور حاملات ورافعات الصواريخ وحل محله فولاذ عار . صمتت ضاغطات الهواء وخيم السكون . ألقيت نظرة يائسة حولي منتظراً ظهور أي إنسان في المحطة . لكن أحداً لم يظهر . كل ما رأيته كان عبارة عن سهم فوسفوري يشير إلى منقلة شريطية

تتحرك بدون ضجة . وقفت عليها . انحدرت قبة القمرة راسمة مسار قطع مكافىء لتنتقل إلى أنبوب الدهليز حيث تكدست في تجويفاته حاويات وصناديق وبالونات منتفخة بالغاز المضغوط كانت جميعها ملقاة مبعثرة دون أي ترتيب وهذا ما أدهشني . توقفت المنقلة عند البهو الواسع الدائري ، وهنا كانت الفوضى تعم بشكل أشد . كانت السوائل الزيتية تسيل من تحت علب الصفيح وقد شكلت بركة تفوح منها رائحة كريهة تملأ الهواء . وكانت آثار الأحذية ترسم دروباً في كافة الاتجاهات بعد أن زودت بصماتها بهذا السائل . أما أشرطة التيلغراف والقاذورات فكانت تملأ الفجوات بين الصفائح كأنها رميت من داخل الغرف . لمع المؤشر الأخضر من جديد ليوجهني نحو منتصف الباب . عبرت الباب إلى دهليز آخر كان الدهليز ضيقاً بحيث يصعب مرور شخصين في اتجاهين مختلفين .

كان الضوء يتسرب عبر زجاج النوافذ الشبيهة بحبات العدس والمطلة على السماء ثم وجدت باباً آخر ملوناً بمربعات خضراء وبيضاء مفتوحاً على مصراعيه ودخلت . في الغرفة كانت نافذة بانورامية ضخمة تطل على السماء الممتدة الملتهبة السديمية وفي الأسفل كانت تظهر أمواج المحيط الداكنة المتدحرجة . وعلى الجدران خزائن عديدة مفتوحة الأبواب تكدست فيها الكتب والمعدات والقوارير الزجاجية المليئة بالرواسب الجافة وعلى الأرض كانت خمسة أو ستة كراسي وعدد من الأرائك الهوائية المفلطحة التي نفثت هواءها إلا واحدة جلس عليها رجل صغير منهك القوى بوجه محروق من أشعة الشمس . كان جلد بشرته يزحف من أنفه ومن خديه بموجات صغيرة وأدركت من يكون هذا الانسان . إنه « سناوت » الاختصاصي من السيبيرنيتيك . ومعاون « غيباريان » لقد نشر سابقاً عدداً من المقالات الأصلية عن تقويم سولاريس . لم نلتق من قبل أبداً . كان يرتدي قميصاً

مشبكاً نفذ من خلاياه شعره الأبيض النامي على صدره الأملس . وسروالاً نيلياً وسخاً حتى ركبتيه له عدد كبير من الجيوب ومحروقاً من التفاعلات .

كان « سناوت » يمسك بإجاصة بلاستيكية من تلك التي يشربون منها في مراكب الفضاء المعدومة من الجاذبية الاصطناعية . نظر إليّ كمشلول معمي بالنور وسقطت الاجاصة من بين أصابعه الضعيفة وتدحرجت على الأرض مثل كرة ، مفرغة بعض مافي داخلها من سائل شفاف . وغابت الدماء عن وجهه تدريجياً . ذهلت من وضعه حتى أنني لم أفه بأية كلمة . استمر هذا الموقف الصامت فترة لم أعرف كيف ولماذا لم تنتقل إليّ خلالها حالة رعبه هذه . تقدمت خطوة . تململ « سناوت » في مكانه فقلت له :

ــ سناوت ؟!

أرتعش وكأن أحداً صفعه على وجهه . ونظر إلي بقرف لايوصف وتحشرج صوته في فمه وقال :

ــ لا أعرفك ، لا أعرفك ، ماذا تريد مني ؟

تبخر السائل الذي سال من الإجاصة بسرعة . شممت رائحة المشروبات الكحولية . ترى هل كان يشرب ؟ هل هو سكران ؟ لكن لماذا يخاف مني بهذا الشكل ؟

بقيت واقفاً في منتصف الحجرة . تراخت ساقيّ . أما أذنيّ فكانتا كأنهما مسدودتان بالقطن . أحسست بعدم الثقة بالأرض التي أقف عليها . وخلف الزجاج المحدب للنافذة البانورامية كان المحيط يتخبط بأمواجه .

لم يرفع « سناوت » عينيه المحمرتين ، لكن الرعب اختفى عن وجهه وبقي القرف الذي يصعب وصفه وسألته بصوت خافت :

ــ مابك هل أنت مريض ؟

ـــ وتهتم ... ـــ أجاب بصوت منخفض .... أها نعم ، ستهتم . لكن لماذا تهتم بي أنا ؟ فأنا لا أعرفك .

ـــ أين « غيباريان » ؟

ضاقت أنفاسه لحظة وأصبحت عيناه زجاجيتين لمعت فيهما شرارة أنطفأت حالاً وقال متلعثماً :

ـــ غي ... غيبا ... لا !!! وغاب في ضحكة بلهاء وصامتة وسكت فجأة ...

ـــ هل جئت من أجل « غيباريان » ؟

كان صوته هادئاً تقريباً

ـــ تطلب « غيباريان » ؟ ماذا تريد أن تفعل به ؟

صار يتحدث وكأنني لم أعد أشكل خطراً عليه لكن كلماته ، بالأحرى لهجة كلماته بقيت تحوي شيئاً يشبه الاحتقار الكريه .

ـــ ماذا تقول ؟ سألته وجحظت عيناي ـــ أينه ؟

تسمّر في مكانه وسأل :

ـــ ألا تعرف ؟

فكرت ! « لابد أنه مخمور ، مخمور ، هذا أمر واضح وضوح الشمس » وسيطر علي غضب متصاعد وتوجب علي أن أغادر الغرفة لكن صبري نفذ وصرخت في وجهه :

ـــ عد إلى رشدك . من أين لي أن أعرف و لم تطأ قدماي المحطة إلا في هذه اللحظة ! مابك يا « سناوت » ؟

تنفس « سناوت » الصعداء وارتخى فكه السفلي . وظهر بريق سريع في عينيه واستند بيديه على ذراعي الأريكة ليقف بصعوبة ، حتى أنني سمعت

صرير مفاصله . ثم سألني وقد عاد شيء من الرشد إلى عينيه :

ــ ماذا تقول ؟ وطأت قدماك ؟ من أين جئت ؟

ــ ومن أين يمكنني المجيء إن لم آت من الأرض . أجبته بحقد ثم أضفت ساخراً :

ــ ربما سمعت بها ؟ تبدو وكأنك لم تسمع بالأرض من قبل !

ــ من الأر ... ياإلهي ! إذن أنت « كيلفن » ؟

ــ نعم ولم تنظر إلي بهذا الشكل ؟ ما الغريب في الأمر ؟

ــ لاشيء . أجاب وأهداب عينيه ترتعش بسرعة .. لاشيء ... ثم مسح جبينه ... أعذرني يا « كيلفن » لقد حدث ذلك من وقع المفاجأة ، فأنا لم أتوقع ...

ــ ماذا تقصد بقولك لم أتوقع ؟ لقد أخبروكم بقدومي منذ عدة أشهر وقام « مودارد » بإبلاغكم اليوم على متن مركبة « بروميثوس » .

ــ نعم . نعم ... طبعاً . لكنك تلاحظ في أية فوضى نعيش نحن

ــ أرى ذلك ــ أجبته بجفاء ــ من الصعب أن لا يلاحظ المرء ذلك .

ودار « سناوت » حولي متفحصاً بذتي ، بذتي العادية بخراطيمها وأكبالها الصدرية وسعل عدة مرات ثم مسح أنفه الدقيق :

ــ ربما تريد أن تستحم ؟ هذا سينعشك . يقع الحمام في الجهة المعاكسة ذو الباب السماوي .

ــ شكراً لك . إنني أعرف مخطط المحطة .

ــ هل أنت جائع ؟

ــ كلا أين « غيباريان » ؟

واتجه نحو النافذة وكأنه لم يسمع سؤالي . وبدا من الخلف أكبر سناً . كان شعره شائباً محلوقاً ، وعنقه محروقاً بأشعة الشمس وقد حفرت عليه

تجاعيد عميقة شبيهة بالجروح . ومن خلف النافذة كانت سلسلة الأمواج الضخمة تعلو وتنحدر ببطء وكأن المحيط قد برد .

وتشكل لدي انطباع وأنا أنظر إلى المحيط من خلال النافذة أن المحطة تسير مواربة وكأنها تنزلق من دون سبب ظاهر . ثم عادت إلى مسارها الطبيعي . ثم انحنت ببطء وسارت إلى الجهة التالية . ربما كان ذلك مجرد خدعة بصرية . وتجمعت الرغوة المخاطية الملونة بلون الدم في الفجوات بين الأمواج . وشعرت بعد لحظة بالغثيان . وفجأة بدأ « سناوت » الحديث :
ــ اسمع ، بما أني الوحيد . ــ والتفت نحوي وفرك يديه بعصبية ــ عليك أن تتمتع بصحبتي . مؤقتاً سنتسامر . أنت لاتعرفني إلا من خلال الصورة وهذا غير مهم . أنا « هوريك » هكذا يدعوني الجميع .

أخاف من أنك لن تجد شيئاً تفعله هنا . وسألته من جديد بعناد :
ــ أين « غيباريان » ؟
غمز بعينه
ــ آسف لأنني استقبلك بهذه الطريقة ... لايقع الأمر على عاتقي وحدي ... نسيت تماماً . لقد حدثت هنا أشياء كثيرة ، أتعلم ...
ــ هذا يكفي ، كل شيء على مايرام ، دعك من هذا ، لكن ما الذي حدث مع « غيباريان » ؟

أليس موجوداً في المحطة ؟ هل طار إلى مكان آخر !
ــ كلا ــ أجاب « سناوت » وهو ينظر إلى الزاوية المليئة بملفات الأسلاك ــ لم يطر « غيباريان » إلى أي مكان ، ولن يطير ، لأنه ...
ــ ماذا ؟ ما الذي تقوله ؟ أين هو ؟

ومن جديد شعرت بأذنيّ قد امتلأتا بالقطن ولم أعد أسمع .

ــ أنت تعرف الآن . أجاب « سناوت » بلهجة مغايرة كلياً

نظر « سناوت » إلى عيني ببرود وشعرت بقشعريرة تسري في جسدي . من الجائز أن يكون « سناوت » ثملاً لكنه يدرك ما يقوله .

ــ لكن لم يحدث ؟

ــ بل حدث

ــ حادث مشؤوم ؟

أجاب بحركة من رأسه إيجاباً وراقب رد فعلي على ذلك في نفس الوقت .

ــ متى ؟

ــ اليوم صباحاً .

الشيء الغريب أنني اعتبرت الأمر عادياً ولم أنفعل لأن الحوار وتبادل الأسئلة والأجوبة المعقدة مع « سناوت » قد هدأني وربما طبيعته العملية من فعلت ذلك واعتقدت أنني بدأت أفهم سلوكية « سناوت » .

ــ كيف حدث ذلك ؟

ــ عليك أن ترتب أمورك أولاً وتتفقد أمتعتك ثم عد إلي لنتحدث ... لنقل بعد ساعة ...

ترددت لحظة

ــ حسناً

ــ انتظر

خاطبني « سناوت » عندما توجهت نحو الباب ورمقني بنظرة خاصة كان يبدو وكأنه لايستطيع أن يبوح بما في قلبه :

ــ كنا ثلاثة وبقدومك أصبحنا ثلاثة من جديد . هل تعرف سارتوريوس ؟

ــ أعرفه كما أعرفك ، أقصد من خلال الصورة فقط

ـــ هو في المختبر ، لا أظنه سيخرج الآن من مختبره ... لن يخرج إلا في الليل ... لكن أنت تعرفه على كل حال وتستطيع تمييزه عن أي شخص آخر تصادفه في طريقك ... شخص آخر غير « سارتوريوس وغيري ..... هل تفهم ... عندئذ عليك أن ....

ـــ ماذا تقول ؟

تخيلت أن كل ما يحدث مجرد حلم . جلس « سناوت » على الأريكة مسدل الرأس يحدق في اللفافة ، وخلفه كانت أمواج المحيط السوداء الدموية اللامعة ببريق الشمس تتلاطم بشدة .

ـــ عليك أن لاتفعل شيئاً .

ـــ من سأرى غيركما ؟ رؤية ؟

ـــ أفهمك جيداً . تعتقد أنني فقدت عقلي . كلا أنا لم أجن بعد بيد أني لا أستطيع أن أشرح لك الأمر بشكل آخر . إلى اللقاء ... على كل حال ربما لن يحدث أي شيء . وتذكر كلماتي . لقد حذرتك .

ـــ من أي شيء تحذرني ؟ عن أي شيء تتحدث ؟

ـــ هدىء من روعك ـــ كانت كلماته تؤكد رأيه السابق بشكل واضح ـــ تصرف وكأنك ... كن جاهزاً لكل احتمال . طبعاً هذا أمر مستحيل . إنني أدرك ذلك . فقط حاول . هذا هو المخرج الوحيد . شخصياً أنا لا أعرف مخرجاً آخر .

ـــ لكن قل ما الذي سأراه ؟! ربما صرخت بهذه الكلمات إذ تملكتني رغبة شديدة أن أمسك سناوت من كتفيه وأن أهزه كما يجب ليعود إلى رشده وكي لايجلس هكذا محدقاً في الزاوية بوجهه المحروق بأشعة الشمس ويتألم لدى خروج كل كلمة من صدره . وتمالكت أعصابي بصعوبة .

ـــ لا أعرف ربما الأمر يتعلق بك وحدك .

ـــ هلوسة ؟

ـــ لا . واقع . لا ... لاتهجم عليه . تذكر ما أقوله .

ـــ ما الذي تقوله ؟! كان صوتي غريباً عني .

ـــ نحن لسنا على الأرض يا « كيلفن » .

ـــ بوليتيريا (حيوانات) . هذا يعني أنهم لايشبهون الناس !

ولم أعرف السبيل لتخليصه من حالة العزلة هذه ، إذ كان ينظر إلى الفراغ وكأنه يستقرىء فيه في حالة من الهذيان . ويقرأ في الدم المتجلد .

ـــ لهذا السبب يبدو الأمر مرعبا ـــ قال « سناوت » بصوت هادىء لذلك تذكر وكن يقظاً .

ـــ ما الذي حصل مع غيباريان ؟

لم يجب على سؤالي .

ـــ ما الذي يفعله سارتوريوس ؟

ـــ عد بعد ساعة .

استدرت وتوجهت نحو الباب . ألقيت نظرة أخرى على « سناوت » وأنا أخرج من الباب . كان جالساً منحنياً محيطاً وجهه بيديه . وفي هذه اللحظة لاحظت أن أصابعه مغطاة بدم مخثر .



السولاريسيون

كان الدهليز فارغاً . وقفت قرب الأبواب لحظات أسترق فيها السمع . لعل الجدران كانت رقيقة . إذ كان نُواح الريح يتناهى إلى أذني مخترقاً تلك الجدارن وشاهدت ورقة على شكل مثلث ملصقة على الباب دون اعتناء كتب عليها بخط أسود كلمة « إنسان » .

رغبت بالعودة إلى « سناوت » حالما قرأت هذه الكلمة الغامضة المخربشة لكنني أدركت أن ذلك مستحيل .

كان تحذيره السخيف مازال يضج في أذني . عدت إلى الحجرة الدائرية ذات الرقم خمسة بهدوء وحذر إذ كنت بدون وعي أحاول أن أختفي عن عيون مراقب لامرئي . كانت لوحات ثلاثة معلقة على ثلاث أبواب هي « الدكتور غيباريان » ، « الدكتور سناوت » ، « الدكتور سارتوريوس » ولم تعلق على الباب الرابع أية لوحة .

ترددت كثيراً قبل أن أضغط على ذراع الباب إذ انتابني شعور مفعم بالثقة أن هناك أحد ينتظرني في الغرفة .

ودخلت الغرفة . لم أجد أحداً . كانت النافذة المقعرة تطل على المحيط اللامع مثل الشحم تحت الشمس وكأن زيتاً أحمر يسيل مع الأمواج .

وغمر اللمعان الأرجواني الغرفة الشبيهة بقمرة السفينة التي احتلت رفوف مليئة بالكتب أحد جوانبها إضافة لسرير ثبت على عمود شاقولي . وفي الطرف

المقابل عدد كبير من الخزائن فصلت بينها صور الكوكب المعلقة على الجدران ضمن إطارات مطلية بالنيكل . وكانت الدوارق وأنابيب الاختبار المسدودة بالقطن تغطي المساند . بينما تكدست صناديق المعدات المطلية بالميناء تحت النافذة على صفين وأمتلأت الزوايا بالصنابير وخزائن السحب والمكيفات.أما الميكرو سكوب فلم يجد لنفسه مكاناً على الطاولة الكبيرة قرب النافذة فتمدد على الأرض .

استدرت وشاهدت قرب الباب خزانة شاهقة تصل حتى السقف مفتوحة الأبواب علقت فيها بذات عمل وصداري مختلفة ، منها المقاومة ومنها العادي . وعلى الرفوف كانت الأغطية البيضاء . ولمعت كرات المنيونية كمعدات الأوكسجين المنقولة بين ساقي الجزمة . وهناك جهازان معلقان مع أقنعتهما يتأرجحان على درابزون السرير المرفوع . كانت الفوضى المنتظمة تسيطر على المكان برمته .

استنشقت الهواء وشعرت برائحة خفيفة للتفاعلات الكيمياوية . بحثت بشكل لا شعوري عن شبكة مكيف الهواء وأشارت لي الوريقات المستوية الملتصقة والمهتزة عليه بخفة إلى أن شفاطات الهواء تعمل بشكل طبيعي على تبديل الهواء داخل الحجرة . رفعت الكتب والأجهزة والمعدات المختلفة عن الأريكتين ووضعتها في زوايا الحجرة كيفما اتفق وتكون شبه فراغ بين الأرائك والرفوف ثم سحبت المشجب لأعلق البذة عليه . أمسكت بمفتاح السحاب وغيرت رأيي في نفس اللحظة لأني لم أتجرأ على خلع البذة إذ انتابني شعور بفقدان الحصانة بمجرد خلعها . مرة أخرى تأملت معالم الغرفة . لم يكن للباب قفل ومع ذلك كان محكم الأغلاق ، وبعد قليل من التردد سندت الباب بأثقل صندوقين . وشعرت بنوع من الطمأنينة بعد أن صنعت هذا المتراس وتخلصت من أغلفتي المصرورة . فجأة قفزت متأهباً عندما لمحت

بطرف عيني حركة غريبة في المرآة المعلقة على سطح الخزانة الداخلي والتي كانت تعكس حيزاً من معالم الحجرة .لكنني سرعان ما أدركت أنني لم أشاهد سوى ذاتي معكوساً في المرآة .

خلعت ثوب العمل الداخلي الذي فاحت منه رائحة العرق ودفعت الخزانة بيدي جانباً فلمعت خلفها جدران البانيو في حجرة الحمام المنمنمة . ووجدت تحت الدوش صندوقاً كبيراً أملساً استطعت نقله بصعوبة إلى الحجرة وانفتح غطاؤه حالما وضعته على الأرض وكأنه معلق على نابض . كان الصندوق مقسماً إلى أقسام عدة تحوي أشياء غريبة . أدوات مشوهة مصنوعة من معدن داكن شبيهة بتلك المتناثرة في الخزائن لايمكن الاستفادة منها ، كانت ملتوية ذائبة لاشكل لها ، وكأنها أخرجت من حريق . والغريب أن هذا التشوه قد أصاب الأشياء الفخارية والمقابض التي لايمكن أن تذوب فعلاً إذ يستحيل الحصول على درجة حرارة في أي مخبر من المخابر يمكنها أن تذيب هذه الأشياء إلا درجة حرارة الفرن الذري .

أخرجت من جيب البذة المقياس الصغير لكنه فقد فاعليته حالما قربته من هذه الشظايا خلعت آخر ماتبقى على جسدي وهو مايوه السباحة والقميص الداخلي المشبك ووقفت تحت الدوش اغتسل . شعرت بالراحة تحت الماء وانثنيت تحت أوتار المياه الحارة وفركت جسدي . وضحكت . كنت أقوم بذلك بكثير من المبالغة وكأنني أفعل ذلك لأخلص نفسي من حالة الرعب وعدم الاطمئنان والشك المسيطر على المحطة .

وجدت في الخزانة بذة تمارين خفيفة يمكن ارتداؤها تحت البذة الفضائية . ووضعت في الجيب كل ملكيتي المتواضعة . وفجأة أحسست بشيء صلب بين أوراق دفتر الملاحظات وتملكتني الدهشة لما رأيت مفتاح منزلي الأرضي

بين الأوراق . لابد أن معجزة حصلت حتى وقع هذا المفتاح بين هذه الأوراق . أمسكته بيدي ولم أعرف ماذا أفعل به ثم وضعته على الطاولة وشعرت بالحاجة لامتلاك نوع من أنواع السلاح . كانت المطواة المتعددة الأغراض عديمة الفائدة ولم يكن لدي شيء آخر،لكنني لم أصل إلى ضرورة للبحث عن جهاز اطلاق الأشعة النووية أو عن سلاح من هذا القبيل . جلست على كرسي حديدي قابع في منتصف الفراغ بعيداً عن كافة الأشياء وشعرت بحاجة البقاء وحيداً . وبارتياح لاحظت أن لدي نصف ساعة من الوقت . ومالت الشمس نحو الغروب وكانت عقارب الساعة المقسم ميناؤها إلى أربع وعشرين جزءاً قد أشارت إلى الساعة السابعة وهي تعني الساعة العشرون حسب توقيت « بروميثيوس » وهذا يعني أن كوكب سولاريس قد أصبح صغيراً جداً على شاشات « مودارد » ولم يعد مميزاً عن النجوم . وما علاقتي « ببروميثيوس » ؟ وأغمضت عيني وخيمت السكينة التامة التي لم يعكر صفوها سوى قطرات الماء المتساقطة من دوش الحمام على البلاط .

إذن لقد مات « غيباريان » وإن كنت قد فهمت كلمات « سناوت » جيداً ، فهذا يعني أن موته حدث قبل بضع ساعات ولاغير .

ترى ما الذي فعلوه بجثته ؟ هل دفنوه ؟ والحق يقال إن هذا شيء مستحيل ولايمكن فعله على كوكب سولاريس . أصبحت أفكربه وكأن لمصيره أهمية خاصة بالنسبة لي . ونهضت لاتمشى في الحجرة بعدما أدركت سخافة ما أفكر فيه ، ورحت أضرب بأصابع قدمي الكتب المتناثرة بفوضوية في كل مكان.ثم رفعت عن الأرض زمزمية من الزجاج الأسود كانت خفيفة الوزن كأنها صنعت من الورق . نظرت من خلالها إلى زجاج النافذة وشاهدت آخر أضواء الغروب السوداء الملتهبة المغطاة بضباب وسخ . ترى

ما الذي يحدث لي ؟ لماذا أشغل نفسي بهذه الأمور السخيفة التافهة العديمة الفائدة ؟

وارتعش جسدي عندما اشتعل الضوء آلياً . ربما لاحظت عناصر التصوير اقتراب موعد حلول الظلام . وامتلأ رأسي بالأفكار والتوقعات والهواجس وارتفع توتري الداخلي لدرجة بدأت اشعر بالضيق من المكان الفارغ خلفي . تمنيت الخلاص من ذلك .

قربت الأريكة من الرفوف وأخذت الجزء الثاني من البحث العلمي القديم الذي كنت أعرفه جيداً « تاريخ سولاريس » لمؤلفيه « هيوجس » و « إيفل » . وضعت الكتاب ذي الغلاف السميك الصلب على ركبتي لأتصفحه .

لقد تم اكتشاف كوكب « سولاريس » قبل مئة عام من مولدي وهو يدور حول شمسين حمراء وزرقاء وخلال أربعين عاماً لم تقترب منه أية مركبة فضائية ، إذ لم يكن آنذاك أحد يشك في صحة نظرية غاسوف ــ شيبلي القائلة باستحالة وجود الحياة على كوكب ثنائي النجوم لأن مدارات هذه الكواكب تتبدل بشكل دائم لعدم استقرار قوى الجاذبية الناتجة عن الدوران حول شمسين ، وتقلص التغيرات الحاصلة في ميدان تجاذب مدار الكوكب أو تمدده،وإن ولدت الحياة عليه فستدمر بلهيب الحرارة التي ستحول كل شيء إلى رماد أو ستتجمد من البرودة الفضائية . وتجري هذه التبدلات بشكل منتظم كل عدة ملايين من السنين لخلق مادة الحياة إن لم نقل مليارات .

وحسب الحسابات الأولية كان على سولاريس أن يقترب خلال خمسمائة عام مسافة نصف وحدة قياس فلكية من شمسه الحمراء وبعد مليون سنة سيسقط في لجتها المتوهجة . تبين فيما بعد أن مداره لايتعرض لمثل هذه

التبدلات وظهر كأنه مستقر شبيه بمدار مجموعتنا الشمسية .

وأكدت المراقبة المستمرة بدقة متناهية بعد إعادة عمليات الحساب تكراراً أن لسولاريس مدار دائم وانتقل بذلك فوراً من مجرد كوكب من تلك المئات التي يتم اكتشافها سنوياً والتي لايكتبون عنها في مجلدات الاحصاء سوى بضعة أسطر يصفون فيها عناصر حركتها ، انتقل إلى حلبة جسد السماء الذي يستحق أقصى درجات الاهتمام .

بعد عشر سنوات من هذا الاكتشاف حلّت حول كوكب سولاريس الرحلة العلمية الأولى التي قام بها « أوتنشلد » والذي قام خلالها بدراسة سولاريس من على متن مركبة « لاكون » تساعده مركبتان إضافيتان . كانت مهمة البعثة مهمة استكشافية أولية خاصة وأنها لاتستطيع الهبوط على سطح الكوكب .

وأطلق العلماء عدداً كبيراً من أقمار المراقبة الأتوماتيكية الاستوائية منها والقطبية بهدف قياس قوة الجاذبية . إضافة لذلك تمت دراسة المحيط الذي يشكل سطح الكوكب ماعدا عدد من الجبال الملساء المرتفعة فوق سطحه ، كانت مساحتها مجتمعة لاتزيد عن مساحة أوروبا ، مع أن قطر سولاريس يزيد بنسبة ٢٠ ٪ عن قطر الأرض وقد تمركزت هذه المناطق الجافة الملساء الصخرية والمنتشرة كيفما اتفق في الجزء الجنوبي للكوكب . وتم تحديد عناصر الجو الخالي من الأوكسجين وأجريت قياسات متناهية في الدقة لسطح الكوكب والمجال الضوئي وبقية المؤشرات الفلكية ، وكما هو متوقع لم يكتشفوا أية بوادر تشير إلى وجود الحياة لافي المحيط ولافي تلك النقاط اليابسة البائسة . وأصبح سولاريس خلال الأعوام العشرة التالية محط اهتمام كافة المراقبين . هذا الاهتمام الذي استمر حتى الآن . لقد عرض الكوكب منحاً مدهشاً في

قدرتـه على الحفـاظ على مـداره اللامستقـر الجاذبيـة بـدون أدنى شك . وفاحت رائحة الفضيحة لأنهم حاولوا إلقاء تبعة هذه النتائج على المراقبة (من أجل خير وصالح العلوم) . كانوا تارة يلومون أناساً محددين وأخرى يلومون العقول الألكترونية المستخدمة .

وتأخرت عملية إرسال البعثة العلمية الاستكشافية الخاصة لدراسة كوكب سولاريس مدة ثلاثة أعوام أخرى لعدم وجود الامكانيات المادية ، حتى استطاع « شينون »المسؤول عن القيادة استلام ثلاث مركبات فضائية حمولية من طراز C من الفئة الكونية من معهد دراسة الكواكب . وكان المعهد قد أرسل قبل هبوط البعثة العلمية بعام ونصف تابعاًأوتوماتيكياً إلى مدار سولاريس من طراز لونا ٢٤٧ . استمر التابع في عمله حتى هذا اليوم بعد أن أجريت له ثلاث عمليات اصلاح متتالية بفارق زمني قدره عشرات السنين بين الواحدة والأخرى . أكدت المعلومات التي جمعها التابع بشكل قاطع صحة ما توصلت إليه بعثة « أوتنشلد » القائلة بوجود حركة طبيعية فعالة في محيط الكوكب .

بقيت إحدى مراكب شينون الثلاث في المدار البعيد بينما هبطت المركبتان الأخريتان على المنطقة اليابسة الصخرية في القسم الجنوبي من الكوكب والتي تشغل مساحة تقدر بألف كيلو متر مربع .

أنتهى عمل البعثة بنجاح بعد ثمانية عشر شهراً ماعدا وقوع حادثة مؤسفة حصلت بسبب انعدام امكانية اصلاح العطب الذي حصل في الأجهزة الأتوماتيكية . وانقسم العلماء إلى معسكرين متخاصمين . كان المحيط سبباً للنزاع . لقد اعترفوا به وفقاً لمعطيات التحليل على إنه عبارة عن كائن عضوي (لم يتجرأ أحد آنذاك على اعتباره كائناً حياً) فلقد نظر إليه

البيولوجيون ككائن بدائي شبيه بخلية واحدة سائلة مفككة مريعة (وقد دعوها بمرحلة ماقبل البيولوجيا) تحيط الكوكب كله بغلاف هلامي يصل عمقه في بعض الأمكنة لعدة كيلومترات . أما علماء الفيزياء فقد أكدوا أن الكوكب سولاريس ماهو إلا بناء متناه في دقة تنظيمه وأن تعقيدات بنائه تفوق تعقيدات الكائنات الأرضية لأنه يتواجد في حالة تأثير فعال على مداره . لم يكتشفوا أي سبب آخر يفسر استقرار سولاريس . إضافة لذلك قام الفيزيائيون المختصون بدراسة كوكب سولاريس بتحديد العلاقة بين العمليات المحددة التي تحدث في بلازما المحيط وبين الترددات المحلية لقوة الجاذبية المرتبطة بعملية « تبادل المادة » المحيطية .

وهكذا قدم الفيزيائيون وليس البيولوجيون صيغة متناقضة « الآلة البلازمية » قاصدين بذلك أنه من الجائز أن يكون المحيط مخلوقاً لكن دون روح غير أنه قادر على إجراء العمليات الموجهة حسب المقاييس الفلكية .

جذب هذا النقاش الذي استمر بضعة أسابيع الى مداره كبار العلماء من أمثال غاموف ـــ شيبلي . استمرت هذه النظرية ثمانين عاماً لم يستطع أحد خلالهادحض صحتها . وحاولوا الدفاع عنها بعض الوقت مؤكدين أن المحيط لايملك أية خاصية من خواص الحياة وأنه لايملك اعتباره مجرد تكوين في مرحلة البخار أو ماقبل البيولوجي ،بل هو مجرد حقبة جيولوجية غير اعتيادية بمواصفاتها ، تتميز بقدرتها على المحافظة على استقرار مدار سولاريس بواسطة تبادل قوى الثقل معتمدين في تفسير ذلك على قانون (لي شاتليه) .

ظهرت عدة فرضيات تعارض هذه الآراء المحافظة ، منها على سبيل المثال فرضية (تشيفيتار فيتي) وهي أكثر النظريات رصانة . ووفقاً لهذه النظرية اعتبر المحيط نتيجة تطور جدلي من حالته البدائية (أي ما قبل حالته المحيطية)

كسائل مؤلف من مواد كيميائية متفاعلة بشكل ضعيف استطاعت تحت تأثير الظروف الخارجية (أي التبدلات المدارية التي تهدد وجوده) أن تجتاز درجات التطور التي حصلت على الأرض وبذلك اجتاز الكوكب مرحلة عملية تشكل كائن أو كائنات منفردة مجتازاً بذلك عملية ارتقاء النباتات والحيونات وذلك بأن قفز قفزة تطور جريئة ليظهر في مرحلة محيط متجانس .

بكلمات أخرى لم يتكيف خلال مئات ملايين السنين مع الظروف المحيطية مثل الكائنات الأرضية التي أعطت بداية العنصر العقلاني بعد تطور دام ملايين السنين بل قفز الكوكب قفزة واحدة ليصبح إثرها سيد وسطه .

كانت والحق يقال فرضية رائعة أصلية مع أن أحداً لم يعلم بعد كيف استطاع هذا السائل الهلامي أن يحافظ على استقرار مدار الكوكب وأصبحت قوى تجاذبه معلومة ـــ بمعنى أصبحت معلومة الأوضاع المكونة لمجالات القوى المغناطيسية الاصطناعية ـــ ولم يعلم أحد بعد كيف استطاع هذا الهلام اللامتبلور الوصول إلى هذه النتيجة التي تم الحصول عليها بمساعدة التفاعلات النووية المعقدة والحرارة الهائلة . لقد امتلأت الصحف بمقالات مختلفة عن « اسرار سولاريس » الممتعة للقراء والمليئة بالألغاز بالنسبة للعلماء وكتبت إحدى الصحف تقول : إن محيط الكوكب ماهو إلا قريب بعيد للبثور الأرضية الكهربائية .

وعندما تم حل هذا اللغز نسبياً ظهرت على كوكب سولاريس ألغاز عديدة أشد غموضاً على العلماء كما هي العادة .

لقد برهنت الأبحاث أن المحيط لايتفاعل حسب المبدأ المستخدم في قوى التجاذب لدينا (مع أن ذلك غير ممكن) . كان بشكل غير مباشر يجدد من عروض الفراغ الزمني وهذا ما أدى في كل مرة إلى انحراف مؤشر قياس

الزمن عن خط الزوال على الكوكب . بناءً عليه يمكن القول إن المحيط لم يكن يتصور لنفسه بل كان بقدرته (وهذا مالا يمكن قوله عن أنفسنا) أن يستخدم النتائج التي توصل إليها اينشتاين ــ بوفي .

هبت إحدى أضخم عواصف قرننا مع ظهور هذه الأبحاث.وتحولت أكبر النظريات المحترمة والمعترف بها في كل مكان والتي يصعب دحضها حتى الآن إلى غبار متناثر وظهرت في الآداب العلمية مقالات ساخرة تذوِّب العقول وخاصة تلك المقالات المعنونة « بالمحيط العبقري » أو الهلام التجاذبي .

لقد حدث كل ذلك قبل ولادتي . عندما كنت أذهب إلى المدرسة كان سولاريس قد أعترف به بعد كل هذه الحقائق والوقائع المؤكدة ككوكب تدب فيه الحياة لايعيش فيه إلا قاطن واحد . لقد بدأ الجزء الثاني من كتاب « هيوجوس و ايفل » الذي تصفحته آلياً بعلم التصنيفات التي كانت أصيلة بقدر ما كانت مضحكة . وقدم جدول التصنيف بالتسلسل نماذج حيوانات من فئة وحيدات الخلية وفصيلة كثيرات الخلايا وكأننا نعلم ، والله يعلم ، كم هو عدد نسخ هذا النوع في الوقت الذي كان نوع واحد منها يصل ثقله إلى سبعة عشر بليون طن كما هو في حقيقة الأمر .

خشخشت الأوراق الملونة للرسوم البيانية والمخططات والتحليلات وبيانات القياسات الطيفية بين يدي . وبقدر ماكنت أتعمق في المجلد الرث بقدر ماكانت المعادلات الرياضية تلمع على صفحات الكتاب المتقعة . ومن الممكن الاعتقاد أن كافة المعلومات المجموعة عن فئة المتحولات المخفية بظلام الليل والواقعة الآن على بعد عدة أمتار تحت القعر الفولاذي للمحطة ، منتهية .

أعدت المجلد الثقيل إلى مكانه على الرف وأخذت الذي يليه ، وكان المجلد مقسوماً إلى قسمين . الأول يستعرض بروتوكولات التجارب العديدة الهادفة

إلى إقامة الاتصال مع المحيط ، تلك التجارب التي أصبحت مبعثاً لتأليف النكات العديدة والسخرية اللاذعة وللفكاهة في سنوات دراستي . وبدت تعاليم القرون الوسطى شفافة تذخر بالحقيقة مقارنة بذلك الغموض الذي ولدته هذه المسألة .

لقد تمت أولى هذه المحاولات لاقامة الاتصال مع المحيط بمساعدة أجهزة الكترونية خاصة محولة للنبضات المرسلة إلى الجهتين مع الاشارة إلى أن المحيط قد ساهم مساهمة فعالة في تصميم هذه الأجهزة لكن في سرية تامة . وماذا يعني بكلمة ساهم ؟ فلقد قام بتعديل عناصر القواعد المنغرمة فيه مما أدى إلى تغيير الضغط المسجل وقد سجلت الأجهزة عدداً كبيراً من الاشارات الشبيهة بمقاطع لحسابات ضخمة لايمكن تحليلها . لكن ما الذي يعنيه كل هذا ؟ أيحتمل أنها كانت معلومات عن لحظة هيجان في محيط سولاريس ؟ أو تعبيراً عن حقائق الأبدية مكتوبة بلغة الكترونية غير معلومة لنا ؟ أيمكن أن تكون عملاً فنياً ؟ أيحتمل أنها كانت عبارة عن ترددات تشير إلى مكان ظهور تكوينه الضخم الذي يبعد آلاف الأميال عن البحاثة ؟

كيف يمكن معرفة ذلك مالم يحصل الباحث على اشارات واحدة على رد فعل واحد ؟ كانت الاشارات مختلفة لاتشبه بعضها ، فمرة نشبه انفجار نبض يكاد يحطم الأجهزة ومرة أخرى صماء بكماء . كيف يستطيع الباحث معرفة مايدور إن لم يكن باستطاعته إعادة تجربة واحدة .

كنا نعتقد أننا لانبعد سوى خطوة واحدة لنصل إلى حل رموز الشيفرات التي كانت تتسع وتكبر لتشكل بحراً من التسجيلات وقد صممت عقول الكترونية خاصة قادرة على تفسير أية إشارة ومهما كانت مبهمة . ولم تعترض طريق هذه العقول أية مشكلة حتى هذا الوقت . فعلاً تمَّ الحصول على

معلومات محددة فلقد بدأ المحيط-الذي كان حتى هذا الوقت مصدراً لترددات الكترونية للتجاذب المغناطيسي ـ يتحدث بلغة رياضية وكان من الممكن تصنيف شحناته الكهربائية بواسطة أدق المناهج التجريبية على الأرض . كما تم وفقاً لنظرية التعدد ، تحديد التراكيب المتوازنة المعروفة في ذلك القسم من الفيزياء المختص في تفسير العلاقة المتبادلة بين المادة والطاقة ، بين الحجوم المحددة واللامحددة بين الجزء والكل . كل هذا جر العلماء للوصول إلى محصلة مفادها أنهم يقفون أمام أعجوبة مفكرة . أمام شيء ضخم مفكر يغطي كوكباً هو عبارة عن محيط من البلازما الأولية الدماغية التي تقضي كامل وقتها في إجراء البحوث النظرية الهائلة بمقاييسها للوصول إلى جوهر الوجود . أما ما كانت تتصيده أجهزتنا فهو ليس إلا مقاطع مختلفة سجلتها لنا صدفة لذلك المونولوج الهائل والدائم ، الأبدي والمتناهي في أعماق المحيط والذي يفوق حدود خيالنا . واعتبر بعضهم هذه الفرضية بمثابة ازدراء للمؤهلات البشرية ، وكركوع أمام شيء لاندركه حتى الآن وما الذي يمكن أن ندركه ؟ واعتبروها أيضاً بمثابة بعث للمبدأ القديم القائل ignoramus et ignorahimus* ورأى بعضهم فيها مجرد خزعبلات سيئة عديمة الفائدة ، حيث تأخذ ميثيولوجيا عصرنا حيزاً في فرضيات الرياضيين وترى في هذا الدماغ الهائل الهدف الأعلى للوجود ، أي نتيجة الكينونة ، بغض النظر إن كان الكترونياً أو من البلازما .

أما الطرف الثالث .... لكن الباحثون والنظريات كثر مثل الفيالق . كانت هناك مسائل أخرى إضافة لمسألة إقامة « الاتصال » .... وكانت هناك معاهد مخصصة لدراسة سولاريس . وقد تطورت في هذه المعاهد الاختصاصات الضيقة وذهبت بعيداً ، خاصة في الربع الأخير من قرننا حتى

* نحن لانعرف ولن نعرف

بات متعذراً على السيبيرنيتيك ـ السولاريسي أن يفهم التماثل ـ السولاريسي .

وقد تساءل فيبك الذي كان يترأس المعهد في سنوات دراستي ساخراً : « كيف تأملون في فهم المحيط إن كنتم غير قادرين على فهم بعضكم » . وكانت هذه السخرية مليئة بالحقيقة . لم يعتبر المحيط من فئة المتحولات صدفة ، إذ كان سطحه يعطي مقدمات مختلفة لأشكال لامثيل لها على الأرض وبقي هدف هذه الانفجارات العاصفة « لابداع البلازما » لغزاً محيراً بغض النظر إن كان يهدف إلى التكيف أم إلى الادراك أم لشيء آخر .

وفكرت بعدما أعدت المجلد الثقيل إلى مكانه بأن كافة معلوماتنا عن سولاريس والتي تملأ رفوف المكتبات ماهي إلا كومة من الورق لاتحمل أية فائدة وهي مقبرة للوقائع وأننا ما زلنا تراوح في مكاننا الذي بدأنا منه بتكويم هذه المعلومات منذ ثمانية وسبعون عاماً مضت . والأدق أن الوضع أكثر سوأً لأنه تبين أن جهودنا التي بذلناها خلال هذه السنوات ذهبت هدراً . ربما كان كل مانعرفه متعلقاً بالجانب السلبي للمحيط فهو لم يستخدم الميكانيك ولم يصفه مع أنه يبدو قادراً على فعل ذلك في بعض الحالات المحددة . فلقد بدل بعض أجزاء الأجهزة المغروسة فيه بيد أنه لم يفعل ذلك إلا في العام الأول والثاني من بدء عمليات البحث . وبعد ذلك تجاهل كل محاولاتنا التي واظبنا على تكرارها بعناد ، فعل ذلك وكأنه فقد متعة تأمل أجهزتنا ومعداتنا . (وبناء عليه فقد متعته نحونا أيضاً) .

ولم يكن للمحيط جملة عصبية أو خلايا أو أي تركيب يملأ زلاله وذلك حسب معلوماتنا الأولية التي كنت أتابع استعراضها . ولم يكن يستجيب دائما للاثارة حتى الضخمة منها فلقد تجاهل كلياً الكارثة التي حلت بالمركبة

المساعدة للبعثة العلمية الثانية ، فقد سقط غيزيو من ارتفاع ثلاثمائة كيلومتر وهوى على سطح الكوكب مدمراً بانفجار محركاته النووية البلازما في دائرة نصف قطرها كيلومترين .

بدأت الدوائر العلمية تنظر إلى أي عملية من « عمليات سولاريس » كرديف «لعملية خاسرة » وخاصة أوساط إدارة المعهد الذي ارتفعت فيه أصوات كثيرة تطالب بوقف المعونات المالية للأبحاث المتعلقة بسولاريس . ومع ذلك لم يتجرأ أحد وحتى هذا الوقت أن يطالب بتدمير المحطة تدميراً كاملاً لأن ذلك يعني اعترافاً واضحاً بالهزيمة ومع ذلك صرح بعضهم أثناء المناقشات الخاصة من أنهم يحتاجون صيغة « محترمة » تحفظ لهم ماء الوجه للابتعاد عن « اختلاسات سولاريس » وتحول هذا « الاختلاس » تدريجياً إلى شيء يشبه حجر التجريب لإثبات القيمة الفردية لكثير من العلماء وخاصة الشبان منهم الذين قالوا « إن الحديث يدور حول النفقات أكثر مما يدور حول دراسة حضارة سولاريس وبالتالي يدور حول أنفسنا وحول الامكانيات المحدودة للجنس البشري » .

وفي وقت من الأوقات ساد رأي ساعدت على نشره الصحف بشكل كبير يقول :

إن المحيط المنكر الذي يغمر كوكب سولاريس ماهو إلا دماغ ضخم سبق حضارتنا البشرية بملايين السنين وهو الآن بمثابة حكيم و « يوغي فضائي » تتجسد فيه كل معرفة ، وهو الذي أدرك منذ زمن بعيد عدم فائدة أي نشاط يقوم به ولهذا تراه يرفض رفضاً قاطعاً إقامة أية صلات معنا .

كان ذلك دجلاً كبيراً إذ كان الكوكب يتفاعل وبشكل مذهل لكن تفاعله لم يكن يتناسب وتصورات البشر فهو لم يبن مدناً أو جسوراً أو آلات

طائرة و لم يحاول الانتصار على الفراغ أو تجاوزه ــ (لقد رأى أنصار نظرية تفوق الإنسان في ذلك ورقة رابحة لهم) ـــ لكنه كان يمارس آلافاً من عمليات إعادة التكوين ــ « التحولات الآلية للكائنات » ، هذا بينما علماؤنا يملؤون صفحاتهم بمصطلحات عن سولاريس .

من جهة أخرى رأى بعض العلماء الذين استطلعوا بروية كافة امكانيات سولاريس أن مايقف أمامهم ماهو إلا حطام لتصاميم ذهبية ربما كانت عبقرية ملتحمة بدون أي نظام مع نتائج قريبة من جنون الانحلال.ونبعت فكرة جديدة من هذا الرأي هي « المحيط الهزيل » وهي النقيض لفكرة « المحيط ـــ اليوغي » .

وقد أخرجت هذه الفرضيات من تابوت الفلسفة إحدى اقدم مسائلها وأحيتها من جديد ، إنها مسألة العلاقة بين المادة والروح والوعي . وكانت مسألة إعادة المحيط للوعي تتطلب جرأة خاصة ، وهذا مافعله « ديوهارت » . وسرعان ما اعترف بهذه المسألة ميتافيزيقيا وترسبت على قاع كافة المناقشات والجدالات .

هل يمكن أن يكون تفكيراً دون وعي ؟ هل يمكننا تسمية مايحدث من عمليات في المحيط أفكاراً . هل يمكننا اعتبار الجبل حجرة ضخمة جداً والكوكب جبلاً كبيراً ؟ يمكننا استخدام هذه التسميات بيد أن هذا الحجم الجديد يدفع إلى خشبة المسرح بتشريعات عامة جديدة وظواهر جديدة .

لقد أصبحت مسألة سولاريس بمثابة الدائرة المربعة لعصرنا . وحاول كل مفكر مستقل أن يضيف جوهرةً إلى رصيد سولاريس وتعددت النظريات القائلة بأن مايقف أمامنا ماهو إلا نتاج لإحباط وتقهقر بعد مرحلة « الصفاء الذهني » لسولاريس وما المحيط إلا تكوين جديد لجملة عصبية ولدت على

أجساد السكان الأوائل للكوكب بعد أن دمرتهم والتهمتهم وصهرت بقاياهم في تركيب جديد حي أبدي . يجدد شبابه بطريقة مافوق الخلايا العفوية .

وتحت ضوء مصباح أبيض شبيه بضوء أرضي رفعت عن المنضدة الكتب والأجهزة و بسطت خارطة سولاريس على سطحها البلاستيكي . كانت الخارطة تشير إلى أمكنة ضحلة وأخرى عميقة المنحدرات . أما جزره فكانت مغطاة بطبقة من الصخور العارية تشهد أنها كانت قاع المحيط فيما سبق . وربما نسق المحيط بدراية عملية ظهور واختفاء التكوينات الصخرية المنغرسة فيه . ومن جديد ضباب تام . ونظرت إلى اصناف الدوائر الكبيرة الملونة بألوان بنفسجية وزرقاء مختلفة الظلال على الخارطة ، وشعرت برعشة مدهشة لا أعرف كم تكررت معي منذ أن شعرت بها أول مرة عندما كنت ولداً في المدرسة وسمعت عن كوكب سولاريس .

لا أعرف لماذا فقدت كافة الأشياء الأخرى أهميتها بالنسبة لي ـــ لغزموت « غيباريان » والمستقبل اللامنظور ـــ منذ أن انكببت على قراءة هذه الخارطة المذهلة . وكانت بعض مناطق الكوكب الحي تحمل أسماء علماء درسوها .

فجأة شعرت بنظرة تتفرسني وأنا أنظر إلى بحر « تيكسال » الذي يغمر الأرخبيل الاستوائي . وغابت تلك النظرة وأنا ما أزال منكباً على الخارطة مشلولاً من الرعب ونظرت إلى الباب الذي دعمت إغلاقه بالصناديق الثقيلة . وفكرت أن ما حدث مجرد شخص آلي مع أنني أعرف جيداً أنه لايوجد أي شخص آلي داخل الغرفة ولايمكن أن يدخل شيء دون أن ألاحظه .

شعرت بالحرارة في جلد عنقي وظهري وكان إحساسي بثقل النظرة الثابتة شيء لا يطاق . ودون أن أحسب حساب أي شيء وضعت رأسي بين كتفي واستندت بقوة على المنضدة التي بدأت تزحف ببطء على أرض الحجرة

أعادتني هذه الحركة إلى رشدي والتفت إلى الوراء بحدة و لم أجد أحداً خلفي وكانت النافذة الضخمة النصف دائرية مغمورة بالسواد و لم يغادرني هذا الاحساس الغريب والعتمة العمياء الهائلة اللامتناهية تنظر إلي . لم يكن يتسرب ضوء أي نجم من النجوم . وأغلقت الستائر .

لم يمض على وصولي إلى المحطة ساعة حتى بدأتَ أفهم لماذا يعاني قاطنوا هذه المحطة من هوس المطاردة وربطت ذلك غريزياً بموت « غيباريان » .

كنت أعرفه جيداً وكنت واثقاً حتى هذا اليوم أن لاشيء يستطيع تعكير صفاء ذهنه أما الآن فقد زالت تلك الثقة .

وقفت في منتصف الغرفة قرب الطاولة . هدأت أنفاسي وشعرت بالعرق يتصبب من جبيني ... ماالذي كنت أفكر به منذ لحظة ؟ آه ، نعم كنت أفكر بالأشخاص الآليين . الغريب أن أحداً منهم لم يلفاني في البهو أو في الغرفة . أين اختفوا ؟ الوحيد الذي التقيت به ومن بعيد كان من نظام مدرجات الصواريخ . أين البقية ؟

نظرت إلى ساعتي.حان وقت ذهابي إلى « سناوت » . كان الدهليز مضاء بإنارة خفيفة . مررت قرب بابين ووقفت قرب الثالث الذي علقت عليه لوحة باسم الدكتور « غيباريان » ودون أن أفكر بالدخول ، ضغطت على الذراع الذي ارتفع في الحال وانفتح الباب . وغاب الظلام الذي ظهر في الشق الذي تكون من انفتاح الباب بلمعان ضوء شديد داخل الغرفة . أصبحت مضاءاً بحيث يستطيع أن يراني أي شخص في البهو . لذلك اندفعت إلى داخل الغرفة بسرعة وهدوء وقوة وأغلقت الباب خلفي والتفت إلى الوراء في نفس اللحظة .

وقفت مستنداً إلى الباب أنظر إلى معالم غرفة « غيباريان » وكانت ستارة

أرضية عليها رسوم أزهار صغيرة زهرية اللون لاعلاقة لها بأي شيء مما يحيط بهذه المركبة تغطي ثلاثة أرباع النافذة البانورامية . وكانت رفوف المكتبات والخزائن المطلية بالمينا الفضي الأخضر تغطي كامل الجدارين ، أما محتويات هذه الخزائن والرفوف فكانت مكدسة على الأرض بين الأرائك بدون أي ترتيب . ووقفتُ أمام طاولتين صغيرتين تعترضان الطريق ، تكدست عليهما المجلات التي سقطت من الاضبارات الممزقة . وكانت الكتب الممزقة مشبعة بسوائل الدوارق والقوارير الثخينة الزجاج والمحطمة ، ولم أفهم كيف تحطمت هذه الدوارق حتى لو سقطت من ارتفاع شاهق . وتحت النافذة طاولة منقلبة مع مصباح محطم لم يبق منه إلا حامله المرن . وبالقرب تربيزة نشبت قوائمها حتى النصف في دروج الطاولة المنقلبة . والأرض مغطاة بطبقة سميكة من الخرائط والأوراق المكتوبة وأوراق أخرى مختلفة . ولاحظت خط « غيباريان » على الأوراق المكتوبة . انحنيت لآخذ بعض الأوراق وهنا لاحظت أن ليدي ظلين ، التفتُّ كانت الستارة الزهرية ملتهبة كأنها اشتعلت من الأعلى ورقعة النار الزرقاء تتسع بشدة . سحبت الستارة وصدمني لهيب الحريق الهائل الذي يحتل ثلث الأفق ، وظلال الأمواج الطويلة اللزجة تزحف بعناد نحو المحطة ، هذا هو الفجر .

كانت المحطة تقع في منطقة لايستمر فيها الليل إلا ساعة لتشرق شمس الكوكب الثانية الزرقاء . وأطفئت أنوار المصابيح آلياً . عدت لأبحث في الأوراق ووقعت عيناي وأنا أبحث فيها على موجز خطة التجربة التي كان يجب أن تتم قبل ثلاثة أسابيع .

لقد عزم « غيباريان » وفق هذه الخطة أن يعرض بلازما المحيط لحزمة شديدة الفعالية من أشعة رونتجن . قرأت كل شيء وعرفت أن مهمة تنفيذ

التجربة تقع على عاتق « سارتوريوس » . وهكذا أصبحت لدى نسخة عن هذه التجربة .

صار الضوء المنعكس في الأواق البيضاء يعمي بصري . لم يكن هذا اليوم كسابقه ، إذ كانت العتمة الزهرية الوسخة تغمر المحيط الأسود الدامي موحدة في ذاتها السحب والأمواج تحت قبة السماء البرتقالية للشمس الباردة ككل متكامل . أما الآن فاختلف الأمر كلياً لقد ألهب الشروق الستارة الزهرية وأصبحت مثل فتيل قوي لمصباح من الكوارتز . وبدت يداي تحت ضوئه رماديتين . وتغيرت ملامح الغرفة بالكامل . وأصبح كل ما كان أحمر اللون فضياً باهت اللون ، أما الأشياء البيضاء والصفراء والخضراء فعلى العكس ظهرت ألوانها وكأنها تضيء نفسها بنورها الخاص .

أغمضت عيني وتوجهت نحو الحمام متلمساً دربي . وهناك لبست النظارة السوداء وصار بإمكاني متابعة القراءة . كانت الأوراق تتضمن بروتوكولات التجارب التي أجريت وعرفت أنه تم تعريض المحيط للأشعة في منطقة تبعد ألفي كيلومتر إلى الشمال الشرقي من موقع المحطة الحالي . ومن المعلوم أن اتفاقية الأمم المتحدة تحرم استخدام أشعة رونتجن لفعاليتها الخطرة .

وكنت متأكداً أن أحداً من العاملين في المحطة لم يطلب الأذن من الأرض للقيام بمثل هذه التجارب .

صار الجو حاراً وأصبحت الغرفة المتوردة بالأبيض والأزرق لاطبيعية .

سمعت صريراً حاداً . زحفت أبواب محكمة الأغلاق وغطت النافذة . حل الظلام . وأنيرت الأضواء الكهربائية فبدت باهتة . لكن الحرارة استمرت شديدة الوقع كما في السابق . بل لعلها ارتفعت مع أن برادات المحطة كانت

تعمل بكامل قوتها حسب أزيز المكيفات .

فجأة سمعت وقع خطوات . كان أحد مايسير في الدهليز . وبقفزتين أصبحت قرب الباب . تباطأت الخطوات ثم توقف من كان يتمشى قرب الباب . مال ذراع الباب بهدوء . أمسكت به غريزياً ومنعته من الانفتاح . لم يرتفع الضغط عنه . ولم يزد . لعل القادم أراد الدخول بدون إحداث أية ضجة كما فعلت منذ قليل . بقينا ممسكين بالذراع ، لكل من جانبه لفترة من الزمن ، بعد ذلك شعرت أنه رفع يده وسمعت حفيفاً ناعماً . لقد ذهب . بقيت واقفاً أصغى إلى خطواته حتى حلت السكينة من جديد .

— الزوار —

طويت مخطوطة « غيباريان » أربعة طيات ووضعتها في جيبي . اقتربت بحذر من الخزانة ونظرت إلى داخلها . كانت الثياب مجمعة متلاصقة في زاوية واحدة كأن أحداً يختبىء خلفها . ولمحت بين كومة الأوراق المبعثرة زاوية ظرف بريدي ، حملته ، كان الظرف معنوناً لي . أحسست بجفاف في حلقي وبصعوبة كبيرة أجبرت نفسي على تمزيق الغلاف وأخرجت منه ورقة صغيرة وكتب « غيباريان » بخطه الناعم الواضح :

ANN, SOLAR. VOL. 1 ANEX ، كذلك VOT. SepaRT* ميسنجر المتعلق بقضية F ، و « السفر الصغير » لرافينسر . انتهى .

لم يكتب كلمة أخرى . كانت الورقة مكتوبة بسرعة . هل هذه معلومة ذات أهمية خاصة ؟ متى كتبها ؟ كان علي التوجه إلى المكتبة بأقصى سرعة .

كنت كذلك أعرف أن هناك ملحقاً خاصاً تابعاً للمجلد السنوي الأول المختص بسولاريس ، بالأحرى سمعت بهذا الملحق لكنني لم أراه . وبالنسبة لي كان الأمر لايتعدى سوى المتعة ذات الطابع التاريخي . بيد أنني لم أسمع من قبل ابداً برافينسر و لم أسمع « بسفره الصغير » .

ما العمل ؟

لقد تأخرت ربع ساعة . ألقيت نظرة على الغرفة بعدما اقتربت من

---

* المجلد السنوي الأول لسولاريس . وكذلك الملحق .

الباب . و لاحظت الآن السرير المطوي والمعلق على الجدار الذي كانت تخفيه عن الأعين خارطة سولاريس .

ولاحظت أيضاً شيئاً معلقاً على قسم الجدار الذي يخفيه السرير . كان ذلك مسجلاً في غلافه الجلدي . أخرجت الجهاز وأعدت غلافه إلى مكانه ونظرت إلى رقم المسجل وعرفت أن شريطه قد استخدم حتى نهايته ،ووضعته في جيبي .

وقفت دقيقة أخرى قرب الباب مغمضاً عيني مصغياً إلى السكينة . لم أسمع صوتاً . فتحت الباب بهدوء . وتراءى لي الدهليز أسوداً لامتناهياً .

رفعت عن عيني النظارة السوداء وشاهدت الإنارة الضعيفة لمصابيح السقف . أغلقت الباب خلفي وتوجهت ناحية اليسار إلى محطة الإرسال .

كنت قد اقتربت من الحجرة الدائرية التي توزعت منها الهوائيات في كافة الاتجاهات وكنت اجتاز ممراً ضيقاً تصورت أنه يؤدي إلى الحمام ، عندما شاهدت شخصاً مختلطاً لونه بلون عتمة الأنوار الخافتة .

تسمرت في مكاني . كانت زنجية ضخمة قادمة من عمق الدهليز تترنح في مشيتها مثل بطة . لمحت بريق بياض عينيها وسمعت في نفس الوقت حفيف أقدامها العارية . لم يكن على جسدها شيء سوى تنورة صفراء براقة كأنها صنعت من القش . مرت من أمامي وعلى بعد متر واحد دون أن تُعيرني أدنى اهتمام وهي تهز بردفيها الضخمين شبيهة بتمثال هائل من العصر الحجري الذي نستطيع مشاهدة أمثاله في المتاحف الانتروبولوجية . توقفت الزنجية في نهاية الدهليز من حيث يبدأ الانعطاف وفتحت باب غرفة « غيباريان ».للحظة ظهرت ملامحها جيداً بفعل النور الذي سقط عليها من داخل الغرفة . ثم دخلت و أغلقت الباب خلفها . بقيت وحيداً في الممر . شبكت أصابع يدي

اليمنى باليسرى وشددتهما حتى سمعت صوت طقطقة العظام . ثم تطلعت حولي دون هدف . ما الذي حدث ؟ من كانت ؟ فجأة وكأن أحد لطمني ، تذكرت تحذير سناوت . مامعنى كل ذلك ؟ من تكون أفروديت السوداء هذه ؟ من أين جاءت ؟

تقدمت خطوة نحو غرفة « غيباريان » وتوقفت . كنت أعرف جيداً أنني لن أتجرأ على دخولها . وعمت السكينة و لم أعد أسمع سوى أزيز المكيفات الهوائية . صفعت خدي بيدي وتوجهت إلى محطة الارسال بخطى هادئة وسمعت صوتاً حاداً يخاطبني حالما أمسكت بذراع الباب .

ــ من هناك ؟

ــ هذا أنا « كيلفن » .

كان « سناوت » جالساً بين كومة من علب الألمنيوم وراء لوحة تحكم جهاز الارسال يأكل لحماً معلباً . لم أدر لماذا اختار محطة الارسال مكاناً لإقامته . وقفت قرب الباب أراقب ببلادة حركة فكية وهما يمضغان الطعام وشعرت بجوع شديد في نفس اللحظة . اقتربت من الرف وأخذت أنظف صحناً من بين رزمة الصحون وجلست في مواجهة « سناوت » . جلسنا نأكل صامتين بعض الوقت . ثم نهض سناوت وأخرج من خزانة الحائط براداً (ترموس) وصب مرقة حارة في كوبين ثم وضع البراد على الأرض لأنه لم يجد مكاناً له على الطاولة وسألني :

ــ هل التقيت بسارتوريوس ؟

ــ في الأعلى .

كان المخبر يقع في الطابق العلوي . تابعنا طعامنا بصمت لايعكره سوى احتكاك الشوك بمعدن المعلبات . كان الظلام مخيماً في محطة الارسال والنافذة

محكمة الأغلاق من الداخل ، وعلى السقف أربعة مصابيح دائرية مشتعلة تنعكس أشكالها مندمجة في غلاف جهاز الارسال البلاستيكي .

وقطع سناوت-الذي كان يرتدي كنزة سوداء واسعة مهترئة وجلد صدغيه المسحوب مليء بالعروف الحمراء ـ هذا الصمت وسألني :

ـ هل جرى معك أي شيء ؟

ـ كلا ما الذي يمكن أن يقع لي ؟

ـ إنك مبتل تماماً .

مسحت جبيني بيدي وشعرت بالعرق يتصبب مني من جراء الانفعال الداخلي . تأملني « سناوت » متفحصاً . وتساءلت في نفسي هل أحدثه ؟ اردت أن يثق بي أكثر.ترى من كان منا يلعب ، وأية لعبة ؟

ـ ما هذا الحر ؟!تخيلت أن المكيفات تعمل عندكم بشكل أفضل .

ـ قريباً سيعود كل شيء إلى حالته الطبيعية . لكن هل أنت واثق أن هذا من جراء الحر فقط . ووجه نظراته إليّ .

تظاهرت أنني لم ألاحظ إشارته إلى العرق المتصبب مني . ثم سألني بعدما انتهينا من تناول طعامنا :

ـ ما الذي ستفعله ؟ ثم نهض ووضع الشوك والعلب الفارغة في السلة وعاد إلى أريكته .

ـ سأنضم إليكما . أليس لديكما خطة عمل لأبحاثكما ؟ أي عمل مثير ... أشعة رونتجن أو أي شيء آخر من هذا القبيل ؟

ـ رونتجن ؟ ـ رفع حاجبيه مندهشاً ـ أين سمعت عن ذلك ؟

ـ لا أذكر ... ربما ذكر لي ذلك أحدهم على متن « بروميثوس » ومافي الأمر ؟ ألا تستخدمونه ؟

ـ أنا لا أعرف التفاصيل ، كانت تلك فكرة « غيباريان » ... وقد بدأ مع

« سارتوريوس » ... لكن قل من أين لك أن تعلم بذلك ؟

رفعت أطراف مناكبي ، وقلت له :

ــ ألا تعرف التفاصيل ؟ كان عليك أن تشترك فيها ، فهي جزء من .....

وسكت قبل أن أوضح فكرتي .

هدأ أزيز المكيفات بعد أن أشارت عقاربها إلى درجة الحرارة المعتدلة . نهض « سناوت » واقترب من لوحة التحكم وبدأ ينقر بأصابعه على المفاتيح الكهربائية

كان ذلك مجرد عبث ، إذ كان المفتاح الرئيسي يشير إلى الصفر . انتظر قليلاً ثم قال دون أن يلتفت نحوي :

ــ من الضروري تنفيذ كافة الشكليات فيما يتعلق بـ ..... بهذا ...

ــ نعم ؟

استدار نحوي ونظر بحنق . لا أستطيع القول إنني تقصدت إثارته لإخراجه عن طوره أو ليختل توازنه . غير أنني فضلت أن أكون معه حذراً في هذه اللعبة التي لم أفهم منها شيئاً .

تحركت تفاحة ادم فوق ياقة كنزته السوداء .

ــ هل كنت عند « غيباريان » ؟ تفوه سناوت بغتة . لم يكن ذلك سؤالاً .

رفعت حاجبي وتطلعت إلى وجهه بهدوء وكرر « سناوت » :

ــ هل كنت في غرفته ؟

أشرت بحركة من رأسي وكأنني أقول له : « لنفترض ، وماذا في ذلك ؟ » .

لأدعه يتكلم أكثر .

ــ من كان هناك غيرك ؟

إذن هو يعرف عن تلك الزنجية !!! وأجبته :

ــ لا أحد ومن يمكنه أن يكون هناك ؟

ــ إذن لماذا لم تسمح لي بالدخول ؟

وضحكت .

ــ ارتعبت . لقد حذرتني بنفسك . لذلك أمسكت بالذراع غريزياً عندما تحرك . لماذا لم تخبرني عن نفسك ؟ أما كنت سمحت لك بالدخول .

ــ أعتقدت أن سارتوريوس ... كانت لهجة حديثة تدل على عدم الثقة .

ــ وماذا يعني ؟ وأجاب على سؤالي بسؤال :

ــ ما رأيك بهذا ... بالذي حدث ؟

ترددت قليلاً في الاجابة عليه :

ــ عليك أن تعرف أكثر مني . أين هو ؟

ــ في البراد ــ أجاب « سناوت » في نفس اللحظة ــ نقلناه فوراً ... صباحاً ... حرارة .

ــ أين وجدته ؟ في الخزانة ؟ ميتاً ؟

ــ كان مايزال قلبه ينبض . لكن لم يعد يتنفس . كان يحتضر .

ــ هل حاولت انقاذه ؟

ــ كلا .

ــ لماذا ؟

تباطأ « سناوت » في إجابته :

ــ لم أفلح . مات قبل أن أمدده .

ــ هل كان واقفاً داخل الخزانة ؟ بين الثياب ؟

ــ نعم .

اقترب « سناوت » من التربيزة ورفع عنها ورقة كانت ملقية عليها ووضعها أمامي قائلاً :

ــ لقد سجلت تقريراً أولياً . حسن انك اطلعت على غرفته . لقد سجلت هنا سبب الموت . لقد أخذ حقنة بمقدار جرعة قاتلة من البيرنوستول .

أطلعت بسرعة على النص المكتوب .

ــ انتحار .... رددت ذلك بصوت هادىء ــ وماهو السبب ؟

ــ ربما كان بسبب اختبال أصابه ... أو انقباض في النفس ! أو .... لا أعرف ما يدعونه إنك أعلم مني بذلك .

أجبته ونظراتي معلقة به :

ــ أنا لا أعرف إلا ما أراه بنفسي . وسألني بصوت هادىء :

ــ ماذا تريد أن تقول ؟

ــ لقد حقن « غيباريان » نفسه بمصل من البيرنوستول وأختبأ داخل الخزانة أليس كذلك ؟ إن كان ذلك حقيقة فهذا لايدل على انقباض نفسي أو اختبال ، بل هو جنون نفسي حاد إنها ــ البارانويا ــ * . ربما تراءت له أشياء غريبة ... كنت أتحدث ببطء وأنا أنظر إلى عينيه .

ابتعد « سناوت » عني إلى لوحة جهاز الإرسال وعاد لينقر على المفاتيح وقلت له بعد فترة من الصمت :

ــ هذا توقيعك ، أين توقيع سارتوريوس ؟

ــ قلت لك أن سارتوريوس في المخبر . وهو لايخرج منه . أعتقد ...

ــ ماذا ؟

ــ لقد أغلق الباب على نفسه .

---

* PARANOIA احتلال عقلي .

ـــ أحبس نفسه ؟! آه ، حبس نفسه ! هكذا إذن ! وربما تحترس أيضاً ؟

ـــ ممكن .

ـــ هل هناك أحد غيرنا في المحطة يا « سناوت » ؟

ـــ وهل شاهدت أحداً ؟

نظراً إليَّ وكان منحنياً قليلاً .

ـــ كنت قد حذرتني،مما ؟ هل هي هلوسة ؟

ـــ ما الذي رأيته ؟

ـــ قل لي . هل كان ذلك إنسان ؟

سكت « سناوت » والتفت نحو الجدار كأنه لايرغب أن أرى وجهه . ونقر بأصابعه على الحاجز المعدني . نظرت إلى يديه و لم ألاحظ فيهما آثاراً لدماء تجري . بغتة جاءني الوحي وخاطبته بهدوء يقارب الهمس وكأنني أكشف له عن سر كبير أخاف أن يسترق أحد ما كلامنا :

ـــ هل تلك السيدة واقعاً ، نعم ؟ هل يمكن ملامستها وجرحها .... شاهدتها اليوم أخر مرة .

ـــ من أين لك أن تعرف ؟

لم يلتفت . كان واقفاً قرب الجدار يلامسه بصدره .

ـــ قبل وصولي . قبل وصولي بفترة وجيزة .

أنكمش « سناوت » كأنه يتقي ضربة ولمعت عيناه ببريق جنوني وصرخ : أنت ! قل لي من تكون أنت ؟

تخيلت أنه سينقض علي الآن . لم أتوقع ذلك . لقد سارت الأمور عكس ما أردته لم يعد يثق بأنني ذلك الانسان الذي قدم من الأرض . ما الذي يعنيه ذلك ؟

وظل « سناوت » يتفرسني مرتعداً . ما هذا ؟ أجنون ؟ تسمم ؟ كل

شيء ممكن ، لكنني رأيتها . رأيت تلك المرعبة ... ومن الممكن أن أكون قد .... أنا ... أيضاً ؟ وسألته :

ـــ من تكون ؟

هدأه سؤالي قليلاً . تأملني بعض الوقت وكأنه يعاني من عدم الثقة وفهمت قبل أن يفتح فمه أن محاولتي باءت بالفشل .

جلس « سناوت » على الأريكة واحتضن رأسه بيديه وقال بصوت يكاد لايسمع :

ـــ ما الذي يحدث هنا ؟

ـــ من تكون ؟ سألته مرة أخرى :

ـــ إن كنت لا تعرف ... ـــ تمتم « سناوت » بشفتيه دون أن يكمل . .

ـــ فماذا ؟

ـــ لاشيء .

وخاطبته :

ـــ اسمع يا « سناوت » نحن بعيدون ما يكفي عن البيت (الأرض) لذلك دعنا نتكلم صراحة دون هذا الغموض والأمور المختلطة ...

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ أن تقول لي من رأيت .

ـــ وأنت ؟ سألني متشككاً .

ـــ تحتال علي ؟ سأقول لك ، وتقول لي . يمكنك أن تثق بي . لن أعتبرك مختلاً ،

أعرف ...

ـــ مختلاً ! يا إلهي ! ـــ وحاول أن يضحك ، ثم أردف قائلاً . ـــ لوكان

« غيباريان » يؤمن لحظة أن ذلك اختلالاً لما فعل ذلك . ولكان على قيد الحياة .

ـــ هذا يعني أن ما كتب في التقرير عن السائل العصبي ، مجرد كذب ؟

ـــ طبعاً .

ـــ لماذا لاتدون الحقيقة ؟

ـــ لماذا ؟ كرر « سناوت » سؤالي .

من جديد وجدت نفسي في طريق مسدود و لم أفهم شيئاً مع أنني أعتقدت في بداية الأمر أنني أقنعته بفتح الحوار . وأننا سنهاجم هذا اللغز سوياً ، لكن لماذا لايريد أن يتحدث ؟ لماذا ؟ وسألته :

ـــ أين الأشخاص الآليين ؟

ـــ في المستودعات . لقد أغلقنا على الجميع عدا أولئك الذين يقومون بخدمة تحليق المحطة .

ـــ لماذا ؟

لم يجب على سؤالي .

ـــ ألن تقول ؟

ـــ لا استطيع .

كان في إجابته شيء لم استطع التقاطه ، وتساءلت في داخلي ، ترى هل أتوجه إلى سارتوريوس ؟ وفجأة تذكرت التقرير المكتوب وفكرت أنه الأهم .

ـــ كيف تتصور طريقة متابعة العمل في هذه الظروف ؟

هز بكتفيه .

ـــ ما أهمية ذلك ؟

ـــ آها ، هكذا إذن ؟ ما الذي تخطط له ؟

سكت « سناوت » تناهي إلى مسمعي صوت وقع أقدامٍ حافية ، وبدت

هذه المشية المنحلة كنكتة بدائية لشخص غير عاقل في وسط هذه الأجهزة البلاستيكية والنيكيلية والخزائن العالية بأجهزتها الألكترونية المتناهية في الدقة . اقتربت الخطوات .

نهضت ونظرت إلى « سناوت » الذي تجهم وجهه وهو يصغي إلى وقع الخطوات دون أن تظهر عليه علائم الخوف !! وسألته :

ــ من أين جاءت ؟

لم يجب سناوت .

ــ ألا تريد الإجابة ؟

ــ لا أعرف .

ــ حسن

ابتعدت الخطوات ثم تلاشت . بعد ذلك قال « سناوت » :

ــ لن تصدقني . لكني أعطيك كلمة شرف أنني لا أعرف .

فتحت خزانة البذات بهدوء وحركت تلك الأغلفة الفارغة الثقلية . ووجدت في عمق الخزانة كما توقعت المسدسات الغازية معلقة على المحاجن . تلك المسدسات التي تستخدم خصيصاً في ظروف انعدام الوزن . وفعاليتها لاتساوي إلا القليل .

ولم يكن هناك خيار آخر . وهذا أفضل من لاشيء . تفحصت نظام عمل المسدس ورميت بحزام الغطاء على كتفي .

راقبني « سناوت » باهتمام بالغ . وعندما رتبت الحزام حول خصري انفجر ضاحكاً وظهرت اسنانه الصفراء

ــ صيد موفق

ــ شكرا على كل حال .

واتجهت نحو الباب . قفز سناوت من الأريكة :

ــ كيلفن !

نظرت إليه ولاحظت أن السخرية قد اختفت عن ملامح وجهه ولا أعرف إن كنت قد رأيت من قبل وجهاً معذباً بهذا الشكل . وتكلم بصعوبة .

ــ كيلفن . هذا لا ... أنا ... الحقيقة لا أستطيع .

انتظرت أن يقول أي شيء ، لكنه بقي يحرك شفتيه وهو يضغط على نفسه ليخرج الكلمات .

ودون أن أوجه له أية كلمة أدرت ظهري وخرجت .

سارتوريوس

كان الرواق فارغاً يمتد إلى الأمام ثم ينعطف نحو اليمين إلى الدرج الألمنيومي . لم آت إلى هذه المحطة من قبل ، لكنني عشت مدة ستة أسابيع في داخل مسخة شبيهة بها تماماً في المعهد أثناء فترة التدريب الأولية .

وجدت مفتاح المكتبة المظلمة بطريقة اللمس . ضغطت على مفتاح اللمبة واشتعل ضوء أحمر . وتأكدت من التسجيلات المدونة على بطاقات الكتب . إن «السفر الصغير» وكذلك المجلد السنوي الأول مع ملحقه عند « غيباريان » . أطفأت النور ونزلت الدرجات . خشيت من الدخول إلى غرفته فمن المحتمل أن تعود الزنجية إليها . وقفت قرب الباب مفكراً وأنا أصارع الخوف ، ثم دخلتها .

لم أجد أحداً في داخلها . بدأت بتقليب الكتب بمنهجية كتاباً كتاباً ، وأخيراً وجدت المجلد المنشود في الرزمة الأخيرة المتوضعة مابين السرير والخزانة .

وكما توقعت أن أجد فيه إشارة ما ، كان شريط الكتاب يشير إلى فهرس العناوين الذي كتب عليه بخط أحمر اسماً لم يعني لي شيئاً « أندريه بيرتون » .

وجدت اسمه مكرراً في الكتاب مرتين ، وبحثتُ في المكان الذي ذكر فيه أولاً وعلمت أنه كان طياراً احتياطياً على مركبة شينون وذكر مرة أخرى بعد أكثر من مئة صفحة .

باشرت بعثة شينون عملها بعد وصولها إلى سطح سولاريس بحذر شديد دام ستة عشر يوماً تعبت خلالها وتأخرت عن تنفيذ برنامج عملها . مما دعا شينون ومعاونه تيموليس إلى إجراء تغيير في بعض قواعد الأمان وذلك بعد أن تبين لهم أن المحيط البلازمي لايقوم بأية أعمال ذات طابع عدواني بل انه ينسحب من أمام أية أداة تقترب من سطحه ، ويرفض بشتى السبل إقامة أية صلة مع الأجهزة أو الناس وكان طاقم البعثة العلمية مجزءاً إلى مجموعات عمل صغيرة تتألف المجموعة من شخصين أو ثلاثة تقوم بتنفيذ تحليقات فوق سطح المحيط ولمسافات بعيدة عن القاعدة . وأعادوا إلى القاعدة الأساسية القوة الشعاعية الضاربة التي كانت تحيط بحقل العمل بمثابة دفاع عن النفس . ومضت الأيام الأربعة الأولى بعد إجراء هذه التغيرات دون أية أحداث تذكر إن استبعدنا تحطم أجهزة الأوكسجين من وقت لآخر بسبب تأثر وتحسس وتآكل الصمامات الخارجية من فعالية جو الكوكب السام ولذلك كان عليهم أن يبدلوها يومياً .

وفي اليوم الخامس أي الحادي والعشرين إذا ما حسبنا من اليوم الأول لإنزال البعثة العلمية ـــ نفذ العالمان : البيولوجي « كاروجي » والفيزيائي « فيخنر » تحليقاً فوق سطح المحيط على متن طوافة صغيرة تتسع لشخصين وذلك من أجل متابعة أبحاثهما . لم تكن المركبة جهازاً طائراً ، بل طوافة تتحرك على مخدة هواء مضغوط .

أعلن تيموليس الذي كان يقود القاعدة في غياب شينون الاستنفار التام بعدما لاحظ تأخرهما عن العودة بعد ست ساعات من التحليق وأرسل خلفهما كل من لم يكن لديه عمل للبحث عنهما . ولسوء الحظ انقطعت الاتصالات اللاسلكية بعد ساعة تقريباً من انطلاق فرق البحث ، وذلك

بسبب ظهور بقعة سوداء على قرص الشمس الحمراء تشع تيارات جسيماتٍ قوية تصل إلى أعلى طبقات الجو . ولم يعد يعمل من أجهزة الاتصال سوى أجهزة الموجات القصيرة التي لاتستطيع أن تؤمن الاتصال إلا لمسافة مئتي كيلومتر . إضافة لذلك خيم الضباب فجأة قبل غياب الشمس مما أجبرهم على أيقاف عمليات البحث .

توجهت فرق الانقاذ عائدة إلى القاعدة وأثناء عودتها ألتقت إحداهن بالطوافة على بعد مئة وثلاثين كيلومتراً عن القاعدة . كانت الطوافة عائمة فوق أمواج المحيط سالمة . وشاهد فريق الاغاثة من خلال القمرة الشفافة « كاروجي » فاقداً لوعيه . وقام فريق الانقاذ بنقل الطوافة إلى القاعدة وأخضعوا « كاروجي » فوراً للعلاج الطبي .

وبعد لحظات قصار عاد « كاروجي » إلى رشده وعندما سألوه عن مصير زميله « فيخنر » لم يقل « كاروجي » شيئاً وكل ما كان يذكره هو أنهما عندما قررا العودة شعر ـــ أي كاروجي ـــ بالاختناق بسبب تعطل جهاز التنفس وتسرب الغاز السام إلى داخل البذة في كل عملية شهيق مما اضطر زميله « فيخنر » أن يفك حزام أمانه كي يستطيع الوقوف على قدميه ليساعده في تصليح جهاز تنفسه . هذا ما يتذكره « كاروجي » وسارت بقية الأحداث حسب تقدير الاختصاصيين على النحو التالي :

فتح « فيخنر » النافذة لأنه لم يكن يستطيع أن يتمتع بحرية الحركة داخل القمرة بسبب دنو سقفها الزجاجي وذلك للقيام بإجراء التصليحات على جهاز تنفس « كاروجي » . وهذا أمر ممكن لأن هذه القمرات لم تكن محكمة الاغلاق . وهي تعمل فقط لحماية الأجسام من التأثير المباشر للهواء السام . ومن المحتمل أن جهاز تنفسه قد عطب أيضاً أثناء قيامه بهذه الحركة . مما

أفقده توازنه . فقفز خارج الطوافة وسقط على سطح المحيط . ولم تثمر عمليات البحث التي أجريت فيما بعد عن أية نتائج إيجابية . مع أن البذة التي كان يرتديها مصنعة بحيث تعوم على سطح المحيط في حال حدوث ما حدث . وربما عامت فعلاً . لكن من غير الممكن القيام ببحث دقيق لمسافة ألف كيلومتر مربع مغطاة دائماً بالضباب الكثيف والأمواج الشبيهة بكثبان الرمال ، هذه قصة أول ضحية من ضحايا المحيط .

وعند حلول الظلام ــ والآن أتابع بقبة الأحداث ــ عادت إلى القاعدة كافة فرق الانقاذ ما عدا المروحية الضخمة المخصصة للحمولات وكان « بيرتون » عليها . قلق الجميع عليه . وبعد ساعة تأخير عاد بيرتون في حالة صدمة عصبية حادة وحالما خرج من المروحية ركض هارباً فلحقوا به وأمسكوه ، وبدأ يصرخ ويبكي .

كانت هذه الظاهرة غريبة جداً لانسان ومن خلف اكتافه سبعة عشر عاماً من التحليقات الفضائية وكثيراً مامر في ظروف صعبة . وقرر الأطباء أنه تسمم هو الآخر .

بعد يومين عاد بيرتون إلى توازنه . أو هكذا تخيل بعضهم . لكنه لم يرغب أبداً أن يخرج خارج القاعدة الرئيسية للبعثة العلمية حتى لدقيقة واحدة ولم يقترب أبداً من النوافذ المطلة على المحيط وأعلن عن رغبته في تقديم تقرير عن تحليقه .

واعتبرت اللجنة تقريره بعد أن اطلعت عليه كثمار لتخيلات إنسان مريض تسمم من الغازات الجوية.لهذا لم يدخلوه ضمن تقارير البعثة العلمية بل ضمن تقارير مرض « بيرتون » . وهنا انتهى كل شيء .

وكان جلياً أن تقرير بيرتون يشكل لب المسألة . ماهو سبب هذا

الاختلال العصبي الذي أصاب هذا الملاح ؟ ومن جديد بدأت أقلب صفحات الكتب ولم أعثر على « السفر الصغير » . تعبت كثيراً وقررت إرجاء عملي لصباح اليوم التالي وخرجت من الغرفة .

كانت بقع من النور ساقطة على درجات الالمنيوم من الأعلى وهذا يعني أن سارتوريوس مازال يعمل في مخبره حتى هذا الوقت وفكرت أنه من الضروري أن ألتقي به .

كان الجو دافئاً في الأعلى وتيار هواء خفيف يجري في الدهليز العريض الواطىء السقف وكانت الأوراق الملساء تهتز على نوافذ التهوية .

كان باب المخبر الرئيسي عبارة عن لوح زجاجي سميك محجّر محاط بإطار معدني ، علقت عليه من الداخل ستارة سوداء لتحجب الظلال في الداخل . وكان النور ينفذ من الكوى الضيقة في أعلى السقف . ضغطت على الذراع ولم يفتح الباب كما توقعت . ولم أسمع أي صوت من الداخل سوى أزيز يتردد بين لحظة وأخرى . قرعت الباب دون أن أسمع الجواب وناديت « سارتوريوس » :

ــ دكتور « سارتوريوس » ! « سارتوريوس » . أنا القادم الجديد كيلفن ! أريد مقابلتك . أرجوك افتح الباب .

سمعت حفيفاً . كأن أحداً يدوس فوق أوراق النعناع وحل السكون من جديد .

ــ أنا كيلفن ! ألم تسمع بي ؟! لقد وصلت منذ ساعتين من « بروميثيوس »

وقربت فمي من الشق الفاصل ما بين الاطار والباب وصرخت :

ــ دكتور « سارتوريوس » لايوجد أحد هنا غيري ! افتح .

ومن جديد سمعت حفيفاً يصعب التقاطه . وسمعت قرقعة ما وكأن

أحداً يضع أشياء معدنية فوق صينية معدنية . وفجأة ... تسمرت في مكاني إذ تناهى لي صوت وقع أقدام لخطوات صغيرة ، وكأن طفلاً يركض . تكررت الخطوات الصغيرة السريعة للأرجل الصغيرة ومن الجائز أنه قلد خطواته وذلك بأن نقر بأصابعه على علبة فارغة تردد الصدى جيداً . وصرخت من جديد :

ـــ دكتور سارتوريوس ! هل ستفتح أم لا ؟

ولم أتلق جواباً . ومن جديد سمعت خبباً طفيفاً رافقه في نفس اللحظة وقع خطوات كبيرة سريعة شبيهة بخطوات انسان يسير على رؤوس أصابعه . واستخلصت أنه لايستطيع تقليد خطوات الطفل أثناء سيره . « وما علاقتي بكل هذا في نهاية المطاف؟!» . هذا مافكرت به وقد أصابني شيء من الاختبال الذي بدأ يتصاعد في داخلي دون أن استطيع السيطرة عليه وصرختُ :

ـــ دكتور « سارتوريوس » !!! أنا لم آت إلى هنا بعد ستة عشر شهراً من التحليق لأشاهد كيف تمثل الكوميديا ! سأعد إلى العشرة ! ومن ثم سأحطم الباب !!! وكنت أشك تماماً في مقدرتي على تحطيمه إذ لم تكن قوة الغاز التي تندفع من المسدس شديدة ولكنني كنت مليئاً بالعزيمة على تنفيذ تهديدي بأية طريقة حتى لو أضطررت للبحث عن المتفجرات المحتمل توفرها بكميات وافية في المستودعات وقلت لنفسي : إنني لا أستطيع التراجع ولا اللعب بهذه الأوراق المجنونة التي وضعتها في يدي الظروف القاهرة .

سمعت صوتاً غريباً وكأن أحداً يصارع آخر ، أو يدفع شيئاً . ومن ثم انسحبت الستارة من الداخل نصف متر . وسقط الظل على زجاج الباب المحجّر وسمعت صوتاً طفولياً متحشرجاً :

ــ سأفتح لك . لكن عليك أن تعدني بعدم الدخول .

ــ إدن لماذا تفتح لي الباب ؟

ــ سأحرج إليك .

ــ حسن أعدك .

وسمعت قرقعة المفتاح في القفل ثم ظهر هيكل عاتم مستتر بنصف الباب ، دفع الستارة بقوة وقام بسلسلة من الحركات اللامفهومة تراءى لي أثناءها أنني سمعت صرير حركة منضدة خشبية .وأخيراً انفتح الباب وخرج سارتوريوس إلى الدهليز ووقف أمامي تاركاً الباب خلفه وكأنه مستعد للدفاع عنه .

بدا سارتوريوس طويلاً نحيلاً كهيكل عظمي داخل بذة عاجية اللون وعلى عنقه منديل أسود بينما استلقت سترة مطوية محروقة من التفاعلات المخبرية على كتفه . كان دائماً يميل برأسه الرفيع جداً ونظارة سوداء معقوفة تغطي نصف وجهه لذلك لم أر لون عينيه . وكان فكه السفلي متطاولاً وشفتاه زرقاويتين متجلدتين مثل أذنيه . لم يكن حليقاً . وتهدلت من معصميه شرائط القفازات المطاطية الحمراء ووقفنا بعض الوقت نتفرس في بعضنا بنفور ظاهر للعيان .

وكان شعر ذقنه شائباً أما شعرات رأسه المتبقية والتي تعطيه منظر القنفذ فكانت رصاصية اللون أما جبينه فكان محروقاً مثل جبين « سناوت ».وكان خط أفقي واضح في وسط جبينه يميز القسم المحروق من جبينه كعلامة واضحة إلاّ أنه كان يرتدي قبعة لتحميه من حريق الشمس ، وقال أخيراً :

ــ أنا مصغ إليك .

ولم يكن ينتظر سماع كلماتي بقدر ماكان يصغ بتوتر ظاهر إلى الفراغ

خلفه ويضغط بشدة على اللوح الزجاجي . ولم أجد ما أقوله له لخوفي من أن أنطق ببعض الحماقات . وبعد لحظة بدأت حديثي قائلاً :

ــ أنا « كيلفن » . ربما سمعت بهذا الاسم . وأعمل ، أقصد عملت مع « غيباريان » . ولم يظهر أي تعبير خاص على وجهه المحزز بالتجعيدات الشاقولية ـ ربما كان « دون كيشوت » على شكل سارتوريوس ـ ومنعني صفيح نظارته السوداء التي تحجب نظراته القلقة عن متابعة الحديث لحظة ، وتابعت :

ــ أعرف أن غيباريان ... أعرف أنه قد فارق الحياة . وشعرت بضيق في أنفاسي .

ــ نعم . أنا أستمع إليك ! ....

ودوى صوته وكأنه قد فقد صبره

ــ انتحر ؟ .... من وجد جثته ــ أنت أم الدكتور « سناوت » ؟

ــ لماذا تسألني ؟ ألم يحدثك الدكتور « سناوت » عن ذلك ؟

ــ أريد معرفة رأيك بهذا الخصوص ...

ــ هل أنت عالم نفساني يادكتور « كيلفن » ؟

ــ نعم ، وماذا في الأمر ؟

ــ وتعترف ؟

ــ نعم . وما العلاقة بين ...

ــ اعتقدت أنك أحد رجال المباحث أو الشرطة . انظر كم هي الساعة الآن ؟ إنها الثالثة إلا الثلث ، وتقوم أنت في هذا الوقت بمحاولة وقحة لاقتحام المخبر وتحقق معي وكأنني متهم بدلاً من أن تدخل في غمار العمل الذي نقوم به على المحطة ، لو قمت بهذا لكان ذلك أمراً مفهوماً .

تماسكت وتصبب العرق من جبيني من هذا الضغط وقلت له بشكل حازم :

ــ انت متهم يا سارتوريوس . أردت إزعاجه بأي شكل من الاشكال،لذلك أضفت بشكل حاد ! وأنت تعرف ذلك جيداً .

ــ ان لم تتراجع عن كلماتك يا « كيلفن » وتعتذر لي فإنني سأتقدم بشكوى ضدك .

ــ على أي شيء أعتذر منك ؟ لماذا تغلق على نفسك باب المخبر بدلاً من أن تستقبلني وتطلعني على مايحدث هنا !!! ماذا بك هل جننت ؟

ــ ومن أنت ؟ هل أنت عالم أم جبان صغير ؟ من ! ربما تستطيع الإجابة على هذا السؤال .

لا أذكر كل ماقلته له . ولم تتغير معالم وجهه . لكن العرق تصبب من مسامات جلده الشاحب بقطرات كبيرة . فجأة أدركت أنه لايستمع إلى كلماتي أبداً إذ كان بكل قوة يديه المخفيتين خلف ظهره يسند الباب الذي يصعب ملاحظة ارتجاجه وكأن أحداً يدفعه من الجانب الآخر .

ــ إذهب ... ــ قال سارتوريوس ــ بصوت غريب باك ــ إذهب أرجوك ... أنزل إلى الأسفل ، سآتي إليك فيما بعد ــ سآتي إليك ، سأفعل ما تشاء ، فقط اذهب الآن !!!

كان صوته معذباً باكياً ورفعت يدي لاشعورياً لأساعده في سند الباب الذي ارتد لكنه أطلق صرخة مرعبة كأنني طعنته بخنجر . بدأت أتراجع . أما هو فاستمر يصرخ بصوت ناشز :

ــ حالاً ، حالاً ، أنا قادم ، لقد جئت !!! كلا !! لا !! وفتح الباب وقفز إلى الداخل . وتراءى لي أنني شاهدت شيئاً ذهبياً بارتفاع صدر سارتوريوس

يلمع في الداخل مثل قرص براق ، وتناهت إلى سمعي من داخل المخبر ضجة صماء وطارت الستارة جانباً وظهر ظل ضخم على الزجاج ثم عادت الستارة لتأخذ مكانها كما كانت من قبل و لم أعد أرى شيئاً . ترى ما الذي كان يحدث هناك في الداخل ؟ وسمعت خبطاً ومطاردة لعوبة انقطعت بصرير حاد لزجاج تحطم . ثم علت ضحكة طفل .

رجفت ساقي وتملكتني الدهشة ، ثم عم السكون وجلست على حافة النافذة الواطئة مدة ربع ساعة أو أكثر ولا أعرف هل كنت انتظر شيئاً أم كنت منهكاً لدرجة أنني لم أرغب بالنهوض . وفجأة سمعت من الأعلى صوتاً حاداً وغمرني الضوء في نفس اللحظة .

لم يكن باستطاعتي أن أرى من المكان الذي كنت فيه سوى جزء من الدهليز الذي يحيط بالمخبر . كان المخبر يقع في أعلى المحطة تحت صفيح الدرع العلوي مباشرة ، وكانت الجدران مائلة ومجوفة بنوافذ شبيهة بالكوى متناثرة على أبعاد متساوية . وكانت الأبواب الخارجية تزحف إلى الأعلى .

اختفت الظلال الزرقاء . واقتحم لمعان يعمي الأبصار الزجاج السميك وتأججت شرائح النيكل والأذرع الخشبية مثل شمس صغيرة . وتوهج باب المخبر المصنوع من لوح زجاجي كبير كفوهة فرن . ونظرت تحت هذا الضوء الثاقب إلى يدي المغبرتين اللتين وضعتهما على ركبتي . كانت يدي اليمنى تمسك بالمسدس الغازي ولا أعرف متى سحبته من غمده وأعدته إلى مكانه واقتنعت أن لاشيء يمكنه مساعدتي حتى لو حصلت على مدفع نووي . ماذا أفعل إن حصلت عليه ؟ أحطم الباب ؟ أقتحم المخبر ؟!

نهضت ، وأرسل ورائي قرص الشمس المغروس في المحيط الشبيه بانفجار هيدروجيني حزمة أفقية من الشعاع المحسوس . وعندما لامست الحزمة عنقي

(وكنت أهبط الدرجات) شعرت بشيء يلسعني . وعندما وصلت الدرج غيرت رأي وصعدت إلى الأعلى ودرت حول المخبر . وكما قلت سابقاً كان الدهليز يحيط به . وبعد مئة خطوة وجدت نفسي أمام باب شبيه بذاك الذي في الطرف الآخر . ولم أحاول فتحه بل رحت أبحث عن شق أو نافذة في الجدار البلاستيكي أستطيع من خلالها أن أراقب ما يفعله سارتوريوس .ولم أشعر أنني أرتكبت عملاً دنيئاً في محاولتي للبحث عن طريقة أتجسس بها عليه .

كنت أرغب بالخلاص من هذه الأفكار والوصول إلى الحقيقة مع أنني لم أتصور أبداً كيف أفهمها . وخطرت في ذهني فكرة أن المخبر لابد أن يكون مضاء من خلال النوافذ العلوية المحفورة في لوح التغطية وأنني سأتمكن من إلقاء نظرة على المخبر لو صعدت إلى الأعلى . لهذا كان علي أن أهبط إلى الأسفل وراء التجهيزات ـــ البذة واسطوانات الأوكسجين ـــ وقفت قرب الدرج وأعدت التفكير . لابد أن يكون زجاج النوافذ عاتماً . إذن ما الذي أستطيع فعله ؟ نزلت إلى الطابق الأوسط واضطررت إلى المرور قرب محطة الإرسال . كان الباب مفتوحاً على مصراعيه وشاهدت « سناوت » جالساً على الأريكة كما تركته ، كان نائماً لكنه سمع وقع أقدامي فانتقذ وفتح عينيه :

ـــ آلو . كيلفن ! قال متحشرجاً .

لم أجب عليه . فسألني :

ـــ هل فهمت شيئاً ؟

ـــ نعم ـــ أجبته ببطء ـــ لم يكن وحده .

وارتسمت تصعيره على وجه « سناوت » وقال :

ــ قل من فضلك ، هل يعني أن لديه ضيوفاً ؟

وأجبته بتثاقل :

ــ أنا لاأفهم لماذا لاترغبان أن تشرحا لي ما الذي يجري هنا ، فأنا سأعرف ذلك عاجلاً أم آجلاً . لماذا كل هذه الأسرار والألغاز ؟

ــ ستعرف عندما يأتي الزوار إليك خصيصاً .

وتراءى لي أنه ينتظر شيئاً ما ولايرغب بمتابعة الحديث . وسألني عندما أدرت ظهري له :

ــ إلى أين أنت ذاهب ؟

لم أرد عليه .

لم يتغير أي شيء على مهبط الصاروخ . كانت قمرتي في الأعلى . اقتربت من مكان حفظ البذات . وفقدت الرغبة في التحليق فجأة ، رجعت وهبطت على درجات السلم الدائري إلى المستودعات في الأسفل .

كانت الاسطوانات والصناديق مكدسة في الدهليز الضيق ذي الجدران المعدنية الضاربة للزرقة والغير مطلية بأية مادة . وبعد عدة خطوات ظهرت خراطيم أجهزة التبريد المغطاة بالأينيوم الأبيض تحت السقف .

تابعت السير متتبعاً الخراطيم التي امتدت إلى مكان محكم الأغلاق من خلال واصل مغطى بالبلاستيك السميك .

وعندما فتحت الباب المحاط بحافة المطاط مسافة راحة كفين أثنين شعرت بالبرودة تنخر في عظامي وتدلت من أجمة الأنابيب الحلزونية المثلجة حبال جليدية . وكانت الصناديق والعلب مغطاة بطبقة من الجليد من شدة الصقيع . أما الرفوف فكانت مليئة بالعلب المختلفة وكتل الشحم الصفراء المغلفة بالبلاستيك الشفاف .

في العمق ، كانت قبة واطئة على شكل برميل ، وهناك شاهدت ستارة تلمع من الصنارات الجليدية . أزحت الستارة وشاهدت شيئاً ضخماً طويلاً عليه غطاء رمادي فوق الشباك الألمنيومية . ورفعت طرف الغطاء وشاهدت وجه « غيباريان » المشوه . كان شعره الأسود ذي الخصل الشائبة يتحدر فوق جبين جمجمته وتفاحة آدم معلقة في الأعلى ، محطمة خط عنقه . كانت عيناه المتجمدتان تحدقان بثبات إلى السقف وقد تجمدت قطرة ما عائمة في زاوية إحدى عينيه . كان البرد ينهشني وبصعوبة فائقة منعت أسناني من الاصطكاك ، ودون أن أترك الكفن من يدي لامست خديه بيدي الأخرى . وشعرت كأنني لامست قرمة متجلدة . كان جلد وجهه مخرمشاً من الشعرات التي كانت تغطيه بنقاط سوداء وقد تسمَّر تعبيرُ صبرٍ واحتقار لايوصف على اعوجاج شفتيه. وبعد أن أعدت طرف الغطاء إلى مكانه لاحظت في الطرف الآخر من الجثة خرزات طويلة سوداء شبيهة بحبات الفاصولياء تعلو في الطيات . تجمدت .

كانت تلك هي أصابع الأقدام العارية التي شاهدتها من جهة بطن القدم وكانت مخدات الأصابع الشبيهة بالبيض مبتعدة عن بعضها قليلاً . كانت زنجية متمددة تحت حجاب الكفن النعنعي . كانت متمددة على بطنها وكأنها في نوم عميق ورفعت الغطاء السميك بوصة ، بوصة . كان شعرها المحزوم في جدائل صغيرة زرقاء يرتاح على يدها المعقوفة الضخمة . وكان جلدها اللماع يمتد على درنات فقراتها . لم يقدم هذا الجسد الهائل أية إشارة تدل على الحياة . مرة أخرى نظرت إلى أسفل قدميها العاريتين وذهلت لملاحظة صغيرة وهي أن أقدامها لم تكن مفلطحة أو متأثرة من ثقلها الكبير الذي تحمله وهي تسير حافية . وكان جلد قدميها غريباً ، رقيقاً مثل جلد يديها أو كتفيها . أردت التأكد من صحة ملاحظتي وبصعوبة تفوق ملامستي لجثة « غيباريان »

لامست قدميها . وحدث ماهو غير متوقع ، إذ تحرك الجسد وتبين أنه حي في درجة برودة تصل إلى العشرين تحت الصفر . كانت حركتها شبيهة بحركة كلبة جُرَّت من قدمها .

« لابد أن تتجمد » فكرت بذلك لكن جسدها بقي هادئاً . ولم يكن بارداً تماماً . مرة أخرى لامست رؤوس أصابعها ملامسة خفيفة وأختفيت خلف الستارة التي أعدتها إلى مكانها وتوجهت إلى الدهليز . شعرت بمرارة شيطانية في الدهليز . وقادني الدرج مرة أخرى إلى محطة الصاروخ . جلست على المظلة المخزومة وأحتضنت رأسي بين يدي .

لم أعرف ما الذي كان يحدث معي . كنت محطماً تماماً وكانت أفكاري تزحف نحو هاوية مبهمة . وتخيلت أن فقدان الوعي والموت أشياء لاتصدق ولايمكن الحصول عليها عن طريق الحسنات .

لم أشعر بحاجة الذهاب إلى « سناوت » أو إلى سارتوريوس . إذ لم أعد مقتنعاً أن أحداً منهما قادر على تكوين فكرة متكاملة حول ما رأيته وما لامسته بيدي وماعانيت منه والمخرج الوحيد هو الهروب الذي سيفسر كعمل لاعقلاني .

نعم من الجائز أنني فقدت توازني العقلي منذ وصولي . ربما نتج ذلك عن تأثير المحيط على دماغي فبدأت أعاني من هلوسة بعد أخرى . وإن كان الأمر كذلك فلا داع لهدر القوى في محاولات بائسة في سبيل تخمين ماهو غير موجود في الواقع من ألغاز . وهذا يعني أنه يتوجب عليَّ أن أهرع لطلب المساعدة الطبية وأن أستدعي « برميثيوس » أو أية مركبة أخرى . عليَّ أن أرسل إشارة SOS ... وهنا حدث مالم أتوقعه فلقد شعرت بالهدوء من فكرة أنني فقدت عقلي ... جننت .

فهمت الآن جيداً كلمات « سناوت » هذا إن افترضنا أن « سناوت » موجود فعلاً وأنني تحدثت معه في وقت من الأوقات . ربما بدأت الهلوسة معي قبل ذلك بمدة طويلة.من يعلم ؟ لعلي ما أزال على متن « بروميثيوس » أعاني من الحالة المفاجئة لمرض عقلي اصابني ، ومن الجائز أن كل ماشاهدته مجرد أشياء صنعها خيالي المتوهج . هذا يعني أنني ربما سأشفى قريباً إن كنت مريضاً فعلاً وهذا ما يمنحني الأمل بالخلاص . ذلك الخلاص الذي لم أره أبداً في تقلبات كوابيس سولاريس التي استمرت عدة ساعات .

بناءً على ذلك كان لابد لي من إجراء تجربة مدروسة على نفسي ـــ EXPERIMENTUM ERUEIS * استطيع من خلالها الإجابة على السؤال التالي :

هل سقطت ، وأصبحت ضحية تصورات هذيانية ؟ أم أن تخيلاتي واقعية تماماً بغض النظر عن عبثها التام وكذبها الفريد ؟
هذا ما فكرت به وأنا أتفحص الدعامة المعدنية التي تسند حامل هيكل مدرج الصاروخ وهي عبارة عن سارية مبنعثة من الجدار ، مبنية من صفائح فولاذية مقعرة مطلية بلون الفولاذ وقد تقشر طلاؤها على ارتفاع متر . ربما حدث ذلك من جراء حفيف العربات التي تمر بها . لامست الفولاذ وسخنته قليلاً براحة يدي ثم نقرت على الصفيح الواقي : ترى هل يمكن للهلوسة أن تصل إلى هذه الدرجة من الواقعية ؟ ممكن.أجبت على تساؤلي . ورغم كل شيء فهذا من اختصاصي وكنت أتمعن في ذلك .

وهل يمكن التفكير بإجراء التجربة ؟ أعتقدت أولاً أنني لن أستطيع لأن دماغي المريض (هذا إن كان مريضاً حقاً) سيبني خيالات شتى ، تلك التي أتطلبها لأنه غالباً ما يحدث في الحلم وليس في حالة المرض أن يتحدث المرء

---

* تجربة أولية

مع أناس لايعرفهم في اليقظة ويطرح عليهم في الحلم أسئلة ويسمع أجوبتها على الرغم من أن حقيقة هؤلاء الناس هي مجرد ثمار لحالاتنا النفسية ومع ذلك لانستطيع نحن البشر أن نعرف بأية كلمات سينطقون حتى يتوجهوا إلينا بعباراتهم وذلك في حالة انفصالهم الوقتي عنا كأجزاء ذات استقلالية وهمية ، علماً بأن عباراتهم التي سيجيبون بها على أسئلتنا قد تشكلت في الجزء المنفرد لوعينا الخاص وكان علينا أن نعرفها منذ تلك اللحظة التي اخترعناها لنضعها على شفاه محدثنا الصوري . هذه هي حقيقة الأمر . لهذا أستطيع القول إنني مهما فكرت وبأية طريقة تصرفت فإنني سأكون قد فكرت وتصرفت كما أفكر وأفعل في الحلم . ومن الجائز أن « سناوت » و « سارتوريوس » هما نتاج خيالي وغير موجودين في الواقع لهذا فإن توجيه الأسئلة إليهما يبدو عملاً عديم الجدوى .

كما فكرت أنني ربما تناولت دواء ذي تأثير فعال يصاب المرء منه بالهلوسة أو التصورات الملونة مثل البيونيل أو أي مستحضر آخر . وبرهنت لي هذه الظواهر الشاذة أنني تجرعت فعلاً من هذه المواد التي تشكل جزءاً من الواقع المادي الذي يحيط بي .

ولم تكن التجربة ــ تابعت التفكير ــ بحاجة لذلك . لأنني كنت أعلم مسبقاً كيف ستعمل الوسيلة الفعالة (التي ربما اخترتها بنفسي) . وهذا يعني أن عملية أخذ الدواء وفعاليته ستكونان من نتاج خيالي على حد سواء .

أعتقدت أنني لن أخرج من هذه الدائرة الفارغة التي وقعت فيها لأنني من المستحيل أن أفكر بغير عقلي ، ومن المستحيل الخروج من الذات كي أتفحص العمليات الجارية في جسدي.وفجأة خطرت في ذهني فكرة ناجحة بقدر ماهي بسيطة .

نهضت وركضت نحو محطة الارسال . لم أجد أحداً هناك . ألقيت نظرة على الساعة الجدارية الكهربائية . كانت الساعة تشير إلى الرابعة ليلاً . أقصد الليل الظرفي للمحطة . وفي الخارج كان الفجر الأحمر يتوهج . وشغلتُ بسرعة أجهزة الارسال البعيدة المدى وكررت مراحل التجربة ذهنياً ريثما تسخن المصابيح .

لم أتذكر الاشارة التي أستطيع بها مخاطبة تابع سولاريس وهي عبارة عن محطة أوتوماتيكية تدور حوله غير أنني وجدتها مسجلة على الجدول المعلق فوق لوحة الادارة الرئيسية . أرسلت النداء واستلمت الجواب بعد ثماني دقائق . أجابني التابع والأدق أجابني عقله الالكتروني الذي بدأ يبعث بنبضات إيقاعية . عندئذ طلبت منه أن يخبرني بدقة خمسة أعشار الاشارة عن خطوط الزوال التي يجتازها في قبة سماء المجرة في فاصلة زمنية قدرها إثنان وعشرون ثانية أثناء دورانه حول سولاريس . وجلست أنتظر . جاءني الجواب بعد عشر دقائق . فصلت الشريط الورقي الذي تسجلت عليه النتائج وخبأته في الصندوق دون أن أتطلع إليه ثم جلبت من المكتبة الخرائط الكبيرة للسماء وجداول اللوغاريتم والكتاب المخصص لحركة التابع اليومية وبعض الكتب الأخرى ثم بدأت أبحث عن مدى تطابق الحساب مع جواب التابع . لم أعد أذكر آخر مرة قمت فيها بإجراء مثل هذه الحسابات الضخمة . ربما منذ سنوات الدراسة وأثناء الامتحان بعلم الفلك .

أجريت الحسابات على حاسوب المحطة الكبير . فكانت فكرتي تقول تقريباً إنني سأحصل من خرائط السماء على أرقام لاتتطابق والمعطيات التي قدمها التابع ، لاتتطابق بسبب تعرض التابع لاضطرابات معقدة ناتجة عن تأثير قوى الجاذبية لسولاريس ومن الشمسين الدائرتين خلف بعضهما . وكذلك من تبدلات قوى التجاذب المحلية الناتجة عن المحيط . وعندما أحصل على

صفين من الأرقام ، صف الأرقام التي حصلت عليها من التابع وصف من الأرقام التي سأحسبها نظرياً عندئذ سأجري التصليح على حساباتي وستتطابق مجموعتي الأرقام حتى العلامة الرابعة بعد الفاصلة وسيحصل الخلاف في العلامة الخامسة التي ستعكس فعالية المحيط اللامحسوبة .

وفي هذه الحالة لايمكن للأرقام الواردة من التابع إن كانت غير موجودة في الواقع وهي ثمار لخيالي ، لايمكنها أن تتطابق مع المعطيات المحسوبة . من الممكن أن يكون دماغي مريضاً لكنه لن يكون قادراً في أية حال من الأحوال على حساب ما يحسبه العقل الالكتروني الكبير للمحطة . إن مثل هذا العمل يتطلب شهوراً عديدة وبناء عليه سيكون حاسوب المحطة الكبير موجوداً في حقيقة الأمر ، وليس من صنع خيالي في حال تطابق الأرقام .

رجفت ساقي عندما أخرجت من الصندوق شريط التلغراف ووضعته قرب شريط الحاسوب الأعرض منه . تطابقت الأرقام كما توقعت . حتى العلامة الرابعة . وظهر الاختلاف في الخامسة . أخفيت كافة الأوراق في الدرج ، هذا يعني أن الحاسوب شيء موجود فعلاً بشكل منفصل عني ، وهذا يعني أن المحطة وما عليها حقيقي وواقعي .

أردت إغلاق الصندوق بيد أنني لاحظت رزمة كبيرة من الأوراق مليئة بالاحصائيات المستعجلة . أخرجت الرزمة وأدركت من النظرة الأولى أن شخصاً آخر قد قام بهذه التجربة من قبل ، والفارق الوحيد هو أنه طلب من التابع حجم سولاريس في فاصلة زمنية مقدارها أربعون ثانية ــ بدلاً من المعطيات المتعلقة بالمحيط الفضائي . هذا يعني أنني لست مجنوناً . إنطفأ لدي آخر شعاع أمل . أغلقت جهاز الأرسال وشربت ما تبقى من الحساء الموجود في الترميوس وذهبت للنوم .

هـاري

أجريت حساباتي بحنق صامت ، وهذا ماساعدني على الوقوف على ساقيّ . تخدرت من التعب حتى أنني لم أعد أملك القدرة على مد فراشي ، وامتدت يداي إلى الدرابزون بدلاً من تحرير السرير من مشداته العلوية ، فسقط الفراش عليّ مباشرة أخيراً مددت السرير ورميت الثياب والأغطية على الأرض . وسقطت على الوسادة وأنا أكاد أموت من التعب حتى لم أنفخ الفراش كما يجب . ولا أعرف متى غرقت في النوم تاركاً النور مضاءً . وعندما فتحت عيني أحسست أنني لم أغف سوى بضع دقائق . كانت الغرفة ملتحفة بهالة حمراء متجهمة وشعرت ببروودة ولذة . وفجأة وقعت عيناي على شخص يجلس على الكنبة تحت النافذة في مواجهة السرير مضاءً بأشعة الشمس الحمراء . هذه هاري كانت تجلس في مريول أبيض حافية القدمين متراخية اليدين المشمستين حتى المرفقين وقد انسدل شعرها الأسود على ظهرها وقماش رقيق يغطي صدرها ، وهي تنظر نحوي من تحت رموشها السوداء دون حراك ، تأملتها طويلاً وكنت هادئاً بشكل عام ، وكانت أول فكرة جاءتني هي : « كم لطيف أن تحلم وتدرك أنك تحلم » . ومع ذلك تمنيت لو اختفت ، أغمضت عيني وأجبرت نفسي على الرغبة بذلك بقوة ، لكنها ظلت على جلستها كما كانت أمامي عندما فتحت عيني .

زمت هاري شفتيها كعادتها وكأنها تريد أن تُصفر لكنني لم ألاحظ أية

ابتسامة في عينيها . واسترجعت مافكرت به عن الأحلام مساء قبل أن اتمدد للنوم . كانت هاري مثلما رأيتها في آخر مرة عندما كانت على قيد الحياة ، كان عمرها تسعة عشر عاماً آنذاك ولكانت في التاسعة والعشرين لوبقيت على قيد الحياة .

لكن من الطبيعي أن لاتتبدل . فالأموات يبقون شباباً . ظلت هاري تنظر إلي بنفس تلك العيون المذهولة . وخطر في ذهني أن أرميها بأي شيء تحت يدي غير أني لم أتجرأ رغم أن ما أشاهده مجرد حلم .

— جئت لزيارتي يا فتاتي المسكينة ؟ أليس كذلك ؟

قلت ذلك وشعرت بالخوف لأن دوي صوتي كان حقيقياً . الغرفة وهـــاري ، كان كل شيء يبدو واقعياً أكثر مما يتصوره المرء .

ماهذا الحلم المنسجم . فبالاضافة إلى كونه حلماً ملوناً شاهدت كثيراً من الأشياء التي لم ألاحظها البارحة على الأرض عندما استلقيت للنوم ، وقررت في داخلي « أن أفحص كل هذه الأشياء عندما أستيقظ ، أن أتاكد من وجودها الفعلي ، أم تراها جزء من حلم مثل هاري ... » .

— هل أنت عازمة على البقاء طويلاً بهذا الشكل ؟

ولاحظت أن صوتي خرج خفيفاً ، وكأنني أخاف أن يسمعني أنسان آخر وكأنه يمكن التصنت لما يجري في الحلم .

ارتفعت الشمس قليلاً في هذا الوقت ، وفكرت :

« هكذا إذن . ممتاز . لقد استلقيت عندما كان النهار أحمراً . وبعد النهار الأحمر سيأتي الأزرق ومن ثم الأحمر الثاني . إذن هذا حلم ولاشك لأنني من المستحيل أن أنام خمس عشر ساعة دون انقطاع » .

نظرت إلى هاري بهدوء وانتباه . سقط الضوء عليها من الخلف . وكان

الشعاع النافذ من شق الستارة يُذهِّب زغب خدها الأيسر المخملي . وارتسمت ظلال طويلة لرموشها على وجهها . كانت تبدو رائعة . ورحت أحدث نفسي :

« حدثني من فضلك ـــ جاءتني هذه الفكرة ـــ ما هذه الدقة المتناهية والواقعية فأنا ألاحظ حركة الشمس وتلك الغمازة اللامثيل لها تحت زاوية شفاهها الدهشة » ومع ذلك تمنيت لو ينتهي ذلك بأقصى سرعة .

حان وقت العمل . وجمعت قواي محاولاً النهوض ، فجأة سمعت صريراً وفتحت عيني في نفس اللحظة .

كانت هاري جالسة قربي على السرير غارقة في تأملي . ابتسمت لها . فأجابت بابتسامة وانحنت فوقي . كانت القبلة الأولى خفيفة كأننا مازلنا أطفالاً ثم قبلتها طويلاً . « هل يمكن استغلال الحلم بهذه الطريقة ؟ » . فكرت بهذا الأمر و لم اعتبره خيانة لذكراها فأنا أحلم بها . لم يحدث ذلك معي من قبل .....

استلقينا دون أن نتحدث بشيء كعادتنا . وعندما رفعت رأسها شاهدت خياشيمها الصغيرة التي كانت بمثابة مؤشر يكشف عن مزاجها . لامست أذنيها برؤوس أصابعي . كانت شحمات أذنيها متورمتين من القبل . لا أعرف هل بدأ القلق يسيطر عليَّ من جراء ذلك . فأنا كنت ما أزال أقنع نفسي أنني أرى حلماً . شعرت بضغط على قلبي . تهيأت لأقفز من الفراش ، لكني تهيأت للفشل . لأننا لانستطيع أن نتحكم بحركة جسدنا في الحلم عادة ـــ بالأحرى حسبت أنني أستيقظ من هذا الكابوس لكني لم أستيقظ بل جلست على السرير لاغير .

أرخيت قدمي على الأرض . استسلمت . « لن أستطيع فعل أي شيء .

لأحلم حتى النهاية » . وفارقني مزاجي الطيب . ارتعبت .

ــ ماذا تريدين ؟

إنبعث صوتي متحشرجاً وسعلت . وبحركة آلية بدأت أبحث بقدمي عن حذائي الليلي وقبل أن أتذكر أنني لن أجد أي حذاء ليلي في هذه المحطة رضضت إصبعي وتأوهت ألماً . « الآن سينتهي كل هذا » حدثت نفسي بمتعة فائقة . لكن شيئاً لم يحدث . وابتعدت هاري قليلاً عندما أردت النهوض . كانت هاري تستند بمنكبيها على ظهر السرير . وكان فستانها يهتز قليلاً تحت ثديها الأيسر مشيراً إلى حركة قلبها . فكرت أن أستحم بمياه الدوش . وأدركت في نفس اللحظة أن الدوش الذي أحلم به لن يساعدني على الاستيقاظ . .

ــ من أين جئتِ ؟

أخذت هاري يدي وبدأت تداعبها بحركاتها الاعتيادية . وأجابت :

ــ لا أعرف . هل هذا شيء سيء ؟

إنه صوتها ، الهادىء ... الشارد . كانت دائماً تتحدث بهذه الطريقة وكأنها تفكر بأشياء أخرى .

ــ هل رآك أحد ؟

ــ لا أعرف . كل مافي الأمر أنني جئت إليك . وهل هذا هام ياكريس ؟

كانت هاري ماتزال تداعب يدي . لكن وجهها لم يعد يشاركها ذلك . تجهم .

ــ هاري

ــ نعم ياحبيبي

ــ كيف علمت بمكان وجودي ؟

بدت وكأن السؤال قد شغل فكرها .

ـــ ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك . شيء مضحك أليس كذلك ؟ كنت نائماً عندما دخلت إليك . ولم تستيقظ . لم أرغب بايقاظك لأنك شرس وسريع الغضب . ودفعت يدي بقوة تناسب إيقاع كلماتها الأخيرة .

ـــ هل كنتِ في الأسفل ؟

ـــ كنت ، وهربت من هناك . البرد هناك شديد للغاية .

تركت هاري يدي وهزت رأسها وهي متمددة على جنبها كي ينسدل شعرها على جانب واحد . ونظرت إليَّ بتلك النصف ابتسامة التي لم تعد تثيرني منذ سنوات عديدة عندما أدركت أنني أحبها .

ـــ لكنكِ ... هاري ... أنتِ . ولم أستطع البوح أكثر من ذلك . ملت نحوها ، ورفعت ثوبها ذي الأكمام القصيرة وشاهدت علامة التلقيح ضد الجدري المحمرة الشبيهة بزهرة . ومع أنني توقعت ذلك . (لأني ولهذه اللحظة حاولت بواسطة الغريزة أن أجد شيئاً من المنطق في المستحيل) .

كدت أفقد رشدي . لامست آثار جرح التلقيح ، ذلك الجرح الذي كنت أراه في الحلم طوال سنوات عديدة ، حين كنت أستيقظ وأنا أنحب في الفراش الممزق في وضعية تتكرر دائماً ، وأجدها كعادتها متكومة على نفسها كما هي الآن ، حتى وجدتها ذات مرة باردة الجثة . ربما حاولت أن أفعل في الحلم ماكنت أفعله في الواقع وكأنني فعلاً أطلب منها العفو ، أو أن أكون معها في تلك الدقائق التي شعرت فيها ببدء تأثير الحقنة وسيطر عليها الخوف .

كانت تخاف حتى من الخدش الصغير ولم تكن تحتمل الألم أو رؤية الدماء ، وها هي الآن تقوم بهذا الفعل المرعب . لقد سجلت خمسة كلمات

على بطاقة معنونة لي . البطاقة بين أوراقي ، كنت أحملها معي دائماً ملطخة ممزقة من أطرافها . لم أتجرأ على فراقها . وعدت آلاف المرات بذاكرتي إلى تلك اللحظة التي كتبتها وإلى ما كان عليها أن تشعر به آنذاك . أقنعت نفسي أن ذلك مزاحاً لاخافتي ، وتبين أنها تناولت جرعة أكبر من ذلك صدفة . أقنعني الأصدقاء بصحة هذا التخمين . أو أن ماحدث كان نتيجة قرار لحظي ناتج عن حالة انقباض نفسي حاد . حالة مفاجئة لكنهم لم يعلموا ...

لقد حدثتها قبل خمسة أيام من ذلك الحادث عن كل شيء . ولأنال منها كلياً بدأت بحزم أمتعتي . وسألتني بهدوء بعدما جهزت نفسي « هل تدرك ماذا يعني هذا .... » ومع أنني فهمت جيداً ما يعنيه تظاهرت أنني لم أفهم شيئاً . حسبتها جبانة وصرحت لها بذلك . والآن ها هي مستلقية على عرض السرير تنظر إلى بانتباه وكأنها لاتعلم أنني قتلتها .

اصطبغت الحجرة باللون الأحمر ولمع شعر هاري عندما نظرت إلى كتفها . ثم وضعت خدها الأملس البارد على راحة يدي بعدما أرخيتها .

ــ هاري.تحشرج صوتي. هذا مستحيل .

ــ كفاك !

كانت عيناها مغمضتين . لاحظت كيف رجف حاجباها ولامست رموشها خدها .

ــ أين نحن يا هاري ؟

ــ عندنا .

ــ وأين عندنا ؟

فتحت إحدى عينيها وأغمضتها من جديد ولامست برموش عينيها راحة كفي .

ـــ كريس !

ـــ نعم

ـــ أنا سعيدة .

جلست قربها وهي ممدة دون حراك . رفعت رأسي وشاهدت في المرآة المعلقة فوق المغسلة شعر هاري الأشعث وركبتي العاريتين وقسماً من السرير . جذبت بقدمي أداة من الأدوات النصف منصهرة المنتشرة في الحجرة ، ثم أمسكتها بيدي ووضعتها على جلد هاري ، فوق ذلك المكان الذي تورد فيه وشم التلقيح الشبيه بنصف دائرة وغرستها في جسدها . كان الألم حاداً . نظرت إلى قطرات الدم الكبيرة التي سالت منها على وركها وهوت على الأرض .

كل ذلك لم يساعدني في شيء . وأصبحت الأفكار المرعبة التي دارت في مخيلتي أكثر وضوحاً . ولم أعد أذكر لنفسي أن « هذا حلم » . وفكرت بشيء آخر « علي أن أدافع عن نفسي » نظرت إلى قدميها العاريتين ثم لامستهما بحذر شديد ، لامست اللطخة المتوردة وضغطت باصبعي على باطن قدمها . كانت طرية مثل قدم طفل حديث الولادة .

لعلني أدركت أنها لم تكن هاري ، ولم أرتاب أبداً من كونها لاتعلم ذلك بنفسها .

تحركت قدمها الحافية على راحة كفي وانتفخت شفتا هاري السمرواين من ضحكة مكتومة . وهمستْ :

ـــ كفى ...

ابعدت يدي بهدوء ونهضت وشاهدت كيف جلست على السرير وبدأت تنظر إلي وأنا أرتدي ثيابي على عجل .

ـــ أين ثيابك ؟ سألتها وندمت على ذلك .

ـــ ثيابي ؟

ـــ ألا تملكين سوى هذا الفستان ؟

بدأت اللعبة . بدأت أتحدث معها بحديث اعتيادي وبدون حذر متعمداً ذلك وكأننا لم نفترق عن بعضنا أبداً . نهضت ومررت يدها بحركتها القوية والرشيقة على فستانها لتتفحصه . يبدو أن كلماتي قد أثارتها . لم تنبث بأية كلمة . ألقت نظرة متفحصة على أرجاء الحجرة ثم التفتت نحوي بزهول وقالت بصوت واهٍ :

ـــ لا أعرف . ربما في الخزانة . وفتحت أبوابها .

ـــ فقلت لها : لايوجد في الخزانة سوى البذات . ثم اقتربت من المغسلة وأخذت آلة الحلاقة الكهربائية ورحت أحلق ذقني ، محاولاً ألا أتركها خلف ظهري . بغض النظر عمن تكون .

تجولت في الغرفة . تطلعت في الزوايا . ألقت نظرة في النافذة . واقتربت مني أخيراً .

ـــ كريس لدي إحساس أن شيء ما قد حدث .

توقفت عن الحلاقة ، أطفأت الآلة وانتظرت .

ـــ كأنني نسيت شيئاً ... نسيت أشياء كثيرة .. أعرف ... أتذكر نفسي ... و ... لاشيء أكثر من ذلك .

استمعت إليها وأنا أحاول إخفاء تعابير وجهي .

ـــ كنت مريضة ؟

ـــ جائز . ربما كنت مريضة بعض الوقت .

ـــ ربما كان مرضك سبباً لنسيانك ؟

عاد إليها سرورها بسرعة وأنا لا أستطيع وصف ما شعرت به في تلك اللحظة .كان انفعالي من حركتها ، من صمتها ، من جلستها ، من ابتسامتها ، ومن شعوري أنني أرى هاري أمامي أقوى وأشد من انفعالي في حالة الطوارىء والأنذار . وتراءى لي بعد ملاحظة حركتها المعتادة وطبيعة حديثها وإشارتها أنها صورة مبسطة عن هاري . اقتربت مني واتكأت بقبضتيها المشدودتين على صدري وسألت :

ــ كيف أحوالنا الآن ؟ حسنة أم سيئة ؟

ــ في أحسن حال !

ابتسمت ابتسامة طفيفة .

ــ عندما تقول ذلك هذا يعني أن الأمور سيئة .

ــ كيف استنتجت ذلك ؟ ياهاري .... ثم أضفت مسرعاً : عزيزتي عليَّ أن أذهب الآن ، أنتظريني . حسناً . هل أنت جائعة ؟

وشعرت بجوع في معدتي وسألتها مرة أخرى :

ــ هل أنت جائعة ؟ لا ؟

ــ هل عليَّ أن أنتظرك ؟ ولمدة طويلة ؟

ــ لساعة ...

ــ سأذهب معك .

هذه هاري أخرى . لم تكن تلك تتعلق بي أبداً .

ــ من غير الجائز يا طفلة .

نظرت إليَّ منكسة الرأس . بغتة أمسكت بذراعي . لامست بيدي كتفها الدافىء المرن . أدركت أنني أداعبها . لقد عرفها جسدي واشتهاها ، شعرت بشيء يشدني إليها بغض النظر عن المنطق والعقل والرعب . حاولت قدر

استطاعتي أن أحافظ على هدوئي . قلت لها :
ــ هاري ، هذا شيء مستحيل . عليك أن تبقى هنا .
ــ كلا

كيف خرج صوتها !
ــ لماذا ؟
ــ لا . لا أعرف

تأملتني وواجهتني بنظراتها .
ــ لا أستطيع ... قالت هاري بصوت خافت .
ــ لماذا لاتسطيعين ؟
ــ لا أعرف . لكنني لا أستطيع . أشعر ... أشعر . وبحثت في ذاتها بعناد عن جواب . وعندما وجدته كان لها بمثابة اكتشاف كبير .
ــ أشعر أن عليَّ أن أراك طوال الوقت .

أحسست بشيء مزعج في كلماتها وربما فعلت مالم أكن قد رسمت له . لويت ذراعيها خلف ظهرها وأنا أتفرس في عينيها .

لم أفعل ذلك بعزيمة في البداية ، لكنها تحولت إلى شيء مدرك وأصبحت لي هدفاً .
بدأت أبحث بعيني عن شيء أستطيع تكبيلها به .

انثنى مرفقاها إلى الخلف بسهولة واصطدما ببعضهما . ثم توترا بشدة في نفس اللحظة . وأدركت عدم جدوى محاولتي . قاومت مدة ثانية لا أكثر . لو كان أقوى المصارعين في مكانها ــ أي في وضعيتها بعد أن مالت إلى الخلف حتى لم تعد قدماها تلامسا الأرض إلا قليلاً ــ لما استطاع أن يحرر نفسه ، أماهي فقد أفلتت من قبضتي ، دون أن يطرأ أي تغيير على

معالم وجهها الذي حافظ على ابتسامته الطفيفة المتزعزعة . ثم انتصبت وأرخت ذراعيها .

ظلت تنظر إلي بنفس الاهتمام الذي رأيتها فيه عندما استيقظت . ولم تعر اهتماماً لمحاولتي اليائسة الناتجة من حالة الفزع . وقفت دون حراك كأنها تنتظر شيئاً ما وبنفس الوقت بدت لامبالية ، مركزة ومذهولة قليلاً .

تركتها في منتصف الغرفة وتوجهت نحو الرف الذي فوق المغسلة لأبحث عن مخرج ، لاختار أشد الوسائل قوة في الصراع . وإن سألني أحد عما يحدث لما استطعت أن أجيبه بكلمة ، بيد أنني توصلت إلى استنتاج مفاده أن مايحدث في المحطة معنا جميعاً يشكل وحدة متكاملة مرعبة ومبهمة . وفكرت في نفسي اللحظة بشيء آخر . ركزت اهتمامي في البحث عن شعوذة ما ، عن شيء سحري استطيع الفرار بواسطته . وكنت أشعر بنظراتها دون أن ألتفت إليها . نظرت بسرعة إلى محتويات الصيدلية الصغيرة فوق الرف داخل الجدار . أخذت أربع حبات من علبة الحبوب المخدرة ووضعتها في كأس دون أن أحرص على إخفاء ذلك عن أعين هاري . أربع حبات هذه أكبر جرعة ممكنة . من الصعب أن أفسر ذلك . ببساطة لم أفكربه . صببت ماءً ساخناً في الكأس وانتظرت ريثما تذوب الحبات الأربع ثم أقتربت من هاري التي كانت ماتزال واقفة في وسط الحجرة . وسألتني :

ـــ هل أنت غاضب ؟

ـــ كلا لست غاضباً . إشربي هذا .

لا أعرف سبب اعتقادي أنها ستنصاع لي . وفعلاً أخذت الكأس من يدي وشربت مايحتويه الكأس المحلول دفعة واحدة . وضعت الكأس الفارغ على الطاولة وجلست في الزاوية بين الخزانة ورف الكتب . اقتربت هاري

بخطوات بطيئة . جلست على الأرض بعد أن لوت قدميها تحتها بحركة كانت تقوم بها سابقاً ثم دفعت بشعرها إلى الخلف بحركة لاتقل جودة وإتقاناً عما كانت تفعله سابقاً . ورغم أنني لم أعد أصدق أبداً أنها هاري الحقيقية كنت أشعر بضيق من أنفاسي من كل مرة أتعرف على حركاتها الاعتيادية .

لم يكن ذلك مفهوماً بل كان مرعباً والأفظع من ذلك توجب علي أن أتزيف وأتظاهر أنني أرى فيها هاري الحقيقية .

بيد أنها تحسب نفسها هاري ولم تكن تتلاعب في سلوكها من وجهة النظر هذه . لا أعرف كيف توصلت إلى هذه الفكرة لكنني كنت واثقاً من ذلك إن كنت أستطيع أن أثق بأي شيء عموماً ! كنت ما أزال جالساً عندما أسندت هاري كتفها على ركبتي ووخز شعرها يدي . جلسنا دون حراك تقريباً . تطلعت خفية مرتين إلى الساعة . مضت نصف ساعة . على المخدر أن يفعل فعله . ودمدمت هاري بشيء لم أفهمه .

ـــ ماذا تقولين ؟

سألتها ، لكنها لم تجبني . واعتبرت ذلك بمثابة إشارة على سريان مفعول المخدر في جسدها . مع أنني والصدق أقول : كنت أشك في أعماقي بقدرة المخدر في التأثير عليها . لماذا ؟ لم أجد جواباً لهذا التساؤل . والأرجح أن خديعتي لها كانت في غاية السذاجة .

مال رأس هاري قليلاً على ركبتي . غطى شعرها الفاحم وجهها . وانتظمت أنفاسها كأنسان نائم . أنحنيت لأحملها إلى السرير . فجأة أمسكت بشعري دون أن تفتح عينيها وانفجرت في ضحك مجلجل .

تسمرت في مكاني . استمرت هاري في الضحك . ضيقت عينيها وراحت تراقبني بسحنة ساذجة وخبيثة . جلست خائراً مذهولاً بدون حراك .

انقطعت هاري عن الضحك وضغطت بخدها على يدي وهدأت .

ــ لماذا تضحكين ؟ سألتها بصوت جاف خشبي . ومرة أخرى ظهر ذلك القلق الذهني على وجهها . ولاحظت أنها تريد أن تكون صادقة . وقالت أخيراً بعد أن تنفست الصعداء ولامست بإصبعها أنفها الصغير :

ــ أنا نفسي لاأعرف .

ودوت في إجابتها دهشة حقيقية .

ــ أبدو مثل حمقاء . أليس كذلك ؟ أوقل نصف حمقاء ... بيد أنك طيب والحق يقال ! تجلس متجهماً مثل ... مثل بيلفيس ...

ــ مثل من ؟ سألتها وكنت متأكداً مما سمعته .

ــ مثل بيلفيس ، ذلك البدين . أنت تعرفه .

دون أدنى شك لم يكن باستطاعة هاري أن تعرف بيلفيس ولاحتى أن تسمع به ، لسبب بسيط هو أنه عاد من رحلته العلمية بعد ثلاثة أعوام من وفاتها وأنا كذلك لم أكن أعرفه ذلك الحين ، عندما كان يمثل المعهد في الاجتماعات واللقاءات ، وكان من عادته أن يطيل المناقشات إلى مالانهاية .

والحقيقة كان اسمه مؤلفاً من بيلي وفيليس . وتكون اسمه المختصر من هاتين الكلميتن الأمر الذي لم يكن معروفاً قبل عودته أيضاً .

استندت هاري بمرفقيها على ركبتي وحدقت في عيني . أمسكت بخصلات شعرها وحركت يدي ببطء إلى الأعلى ، إلى كتفيها . كادت أصابعي تحيط بجيدها النابض ويمكن اعتبار ذلك بمثابة مداعبة . وأدركت من نظراتها أنها اعتبرت هذه الحركة بمثابة مداعبة أما حقيقة الأمر فهو أنني أردت التأكد من طبيعة جسدها . هل هو جسد بشري عادي دافىء . وهل لهاري عظام تحت عضلاتها . وشعرت برغبة شديدة في الضغط عليها بأصابعي وأنا أنظر

إلى عينيها الهادئتين . كدت أفعل ذلك عندما تذكرت فجأة يدي سناوت الداميتين وتركتها .

ــ ماهذه النظرة ؟ سألتني هاري بصوت هادىء .

اشتد خفقان قلبي ولم استطع الاجابة فاغمضت عيني .

فجأة ولدت في ذهني خطة عمل متكاملة بكل تفاصيلها . نهضت مسرعاً كي لا أضيع الوقت .

ــ حان وقت ذهابي يا هاري ، ولنذهب سوياً إن كنت ترغبين بذلك .

ــ حسن .

وانتصبت واقفة .

ــ لماذا تسيرين حافية ؟

سألتها وتوجهت إلى الخزانة لاختار من بين البذات المختلفة الألوان بذتين واحدة لي والأخرى لهاري .

ــ لا أعرف ... ربما رميت حذائي في مكان ما ... أجابت هاري دون ثقة بكلامها .

لم أعر كلماتها اهتماماً .

ــ لن تستطيعي ارتداء البذة وأنت في فستانك . اخلعيه

ــ البذة ولماذا؟ بدت مهتمة بالأمر وراحت تنزع فستانها . وهنا ظهرت مسألة مدهشة . لم يكن بمقدورها خلع الفستان . لم يكن للفستان أية أزرار أو سحاب أو خطاطيف . لاشيء . كانت أزراره الحمراء في منتصفه للزينة فقط .

ابتسمت هاري ابتسامة بلهاء وتظاهرت بأن فستانها هو أكثر الأشياء

اعتيادية في الكون . أما أنا فأخذت من الأرض أداة شبيهة بمبضع وقصصت ثوبها من الظهر حتى العنق . صار بإمكانها خلعه الآن من فوق رأسها . كانت البذة كبيرة عليها قليلاً وسألتني بعدما خرجنا من الغرفة وقد ارتدينا البذات .

ــ هل سنطير ؟ ... وأنت كذلك ؟

أشرت لها برأسي إيجاباً . خفت أن يرانا سناوت . كان الممر المؤدي إلى ساحة الاقلاع فارغاً . وأبواب محطة الارسال مغلقة . راقبت هاري كيف أخرجت الصاروخ على عربة كهربائية صغيرة من مقره إلى الطريق الحر . تفحصت جاهزية مفاعله الصغير ومقود التحكم والاشطمان . ثم سحبت الصاروخ مع عربة الاقلاع إلى السطح الدائري لدائرة الاقلاع تحت قمع القبة الرئيسي ومسبقاً كنت قد أبعدت قمرتي الفارغة .

كان الصاروخ صغيراً يستخدم لإقامة الصلات بين المحطة والتابع الفضائي ولنقل الشحنات ، ولم يكن يستخدم لنقل البشر . وكان الرواد يحلقون عليه في ظروف استثنائية لأنه لايمكن فتحه من الداخل . وهذا كان جزءاً ضرورياً من خطتي . الحقيقة أنني لم أرغب في إطلاق الصاروخ لكنني تظاهرت أنني أجهزه للاقلاع . وكانت هاري التي رافقتني في بعض الرحلات السابقة تعرف بعض الأشياء في هذا المجال . مرة أخرى ألقيت نظرة على أجهزة الأوكسجين في الداخل ، وتفحصت المكيف وأدرت المحركات ،وعندما وصلت الحركة إلى السلسلة الأخيرة واشتعلت مصابيح الاشارة خرجت من القمرة الضيقة وأشرت لهاري الواقفة قرب الدرج أن تدخل إلى القمرة .

ــ ادخلي

ــ وأنت ؟

سأدخل وراءك . علي أن أغلق الكوة بعد دخولنا .

كنت متأكداً من أنها لن تلاحظ أنني أخدعها وأدخلت رأسي إلى داخل القمرة بعدما جلست هاري فيها وسألتها إن كانت مرتاحة في جلستها . وعندما سمعت كلمة « نعم » الصماء المكتومة . قفزت إلى الخلف وأغلقت الكوة بإحكام وبحركات سريعة أغلقت المزلاجين حتى النهاية وبدأت شد البراغي الخمسة المثبتة في عمق الغطاء الصفيحي بالمفتاح المهيأ خصيصاً لها .

وقف الصاروخ ذو الرأس الحاد بشكل عامودي وكأنه سيقلع فعلاً بعد لحظات إلى الفضاء . وعرفت أن المحتجزة في الداخل لن تفعلَ شيئاً .

كان الصاروخ يحتوي على كمية وفيرة من الاوكسجين مع شيء من الطعام . أخيراً لم أكن عازماً على تركها هناك بلا نهاية .

كل أملي ينحصر في الحصول على ساعتين من الحرية لأرسم خطط المستقبل ولأعيد الصلات مع سناوت ، فلقد تساوينا الآن .

وبعدما انتهيت من شد البرغي ماقبل الأخير شعرت أن القواعد المعدنية التي يتأرجح الصاروخ عليها متعلقاً بثلاثة نتوءات صغيرة تهتز بخفة فظننت أنني حركت العتلة الفولاذية دون قصد حينما كنت أشد البراغي بكل قواي

تمايل الصاروخ من تأثير سلسلة من الضربات الموجهة إليه من الداخل ، أية ضربات هذه ! ولو افترضنا أن انساناً آلياً احتل مكان تلك الفتاة صاحبة الشعر الأسود لما استطاع بكل قواه أن يحرك ساكناً من هذا الصاروخ الذي يشكل كتلة تزن ثمانية أطنان . والآن كان الصاروخ يهتز بارتجاج تشنجي .

تراقصت وتمازجت على سطح الصاروخ الخارجي والمطلي ، انعكاسات المصابيح . الحقيقة أنني لم أكن أسمع صوت الضربات . كان الهدوء عاماً

داخل الصاروخ بيد أن دعائم البناء المنتشرة بكثرة ، تلك التي تعلق عليها الصاروخ فقدت دقة ملامحها واهتزت كأوتار مشدودة . وشعرت بالخوف على سلامة الغطاء الخارجي من تأرجح المهد هذا . شددت البرغي الأخير بيدين مرتجفتين ورميت المفتاح جانباً وقفزت على الدرج . تراجعت بهدوء إلى الخلف وعيناي مثبتتان على الصاروخ . شاهدت كيف تقفز دبابيس المخمدات من أعشاشها ، تلك الدبابيس التي لاتعمل إلا في حالة الضغط المستمر .

وتراءى لي أن الصفيح المؤلف من قطعة واحدة بدأ يفقد بريقه . ومثل مجنون قفزت إلى جهاز التحكم عن بعد وبيدي الاثنتين دفعت ذراعي المفاعل والاتصال إلى الأعلى . عندئذ خرج من مكبر الصوت المتصل بقمرة الصاروخ زعيق حاد شبيه بالصفير . لم يكن يشبه صوت البشر ورغم ذلك استطعت أن أميز في عويله المتردد « كريس ! كريس !!! »

لاأجزم أنني سمعت ذلك بوضوح . سال الدم من يدي المخدوشتين وهرعت بايقاع مسعور وبعقلي المشوش لاطلاق الصاروخ . وسقط الضوء الأصفر على الجدران . تصاعدت أعمدة الغبار من تحت القمع على منصة الاطلاق وحلت محلها الحزم الشرارية ثم طغى هدير الصاروخ على بقية الأصوات .

ارتفع الصاروخ على ثلاثة ألسنة نارية ملتهبة سرعان ماتوحدت في عمود ناري واحد . خرج الصاروخ من منصة الاطلاق . أغلقت الأبواب في نفس اللحظة آلياً . وبدأت ضاغطات الهواء بإطلاق الهواء النقي إلى ذلك المكان الذي خيم فيه الدخان الكاوي .

لم ألحظ ذلك كله . كنت ماأزال أستند بشعري المحروق إلى جهاز التحكم والنار تلفح وجهي وأنا أستنشق الهواء المشرب بالمواد المحروقة وبرائحة

الأيون الخاصة . لقد أعمت الشعلة إبصاري مع أنني أغمضت عيني غريزياً لحظة الاقلاع . لم أعد أرى سوى دوائر حمراء وذهبية وسوداء . ثم عدت تدريجياً إلى حالتي الطبيعية . وغادر الغبار والدخان المكان عبر خراطيم أجهزة التهوية ذات الأنين الممطوط .

كان أول ما شاهدته شاشة الرادار الخضراء . بدأت أبحث عن الصاروخ وعندما وجدته أخيراً كان قد اجتاز الفضاء الخارجي . لم أكن طوال حياتي قد أطلقت صاروخاً بهذه الطريقة الجنونية العمياء إذ لم أكن أعرف هل أسرع في تنفيذ عملي أو لا ولم أكن أعرف أي اتجاه أرسله ، ثم طرأت على ذهني فكرة وضعه في المدار الدائري حول سولاريس على ارتفاع يقدر بألف متر .

عندئذ أستطيع إطفاء المحركات . كانت المحركات قد استخدمت لمدة طويلة ولم أكن على ثقة من عدم وقوع كارثة في نهاية المطاف .

كان المدار الذي يبعد ألف كيلومتر مستقراً حسبما أكدته الجداول التي تفحصتها والحقيقة أن المدار لم يكن يعطي أية ضمانة ، لكنني ببساطة لم أجد سوى هذا المخرج من هذه الحالة .

لم أملك الجرأة على فتح التخاطب الذي أغلقته فوراً بعد الاقلاع . كنت مستعداً لفعل أي شيء كي لاأسمع ذلك الصوت المرعب من جديد ، ذلك الصوت الذي لم يبق منه أي شيء من خصائص الانسان .

بدت كل الشكوك ـــ هذا ما أستطيع قوله لنفسي ـــ سخيفة ، فمن خلال وجه هاري الوهمي بدأ يظهر شيء آخر ، الواقع الذي كان الجنون فيه بمثابة الحصول على الحرية المطلقة .

كانت الساعة تقترب من الواحدة عندما غادرت مدرج الصاروخ .

« السفر الصغير »

كان جلد يدي ووجهي محروقاً . وتذكرت أنني عندما بحثت عن المخدر لهاري ـــ الآن أستطيع أن أضحك على نفسي لسذاجتي ـــ رأيت في الصيدلية مرهماً لمداواة الحروق وتوجهت إلى غرفتي . فتحت باب الحجرة واصطدمت عيناي بشخص جالس على الأريكة التي كانت هاري تجلس عليها . كان نور الغروب الأحمر ينير ملامحه أحسست بالشلل من الذعر الذي أصابني وتراجعت إلى الوراء لأنقذ نفسي بالهروب .

حدث ذلك في جزء من الثانية . رفع الجالس رأسه فعرفت فيه سناوت . كان يضع ساقاً فوق ساق مديراً ظهره لي وهو يتصفح بعض الأوراق . وكانت إضبارة هذه الأوراق ملقية على الطاولة . وضع سناوت الأوراق التي كانت بين يديه على الطاولة بعدما شاهدني ورمقني بشيء من التجهم من فوق نظارته المعلقة على رأس أنفه .

اقتربت من المغسلة وأخذت من الصيدلية المرهم اللزج ورحت أدهن به أكثر الأمكنة تأثراً بالحروق أي الجبين والوجنتين . من حسن حظي لم ينتفخ وجهي كثيراً . غرزت إبرة الحقنة المعقمة في الفقاعات الكبيرة التي ظهرت على صدغيّ وخديّ وخرج السائل منها ثم وضعت عليها قطعتين من الشاش الرطب .

كان سناوت يراقبني طوال هذه الفترة . لم أعره انتباهاً . أخيراً انتهيت

من هذا العلاج . كان وجهي يزداد لهيباً ــ وجلست على الأريكة . قبل أن أجلس رفعت عن الأريكة فستان هاري . كان فستاناً عادياً إذا ما صرفنا النظر عن عدم وجود العروات فيه .

شبك سناوت يديه حول ركبته الحادة وراح يراقب حركاتي بنظرات حادة حذرة . وسألني بعدما جلست على الأريكة .

ــ هل سنتكلم ؟

بقيت صامتاً مسنداً قطعتي الشاش بيدي

ــ كان لديك زوار ، أليس كذلك ؟

ــ نعم أجبته بصوت هادىء ، ولم تكن لدي أدنى رغبة في متابعة الحوار بهذه اللهجة

ــ واستطعت التخلص منهم ؟ لقد فعلت ذلك بشكل رائع .

ولامس بيده جلد جبينه المقشور الذي ظهرت في بعض مساحاته بقع جلد جديدة وردية اللون . نظرت ببلادة إلى تلك البقع . لا أعرف لماذا لم يسترع اهتمامي حتى هذه اللحظة لون تلك البقع المشمسة .

حسبت أن لونها من الشمس لكن أحداً لايستطيع أن يأخذ حماماً شمسياً على سولاريس

ــ إذن لقد بدأت بتواضع ــ قال سناوت دون أن يعير اهتماماً لما أعانيه من التهاب ترافقه هواجس محيرة. ــ مخدرات مختلفة ، سموم بأنواعها . بطريقة المصارعة الحرة أليس كذلك ؟

ماذا تريد ؟ دعنا نتحاور بالتساوي . وإذا أردت أن تهرج فالأفضل أن تدعني وشأني . رفع سناوت عينيه الضيقتين وقال :

ــ أحياناً يهرج المرء دون أن يرغب في ذلك . أعتقد أنك لن تحاول إقناعي

من أنك لم تجرب استعمال الحبال أو المطرقة ؟ والمحبرة ؟ هيه قل ــ وتجعد وجهه ــ نعم أنت هو الشاب الضروري لنا . حتى المغسلة أراها سليمة . لم تحاول تحطيم رأسها ؟ وألاحظ أن الترتيب لم يفارق الغرفة . هذا يعني أنك استضفت الزائر مرة أو مرتين ثم أطلقت النار وانتهى الأمر ؟ ونظر سناوت إلى الساعة واستخلص نتيجة : لدينا ساعتين من الوقت أو ثلاث ثم نظر إليَّ باستهزاء مقزز وسألني فجأة :

ــ إذن أبدو لك خنزيراً ؟

ــ خنزير خالص . أكدت له بحدة .

ــ نعم ؟ هل كنت صدقتني لو قلت لك ذلك ؟ هل كنت ستثق بكلمة واحدة لو حدثتك عما يحدث ؟

لم أرد عليه

ــ لقد حدث هذا اولاً مع غيباريان ــ تابع سناوت حديثه وابتسامة مصطنعة على وجهه ــ أوصد الباب على نفسه في حجرته ولم يتحدث إلا من وراء الباب . أما نحن ...

أعتقد أنك تستطيع تصوُّر ما ظنناه ؟

تصورت وفضلت الصمت .

ــ شيء واضح . قررنا أنه اختل عقلياً . حدثنا عن بعض الأشياء لكنه لم يحدثنا عن كل الأشياء . وهل باستطاعتك أن تخمن سبب كتمانه لبعض الأشياء ومن كان عنده ؟ أنت تعلم أن SUUMCUIQUES (لكل خاصته) وبما أنه كان عالماً حقيقياً فقد طلب منا أن نمنحه فرصة .

ــ أية فرصة ؟

أعتقد أنه حاول بشكل من الأشكال أن يبوب ، أراد أن يتفق على صيغة

ما لحل معضلته ، وتعرف أنت ماقام به ، ربما عرفت ؟

ــ الحسابات ــ قلت له ــ تلك التي في الصندوق . هل هو من قام بها ؟ وتلك التي على محطة الارسال .

ــ نعم . غير أنني لم أكن أعلم شيئاً آنذاك

ــ كم استغرق ذلك من الوقت .

ــ اسبوع . كان يتحدث من وراء الباب . كان يفعل شيئاً ما هناك .... أعتقدنا أنه مصاب بالهلوسة . أو بحالة هيجان شديدة . كنت أعطيه السكوبولامين [1]

ــ كيف ... كنت تعطيه ؟

ــ نعم كان يأخذها . لم يستعملها لنفسه . كان يجري التجارب . وهكذا سار كل شيء .

ــ وانتما ؟

ــ نحن ؟ قررنا في اليوم الثالث أن نصل إليه . أن نحطم الباب في حال إغلاقه في وجهنا . قررنا أن نعالجه انطلاقاً من مشاعر نبيلة نحوه .

ــ هكذا إذن ... لهذا السبب . واندفعت كلماتي .

ــ نعم

ــ وهناك ... في تلك الخزانة ...

ــ أجل ياعزيزي أجل . لم يكن يعلم آنذاك أن زواراً قد وصلوا إلينا . لم نعد نستطيع الاعتناء به . لم يكن يعلم ذلك . والآن ... الآن يبدو ذلك طبيعياً من خلال فكرة محددة .

كان سناوت يتحدث بصوت خافت حتى أنني لم أسمع كلمته الأخيرة بل خمنتها تخميناً .

---

(١) نوع من الحشائش القلوية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ــ انتظر . أنا لا أفهم شيئاً ــ قلت لسناوت ــ كيف حدث ذلك إذا كان بإمكانكما أن تسمعا مايدور في الداخل . لقد ذكرت لي أنكما كنتما تسترقان السمع من خلف الباب وهذا يعني أنكما سمعتما أكثر من صوت واحد . وهذا يعني أيضاً ...

ــ كلا . لم نسمع سوى صوته . ولو فرضنا أننا سمعنا أصواتاً أخرى غير مفهومة كنا نرد مصدرها إليه .. هل تفهم ؟

ــ تسمعانه فقط ؟ لكن ... لماذا ؟

ــ لا أعرف والحقيقة لدي نظريتي التي تفسر ذلك ، كما أعتقد أنه لايجوز أن نتسرع بالأخذ بها ، عدا أنها لاتفسر كل شيء . هذا هو الأمر . كان عليك أن ترى زائراً خلال هذا اليوم ، وإلا لاعتبرتنا مجنونين .

ــ أعتقد أنني أصبحت مختلاً .

ــ هكذا ؟ ألم تر أحداً ؟

ــ رأيت ؟

ــ من ؟

لم تعد تصعيرته تشبه الابتسامة . نظرت إليه طويلاً قبل أن أرد عليه

ــ تلك السوداء ...

لم يقل شيئاً وتراخى جسده الملتوي المنحني إلى الأمام .

وقلت له بدون ثقة تامة :

ــ ومع ذلك . كان بإمكانك أن تحذرني .

ــ لقد حذرتك

ــ بأية طريقة ؟

ــ بالطريقة الوحيدة الممكنة . افهم،أنا لاأعرف من سيأتي . لا أحد يعرف

ذلك ، لايستطيع أحد أن يعرف .
ـــ اسمع يا سناوت،أريد أن أسألك فلديك شيء من التجربة ما ... ما ...
ما الذي سيحدث معها ؟
ـــ هل تقصد أنها ستعود أم لا ؟
ـــ نعم
ـــ ستعود ، ولن تعود .
ـــ ما الذي تعنيه ؟
ـــ ستعود كما كانت عليه في البداية ... أقصد في بداية الزيارة . فهي بكل بساطة لاتعلم شيئاً . والأصح سيكون سلوكها وكأنك لم تفعل معها شيئاً لتتخلص منها ولن تكون عدوانية إن لم تجبرها الظروف على ذلك .
ـــ أية ظروف ؟
ـــ هذا أمر متعلق بالأوضاع .
ـــ سناوت .
ـــ ما الذي تريده ؟
ـــ نحن لسنا في جو من الرفاهية يجبرنا على إخفاء الأسرار عن بعضنا بعضاً .
ـــ هذه ليست رفاهية ـــ قاطعني بجفاء ـــ اعتقد ياكيلفن أنك ولغاية هذا الوقت لاتفهم شيئاً أو ... انتظر .
ـــ التمعت عيناه ـــ هل تقول لي من كان لديك ؟

ابتلعت لعابي وأرخيت رأسي . لم أرغب بالنظر إليه.تمنيت لو كان إنساناً آخر لكن لم يكن لدي خيار في ذلك . سقطت قطعة الشاش من وجهي على يدي . شعرت بالرعشة من هذه الملامسة الناعمة .
ـــ كانت امرأة . إنها ... لم أكمل ما أردت قوله ونطقت بشيء آخر ـــ قتلت نفسها بواسطة حقنة .

انتظر سناوت نهاية حديثي وسألني بعدما طال صمتي .

ـ هل هذا كل شيء ؟

لم أجب .

ـ لايمكن أن تكون الحادثة بهذه البساطة

رفعت رأسي بنزق . لم يتطلع إلي .

ـ من أين لك أن تعرف ؟

لم يجب سناوت . وقلت له بعد أن لعقت شفتي بلساني :

ـ حسناً لقد تخاصمنا . شخصياً ... وجهت إليها بعض الكلمات الحقودة كما يقولون ثم أخذت أشيائي وذهبت . أفهمتني أنها ... لم تقل ذلك مباشرة ...

لكن لايحتاج المرء لشرح طويل من إنسان عاش معه أعواماً طويلة ليفهمه ... تصورت أن ذلك مجرد كلمات ... وأنها ستخاف ولن تقدم على ذلك . تذكرت في اليوم التالي أنني نسيت في الخزانة ... سموماً . كانت تعرف مكانها . كنت أحتاجها . كنت قد أخذتها من المخبر وشرحت لها آنذاك فعاليتها . خفت وأردت العودة إليها غير أنني فكرت أن عودتي إليها ستبدو وكأنني أخذت كلماتها على محمل الجد ، و ... تركت كل شيء على حاله . ومع ذلك عدت في اليوم الثالث بسبب القلق المستمر . لكنها ... كانت قد توفيت .

ـ آه أنت هو البراءة المقدسة ....

أثارتني كلمات سناوت لكنني عندما نظرت إليه لاحظت أنه لم يكن يهزأ مني أبداً .كأنني أراه للمرة الأولى . كان وجهه رمادياً . واختفى تعب

لايوصف من تجعدات وجهه العميقة . بدا كانسان مريض . وسألته بخوف مذهل :

ــ لماذا تتحدث بهذه الطريقة ؟

ــ لأنها قصة مأساوية . ثم أضاف بسرعة ــ بعد أن تصيد حركتي ــ لا ، لا أنت لم تفهمني بعد . طبعاً ستعاني من ذلك كثيراً . وتظن نفسك قاتلاً ، لكن ... هذا ليس مرعباً .

ــ سألته بمرارة : ماذا تقول ؟

ــ عزاؤك الآن أنك لاتصدقني . ربما كان ما حدث رهيباً ، لكن الأرهب مالم يحدث بعد أبداً

ــ لا أفهم ــ قلت له بعدم ثقة ــ الحقيقة أنني لا أفهم شيئاً .

هز سناوت برأسه .

ــ من هو الانسان الطبيعي ... الإنسان الطبيعي ؟ انه من لم يفعل شيئاً شنيعاً طوال حياته . ومع ذلك لابد أن يكون قد فكر بذلك دون أدنى شك . ومن الجائز أنه لم يفكر بل هناك شيء مافي داخله قد فكر ، شيء ظهر لديه منذ عشر سنوات أو ثلاثين سنة ، ومن الجائز أنه قد تحصن منه ونسي الأمر ولم يخف لأنه بات يعلم جيداً أنه لن ينفذ ذلك أبداً . والآن تخيل نفسك في وضح النهار تلتقي بهذا الشيء مجسداً من لحم ودم ، ويلتصق بك وأنت محاط بالآخرين و لايمكنك الخلاص منه . ترى ما الذي سيحدث في هذه الحالة ؟ ما الذي سيحدث ؟

بقيت صامتاً .

ــ المحطة ... قال بصوت هادىء ــ عندئذ ستكون محطة سولاريس .

ــ لكن ... ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء ؟ سألته بجزع ــ فأنت وسارتوريوس لستما من القتلة .

ـــ أنت عالم نفساني يا كيلفن ! ـــ قاطعني وقد نفذ صبره . ـــ من هو الشخص الذي لم يحلم بذلك ؟ لم يهذ به ؟ فكر بـ ... بالفيتيشست* الذي يعشق خرقة بالية على سبيل المثال ، ويخاطر بحياته للوصول إلى هذه الخرقة الثمينة الكريهة بواسطة التوسل والتهديد ... يمكننا اعتباره مضحكاً أليس كذلك ؟ فهو يخجل من أداة شهوته و يفقد رشده من أجلها وهو على استعداد لتقديم حياته من أجلها ويمكن لشعوره أن يسمو إلى درجة شعور « روميو » نحو « جوليت » . هذا ما يحدث . ومعلوم أن هناك أفعالاً ... وحالات ... لايجرؤ أحد على تحقيقها إلا في خياله ... وفي لحظة من اللحظات الفاجعة أو الانهيار ... أو الجنون سمها كما تشاء - تتحول الكلمة إلى فعل . هذا كل مافي الأمر .

تشوش رأسي وأجبته بصوت مُخدَّر

ـــ أهذا كل شيء ؟ والمحطة ؟ ما علاقة المحطة بذلك ؟

ـــ ماذا بك . هل تتظاهر بعدم الفهم ؟ دمدم سناوت وألقى علي نظرة توجس . إنني أتحدث طوال الوقت عن سولاريس . لا أتحدث عن غيره . فقط عن سولاريس وليس ذنبي إن كان الأمر يختلف كثيراً عما كنت تتوقعه ، رغم أنك عانيت ما يكفي لتسمعني حتى النهاية .

قبل أن نحلّق هيؤونا لكافة الظروف أي للعزلة للصراع للعذاب والموت .

ونحن لانقول ذلك بصوت مسموع من تواضعنا لكننا في أنفسنا نعتقد أننا عظماء . و حقيقة الأمر ... حقيقة الأمر أن هذا غير كاف . جاهزيتنا غير

---

* من الكلمة الفرنسية Fetichisme وتعني عبادة أشياء دينية مثل الأيقونات أو الأضرحة .إلخ

كافية . والحق أننا لانريد احتلال الفضاء بل نسعى لتوسيع الأرض ل
حدوده . هناك كواكب صحراوية مثل الصحراء تماماً وأخرى
بالجليد مثل القطب أو حارة مثل غابات البرازيل . إننا إنسانيون
ولانريد إخضاع الأجناس الأخرى . كل ما نريده إيصال حضارتنا
مع تراثهم . نحسب أنفسنا فرسان الاتصال المقدس.هذه كذبة أخرى
لا نبحث إلا عن البشر . لانحتاج لعوالم أخرى . نحتاج لمرآة . نحن
ما سنفعله مع العوالم الأخرى . هذا وحده يكفينا وهو يرهقنا . إننا
في إيجاد صورتنا المستقلة المثالية . وهذا يعني عالم أكثر حضارة من حض
إننا نأمل أن نجد في الكواكب الأخرى لوحة لماضينا البدائي . وبالمناسبة
أشياء لانأخذها بعين الاعتبار ونتحصن منها . بيد أننا لم نأت من ا
كأناس في منتهى الكمال . ولم نجلب معنا تمثالاً للانسان ! جئنا إلى
نحن في الواقع . وعندما يعرض لنا الجانب الآخر هذا الواقع ، ذلك
الذي نخفيه ، عندئذ لانستطيع أن نهادن . وسألته بعد أن استمعت إليه
ــ ومع ذلك ما هذا ؟
ــ إنه ما نبحث عنه ! الاتصال مع حضارة أخرى . لقد توصلنا
توصلنا لهذا الاتصال.إنه صورة مكبرة لعربدتنا الشخصية العجيبة ، لبها
وعارنا وكأنه يجسمها لنا تحت المجهر !!!

كان صوته يرجف من الغيظ .

ــ هذا يعني أنك تعد ذلك ... عن المحيط ؟ أي أنه هو ؟ ولماذا ؟
أنه ليست للميكانيكية هنا أية أهمية إذن من أجل أي شيء ؟ هل تعتقد
أنه يريد أن يسخر منا ؟ أو أن يعاقبنا ؟ هذه مجرد شيطنة مبتذلة . هل
أن شيطاناً كبيراً قد سيطر على الكوكب ، ويقوم بإرسال العشيقات لأ
البعثة العلمية وذلك بهدف إرضاء مشاعره الشيطانية الساخرة . أعتقد

لا تؤمن بهذه السخافة التامة .

وأجاب سناوت وقد خرج صوته من بين أسنانه :

ــ هذا الشيطان ليس أحمقاً لهذه الدرجة .

نظرت إليه مذهولاً وفكرت أن أعصابه لم تعد تحتمل ما يحدث في نهاية المطاف بغض النظر عن أن ما يحدث في المحطة لايمكن تفسيره إلا بالجنون . « جنون تفاعلي ...» خطرت في ذهني هذه الفكرة عندما بدأ سناوت يضحك بدون صوت تقريباً .

ــ هل تشخص مرضي ؟ لاتتعجل . يبدو أنك تقوم بذلك ببراءة وهذا دليل كاف على أنك لاتعرف شيئاً .

ــ آها . لقد رأف الشيطان بي . قلت ذلك وشعرت بالضجر من هذا الحديث .

ــ ما الذي تريده شخصياً ؟ هل تريدني أن أحدثك عن الخطط التي يرسمها ضدنا وعن بلايين الجزيئات المجهولة من البلازما ومن الممكن أن لاتكون له أية خطة .

ــ كيف ؟ سألته مصعوقاً .

ــ عليك أن تعلم أن العلم لاينشغل بـ (لماذا يتم ذلك) ؟ بل بـ (كيف يتم ذلك) . كيف ؟ حسن . لقد بدأ ذلك في اليوم الثامن أو التاسع بعد تلك التجربة التي استخدمت فيها أشعة رونتجن . ومن الممكن أن المحيط قد قام بالرد على الشعاع بشعاع آخر شل به عقولنا منتشلاً منها بعض الجزر النفسية المنفردة .

ــ جزر نفسية ؟

لقد أثارتني هذه الفكرة .

ــ نعم ، عمليات منفصلة عن البقية ، منغلقة على ذاتها منضغطة ، مكتومة مثل بؤر الذاكرة الملتهبة . وتعامل معها كوصفة لدواء أو كخطة لتصميم ... أنت تعرف مدى التشابه بين حبيبات الصبغيات الدقيقة وحبيبات الدماغ النيكولينية المتحدة التي تشكل أساساً لعمليات الذاكرة ... ومعروف أن بلازما « الذاكرة » هي البلازما الوراثية . بهذا الشكل يكون المحيط قد انتشل منا هذا ، وبثّهُ وأنت تعرف البقية . أما لماذا فعل ذلك ؟ ها ! على كل حال لايعمل سولاريس على تدميرنا . يستطيع فعل ذلك بطريقة أسهل . عموماً هو قادر أن يصنع ما يشاء لامتلاكه الحرية التقنية . وكمثال على ذلك ، فإنه قادر بكل بساطة على أن يغرس فينا الشخص الثاني .

ــ آ ! ــ صرخت . لهذا السبب خفت مني أول أمس عندما التقينا !

ــ نعم جائز ، ومن أين لك أن تعرف أنني مازلت ذلك العجوز الطيب هوريك الذي وصل إلى هذه المحطة منذ عامين ؟

واعتلت ضحكات سناوت كأنه شعر بالمتعة والله أعلم ، من حالتي ، لكنه سرعان ما كف عن ذلك .

ــ كلا ، كلا ، لدينا ما يكفينا من الخلافات ، بل وأكثر من ذلك ، لكنني أعرف شيئاً واحداً هو امكانية تعرضنا للقتل أنا وأنت .

ــ وهم ؟

ــ لا أنصحك بتجربة ذلك . منظر رهيب !

ــ ولا بأية طريقة ؟

ــ لا أعرف،على كل حال لا تستطيع فعل ذلك بالسم ، أو بالمدية ، أو بالحبال ...

ــ والمدفع النووي ؟

ــ هل تُقْدِمُ على استخدامه ؟

ــ لا أعرف . إن كنت على ثقة أنهم ليسوا بشراً .

ــ وإن كانوا نوعاً من البشر ؟ أي بشر من نوع خاص . لعلّك لاحظت ذلك .

ــ نعم . لكن ... كيف يحدث ذلك ؟

ــ إنهم يتجددون بسرعة فائقة ، مذهلة ، يتوالدون مباشرة أمام عينيك ويبدأون من جديد ... مثل ...

ــ مثل ماذا ؟

ــ مثل تصوراتنا عنهم،مثل تلك التسجيلات في ذاكرتنا ، والتي ....

ــ نعم هذه حقيقة .

أكدت على ذلك دون أن أعير اهتماماً للمرهم الذي بدأ يسيل من خدي المحروق ويتساقط على يدي وسألته على عجل :

ــ هل كان غيباريان يعرف ذلك ؟

نظر سناوت بانتباه خاص .

ــ هل تقصد بسؤالك إن كان يعلم ما فعله ؟

ــ نعم

ــ تقريباً . بالتأكيد .

ــ وكيف عرفت ، هل قال لك شيئاً ؟

ــ كلا ، وجدت لديه كتاباً .

ــ صرخت وأنا أنهض : « السفر الصغير » ؟!

فقال سناوت دهشاً ورمقني بنظرة حذرة :

ــ نعم ، وكيف عرفت ؟

أوقفته بحركة من يدي

ـــ اهدأ . إنك ترى بنفسك أنني محروق ونسجي لاتتجدد . لقد ترك لي رسالة .

ـــ ماذا تقول ؟ رسالة ؟ ماذا كتب لك فيها ؟

ـــ قليلاً . والأدق إن قلت : لم تكن رسالة بل قصاصة ، إسناد فهرسي للملحق سولاريس و « للسفر » . ترى ماهو هذا « السفر » ؟

ـــ إنها مسألة قديمة لعله يشكل شيئاً مامع هذا . خذ أمسك . وأخرج من جيبه مجلداً صغيراً تآكلت زواياه وقدمه لي .

أخذت الكتاب وسألته : وسارتوريوس ؟

ـــ مابه؟كل منا يضبط نفسه في مثل هذه الحالات بطريقته الخاصة . ويحاول سارتوريوس أن يكون طبيعياً . وهذا يعني بالنسبة له أنّ يكون رسمياً .

ـــ لكنك تعلم !

ـــ هكذا هو . ذات مرة كنت معه في المعمل ... لن أروي لك تلك التفاصيل . يكفي أن أذكر لك أنه لم يكن لدينا نحن الثمانية سوى خمسمائة كيلو غرام من الاوكسجين . أقلعنا عن الأعمال اليومية ، أخيراً أصبحنا ملتحين ، أما هو فقد كان يحلق ذقنه وينظف حذاءه ... انه من هذا الطراز . ومن الطبيعي أن يكون مايقوم به الآن تكلفاً ، كوميديا ، أو ربما جريمة .

ـــ جريمة !

ـــ حسن . ليست جريمة . علينا إيجاد الصيغة المناسبة . مثل « انفصال تفاعلي » ربما كان لهذه الصيغة صدى أفضل .

ـــ أنت حاد الذكاء لدرجة كبيرة .

ـــ هل تفضل أن أبكي؟ اقترح شيئاً

ـــ آ . دعني وشأني .

ـــ لا . أحدثك جدياً . أنت تعرف الآن تقريباً كل ما أعرفه . هل لديك

أية خطة ؟

ــ ماذا تقول ؟ ليس لدي أدنى تصور عن كيفية استمرارنا عندما ... ستظهر من جديد . يجب أن تعود ؟

ــ على الأغلب ستظهر . نعم .

ــ كيف يدخلون إلى المحطة ؟ فهي محكمة الاغلاق . هل يمكن أن يكون الدرع الواقي .

ــ الدرع كماهو . وليس لدي فكرة عن طريقة تسربهم إلى داخل المحطة . غالباً ما نلتقي بالزوار عندما نستيقظ . للأسف فنحن نحتاج لقليل من النوم . نهض ونهضت كذلك .

ــ اسمع يا سناوت ... يدور الحديث عن تدمير المحطة . فهل تريد أن تكون المبادرة مني ؟

هز سناوت برأسه .

ــ ليس بالأمر السهل . طبعاً نستطيع الهروب في أية حالة إلى التابع مثلاً ... ومن هناك نرسل sos . سيعتبروننا مجانين وسيجبروننا على الاقامة في إحد المصحات على الأرض حتى ننسى كل شيء على الاطلاق . ربما سمعت بالجنون الجماعي في بعض القواعد المنفردة ... من الجائز أن يكون المخرج الأفضل ... فهناك حديقة وهدوء وثياب بيضاء ونزهات مع الممرضين ... كان سناوت يتحدث بجدية واضعاً يديه في جيوبه وقد سلط نظرة لامرئية على زاوية الغرفة . وغابت الشمس الحمراء وراء الأفق وذابت الأمواج المتلبدة في الصحراء السوداء . والتهبت السماء وكانت السحب بإطاراتها الليلكية تسبح فوق هذا المنظر الكئيب والغريب ذي اللونين .

ــ إذن هل تريد الفرار ؟ أم لا ؟ ليس بعد ؟

وضحك سناوت

ــ أيها الفاتح الحازم .. لم تجرب شيئاً بعد وإلا لما كنت لجوجاً بهذا الشكل . فالحديث لايدور عما نريده بل عما يمكننا فعله .

ــ وما الذي يمكننا فعله ؟

ــ هذا مالا أعرفه

ــ هذا يعني أننا باقون هنا ؟ هل تعتقد أننا سنجد الوسيلة ؟

نظر سناوت إلي وقشر جلده على وجهه المنهك المخدر المجعد وقال : ــ من يعلم ؟ ربما سيعوض ذلك . نحن لانعرف عنه شيئاً ، لكن يمكننا أن نعرف عن أنفسنا . أخذ أوراقه واستدار ثم انصرف . لم أجدما أفعله . كل ما أستطيع فعله هو الانتظار . اقتربت من النافذة ونظرت إلى المحيط الدموي الأسود دون أن أراه تقريباً . خطر في ذهني أن أختبىء في أحد الصواريخ ، لم أفكر بذلك جدياً فهذا غباء مطلق سأضطر للخروج منه عاجلاً أم آجلاً .

جلست قرب النافذة وأخرجت الكتاب الذي أخذته من سناوت . كان النور كافياً ، تورد لون الصفحة وكانت الغرفة ملتحفة باللون الأرجواني .

ضم الكتاب بحوثاً ومقالات قيمة لاجدال فيها ، وكان قد جمعها « اوتون رافينتسير » الحائز على ماجستير في الفلسفة . ومن المعروف أن كل علم من العلوم يرافقه علم كاذب طفيلي ، كتأويل بدائي في عقول بعض الناس : فعلم الفلك تجد انعكاسه بشكل كاريكاتوري في علم التنجيم . كما كانت الكيمياء في السيماء . كذلك رافق ولادة السولاريسية انفجار حقيقي لأفكار مرعبة . لقد احتوى كتاب « رافينتسير » على غذاء روحي من هذا القبيل . مع أنه لوى كشحه عن هذه الطرائف في مقدمة كتابه . واعتقد ببساطة لها أساس ما أن هذا الكتاب سيعتبر وثيقة هذا العصر للمؤرخين ولعلماء النفس .

احتل تقرير بيرتون مكان الصدارة في هذا الكتاب . كان مؤلفاً من عدة فصول . ضم الفصل الأول سجلاً لتحليقه .

كان التسجيل موجزاً و سلبياً من الساعة الرابعة عشر وحتى السادسة عشر وأربعين دقيقة من التوقيت الظرفي للبعثة . « الارتفاع ١٠٠٠ ، ١٠٠٠ أو ٨٠٠ م . لا ألاحظ شيئاً . المحيط فارغ » . تكرر ذلك عدة مرات . ثم في السادسة عشر وأربعين « يعلو ضباب أحمر. الرؤية ٧٠٠ م . المحيط فارغ » . وفي الساعة السابعة عشر : « أصبح الضباب كثيفاً ، هدوء ، الرؤية ٤٠٠ م . أنحدرُ إلى ٢٠٠ م » وفي السابعة عشر وعشرين دقيقة : « أعوم في الضباب الارتفاع ٢٠٠ م . الرؤية ٢٠ ـــ ٤٠ م . هدوء أرتفعُ إلى ٤٠٠ م » وفي الساعة السابعة عشر وخمس وأربعون دقيقة « الارتفاع ٥٠٠ م . يرتفع تيار ضبابي حتى الأفق . هناك كوى في الضباب على شكل قمع يظهر من خلالها سطح المحيط . أحاول الدخول في واحد من هذه القموع » .

وفي الساعة السابعة عشر وأثنين وخمسين دقيقة « أرى شيئاً يشبه دوار الماء يقذف رغوة صفراء . محاط بجدار من الضباب . الارتفاع ١٠٠ م . انحدر إلى ٢٠ م » انتهى سجل تحليق بيرتون . أما بقية الصفحات فضمت ما يسمى بالتقرير الذي احتوى على مقاطع من تاريخ مرضه والأدق كان تسجيلاً لإجابات بيرتون على أسئلة أعضاء اللجنة .

« بيرتون : عندما انحدرت إلى ارتفاع ثلاثين متراً . صار من الصعب المحافظة على الارتفاع بسبب الرياح العاصفة التي كانت تهب في ذلك الفضاء الدائري الحر ومن تأثير الضباب كنت مضطراً لتركيز كل انتباهي للقيادة لذا لم ألق نظرة خارج القمرة مدة ١٠ ـــ ١٥ دقيقة . ولهذا السبب دخلت

الضباب رغم إرادتي . دفعتني إليه نفحة ريح عاتية . لم يكن ضباباً عادياً كان يشبه مادة غروانية امتدت على الزجاج بأكمله . وكان من الصعب تنظيف الزجاج لأن المادة كانت لزجة للغاية . وفقدت حرية المناورة بنسبة ٣٠ ٪ بسبب مقاومة ذلك الضباب لحركة المروحة ، وبدأت أهوي . انخفضت لدرجة كبيرة وضغطت على المحرك حتى النهاية خوفاً من أن أعلق بإحدى الأمواج . حافظت المركبة على ارتفاعها لكنها لم تقلع نحو الأعلى . كان لدي أربع حشوات لسرعات صاروخية لم استخدمها بعد لاعتقادي أن الوضع سيزداد سوءاً . وسأحتاجها فيما بعد .

وبدا الارتجاج الفظيع أثناء الانعطافات التامة وأدركت أن المروحة قد علقت بتلك المادة الغريبة واستمرت مؤشرات الدفع نحو الأعلى تشير إلى الصفر ولم يكن باستطاعتي القيام بأي شيء . لم أر الشمس من لحظة دخولي في لجة الضباب الذي اصطبغ بلون أحمر من جهة الشمس . تابعت الدوران آملاً أن أجد في آخر المطاف مكاناً خالياً من الضباب . وفعلاً وجدت ذلك بعد مضي نصف ساعة من الطيران . قفزت إلى الفضاء المفتوح الشبيه باسطوانة قطرها عدة مئات من الأمتار يحيط بها الضباب المتصاعد بقوة وكأنه يعلو بواسطة تيارات جبارة . لذا حاولت البقاء قدر الامكان في وسط « الفتحة » وكان الهواء أكثر هدوءاً . في هذا الوقت لاحظت تبدلاً قد طرأ على حالة سطح المحيط . كادت الأمواج تختفي كلياً عن سطحه . أما الطبقة السطحية لذلك السائل الذي يتألف المحيط منه ، فقد أصبحت شبه شفافة مع بعض التعكر الذي بدأ يصفو تدريجياً ، حتى راق تماماً بعد مضي قليل من الوقت وصار بإمكاني النظر من خلال تلك الطبقة التي تبلغ سماكتها عدة أمتار ـــ الى العمق . وهناك تجمع طمي أصفر بدأ يرتفع بحلقات إلى الأعلى ويذوب على السطح وكان يلمع كالزجاج ، ومن ثم بدأ يغلي ويزبد ثم برد .

في تلك اللحظة كان شبيهاً بشراب سكري لزج محروق . بعد ذلك بدأ هذا الطمي أو هذا الابليس يتجمع في كومة كبيرة صعدت إلى سطح المحيط لتكون حدبات شبيهة بالقرنبيط ، ومن ثم بدأ تدريجياً يشكل شواخص مختلفة . شعرت بشيء يجذبني نحو الضباب لذلك اضطررت لمقاومة هذا الجذب بالمروحة والمقود عدة دقائق دون أن أنظر خارج القمرة .

وبعدما أصبح بإمكاني النظر من جديد نحو الأسفل شاهدت ما يشبه الحديقة . نعم حديقة ، شاهدت أشجار قزمية ، وسياجاً نباتياً ، ودروباً ليست حقيقية ــ كل ذلك تكون من تلك المادة التي جمدت تماماً وأصبحت مثل الجص .

كان السطح يلمع بشدة . انحدرت قدر استطاعتي لاستطلع عن قرب .

سؤال : هل كانت لتلك الأشجار أو النباتات التي شاهدتها أوراقاً ؟

جواب بيرتون : كلا . كانت على شكل الأشجار فقط كأنها نموذج لحديقة . نعم . نموذج . هكذا كانت تبدو . نموذج في حجم حقيقي . ثم بدأ كل شيء يتصدع ويتكسر وبدأ الطمي اللزج يتدفق بموجات في الشقوق السوداء ثم برد . انسال قسم منه وبقي قسم آخر . كان كل شيء يغلي بشدة ثم غطته الرغوة و لم أعد أرى شيئاً آخر غيره .

بدأ الضباب يتجاذبني من كل الأطراف لذا ضاعفت الدوران وارتفعت لعلو ثلاثمائة متر .

سؤال : هل أنت واثق تماماً أن ماشاهدته يشبه الحديقة ولا يشبه شيئاً آخر .

جواب بيرتون : نعم شاهدت تفاصيل مختلفة وعلى سبيل المثال أذكر أنني

شاهدت في أحد الأماكن صفاً من العلب المربعة وخمنت فيما بعد أنها ربما كانت منحلة .

سؤال : هذا ما خمنته فيما بعد ، ولم يخطر في ذهنك في تلك اللحظة ؟

جواب بيرتون : كلا ، كان كل شيء يبدو وكأنه صنع من الجص وشاهدت أشياء أخرى .

سؤال : أية أشياء ؟

جواب بيرتون : لا أستطيع وصفها بدقة لم يكن لدي وقت لأتأملها جيداً . لدي انطباع وكأنني شاهدت أدوات ملقية تحت بعض الشجيرات . كانت الأدوات شبيهة بأشكال أدوات قديمة ذات أسنان بارزة شبيهة بقوالب جصية لأدوات تستخدم في الحديقة ، لكني لست متأكداً من ذلك . أما ماتبقى فأنا متأكد مما شاهدته .

سؤال : ألم تفكر بأن ذلك مجرد هلوسة ؟

جواب بيرتون : كلا اعتقدت أنها « فاتا ـــ مورجانا* » . لم أفكر بالهلوسة لأنني كنت في حالة صحية جيدة . ولأني لم أر طوال حياتي شبيهاً لما رأيته . وعندما ارتفعت لعلو ثلاثمائة متر كان الضباب يبدو مرقشاً مثل الجبنة بفتحات مختلفة الأحجام كان بعضها فارغاً واستطعت من خلالها مشاهدة أمواج البحر المتلاطمة ، وكان شيء ما يتصاعد من الفتحات الأخرى . انزلقت في واحدة من هذه الكوى . وشاهدت من على ارتفاع أربعين متراً جداراً يشبه جدار بناء ضخم تحت سطح المحيط على عمق طفيف عن سطح المحيط . كان الجدار

---

*فاتا ـــ مورجانا (FATA. MORGANA).نوع من أنواع السراب المعقد التكوين ويبدر حدوثه . تظهر فيه على الأفق أشكال معقدة تتبدل بسرعة وراء الأفق .

واضحاً تماماً من خلال الأمواج وعليه صفوف من الفتحات المثلثة الشكل تفصل بينها مسافات شبيهة بالنوافذ كما أعتقد أنني شاهدت أشياء تتحرك في تلك النوافذ لكنني لست متأكداً من ذلك . بعد ذلك بدأ الجدار يرتفع ببطء خارجاً من المحيط ، انسالت عليه شلالات كاملة من الطمي وبعض الأشكال المخاطية اللزجة المعروقة . انقسم الجدار فجأة إلى قسمين وغاص في الأعماق بسرعة مذهلة واختفى خلال لحظة . ومن جديد ارتفعت بالمركبة وحلقت فوق الضباب وكدت ألامسه بجسد المركبة . بعد ذلك شاهدت قمعاً آخر . ربما كان أكبر من الأول بعدة مرات . في هذه الاثناء لاحظت شيئاً عائماً كان واضحاً تقريباً ، أبيض اللون اعتقدت أنه بذة ملاحة فيخنر ، خاصة أنه كان شبيهاً بالانسان . انعطفت بسرعة إذ خفت أن أجتاز المكان وافقده . في هذه اللحظة انتصب الشاخص بسهولة كأنه يعوم أو يقف حتى خصره في الموج . أسرعت وانحدرت بشدة حتى أنني شعرت باصطدام جسد المركبة بشيء طري ربما اصطدمت بعرف الموجة ، وهنا كان الشاخص منتصباً ، إنه إنسان ، نعم ، نعم ، كان انساناً دون بذة ملاحة ومع ذلك كان يتحرك .

سؤال : هل شاهدت وجهه ؟

جواب : نعم

سؤال : من هو ؟

جواب : طفل .

سؤال : طفل ؟ هل شاهدته من قبل ؟

جواب: كلا . أبداً . لا أذكر ذلك أبداً كان يبعد عني مسافة أربعين متراً أوأكثر قليلاً . وحالما اقتربت منه لاحظت فيه شيئاً لاطبيعياً .

سؤال : هل فهمت شيئاً من ذلك ؟

جواب : سأشرح لكم الآن . لم أكن متأكداً مما أراه في البدء . أدركت

بعد قليل من الانتظار أن الدي أراه يتميز بضخامة. كان هائلاً بل إن كلمة هائل لاتفي لوصف حجمه . ربما كان طوله أكثر من أربعة أمتار . أذكر تماماً أن وجهه كان أعلى من وجهي عندما صدمت بجسد المركبة رأس الموجة مع أنني كنت جالساً في القمرة وهذا يعني أنني كنت على ارتفاع ثلاثة أمتار أو أكثر عن سطح المحيط .

سؤال : إن كان ضخماً كما تصفه فلماذا حسبته طفلاً ؟

جواب : كان طفلاً صغيراً جداً ؟

سؤال : ألا ترى يا بيرتون أن إجابتك تعارض المنطق

جواب : لا . لا . أبداً رأيت وجهه . إن تناسق جسده يشير بوضوح إلى حداثة ولادته . تخيلت أنه ... طفل حديث الولادة . لا . لعلي أبالغ قليلاً ربما كان عمره سنتين أو ثلاث . شعره أسود ، عيناه زرقاوتان كبيرتان ! كان عارياً . عارياً تماماً كوليد حديث ، كان مبتلاً ، والأدق كان أملساً وجلده يلمع . كان تأثيره كبيراً عليّ . لم أعد أومن بأبة « فاتا — مورجانا » .

شاهدته بوضوح كامل . كان يعوم فوق الموج يرتفع ويهبط ... عدا ذلك . كان يتحرك كان منظراً مقززاً .

سؤال : لماذا ؟ هل فعل شيئاً ؟

جواب : بدا وكأنه معروض في متحف ، أي مثل لعبة ، لعبة حية ، كان يفتح فمه ويغلقه ويقوم بحركات عديدة مختلفة . شيء شنيع ! لم تكن حركاته نابعةً منه .

سؤال : ماذا تعني ؟

جواب : لم أقترب منه كثيراً . ربما كنت على بعد عشرين متراً . هذا

أدق تقييم . ذكرت لكم كم كان ضخماً . عيناه تلمعان . بشكل عام كان صورة لطفل حي . لكن حركاته كانت شبيهة بمن يتدرب ... كأن أحداً يعلمه .

سؤال : حاول أن تشرح بدقة ماذا تريد أن تقول ؟

جواب : لا أعرف إن كنت قادراً على ذلك . لدي انطباع إنه بديهي . لم أفكر بذلك . لم تكن حركاته طبيعية .

سؤال : هل تريد القول ، جدلاً ، إن حركات يديه لاتشبه حركة الأيدي البشرية بسبب عدم ليونة المفاصل .

جواب : كلا . أبداً . لكن ... لم تكن لحركاته أي معنى . عموماً كل حركة من حركاته تعبر عن شيء ما . تخدم شيئاً ...

سؤال : أهذا رأيك ؟ هل تعتقد أن حركات الطفل دون معنى ؟

جواب : لا أعرف . لكن حركات الأطفال ليست منتظمة ، ليست موجهة ، عامة . أما حركاته ... نعم .... فهمت ! كانت حركاته منهجية . كان ينفذها كحلقات مترابطة ، كسلسلة ، كمجموعة . كأن أحداً أراد أن يظهر أن هذا الطفل الهائل قادر على تحريك يديه وجسده وفمه . أبشع شيء فيه وجهه ، لأن الوجه أكثر تعبيراً ، كان وجهه ... كلا ، لا ، لا أستطيع تحديد ذلك . كان حياً . نعم حياً لكنه لم يكن بشرياً.أريد القول إن ملامح وجهه طبيعية ، عيونه ، لونه ، كل شيء فيه لكن تعابيره ايمائية . لا .

سؤال : هل كانت تعابيره تشبه التصعيرات ؟ هل تعرف كيف يبدو وجه الانسان في حالة الصرع ؟

جواب : نعم شاهدت مثل هذه الحالة . أفهم ماترمون إليه ، لا ، كان شيئاً آخر . حالة الصرع ترافقها دائماً تقلصات وتشنجات ورجفات . أما

حركاته فكانت انسيابية مرنة ، متواصلة ، موسيقية إن صح التعبير . ليس لدي تعبير آخر . وجهه على هذا النمط.أيضاً لايمكن أن يكون نصف الوجه فرحاً ونصفه الآخر متجهماً ، أو أن يكون قسماً منه مذعوراً مهدداً والقسم الآخر مبتهجاً ، أو شيئاً من هذا القبيل . أما وجهه فكان من هذا النوع تماماً . إضافة لذلك كانت حركاته وألعابه الايمائية تجري بسرعة غريبة . لم أبق هناك طويلاً .. ربما عشر ثوان . وربما أقل ...

سؤال : هل أنت جاد في أقوالك من أنك استطعت أن تلاحظ كل ماذكرته خلال هذه الفترة القصيرة من الوقت ؟ عدا عن ذلك ، كيف استطعت أن تقدر مدة بقائك هناك ؟ هل نظرت إلى ساعتك ؟

جواب : كلا لم أنظر إلى الساعة . أنا ملاح منذ ستة عشر عاما . ومهنتي تفرض على الملاح أن يقدر الزمن بدقة متناهية حتى الثوان . رد فعل . فالملاح الذي لايستطيع تحديد ظروف وزمن الحدث لايعتبر ملاحاً حقيقياً . هذا ينطبق على المراقبة أيضاً مع مرور الزمن يصبح الانسان قادراً على استيعاب الاشياء خلال فترة زمنية قصيرة .

سؤال : ألم تر شيئاً آخر ؟

جواب : رأيت.لا أذكر ما رأيت بوضوح . ربما رأيت أكثر مما أتحمله . شعرت وكأن دماغي أمتلأ مما شاهدته . وبدأ الضباب يملأ الفتحة فاضطررت للصعود . لأول مرة كدت أتحطم . رجفت يداي بحيث لم أعد قادراً على توجيه دفة القيادة كما يجب . ربما بدأت أصرخ وناديت القاعدة مع علمي أن الاتصال مقطوع .

سؤال : هل حاولت العودة مرة أخرى ؟

جواب : كلا . اعتقدت بعد أن حلقت في الارتفاع المناسب أنني سأجد « فيخنر » في إحدى تلك الفتحات . أدركت أن هذا يبدو عملاً

لافائدة منه . ومع ذلك هكذا فكرت . إذ من غير المستبعد أن أجد « فيخنر » طالما تجري أمور كهذه لذلك قررت أن أدخل في كل فتحة تصادفني . وبالكاد استطعت إخراج المركبة في المرة الثالثة بعدما شاهدت ما شاهدت وأدركت أن الأمر خارج عن نطاق قدرتي . لم أستطع فعل ذلك مرة أخرى . شعرت بالضعف وتقيأت . لم يحدث ذلك معي من قبل . لم أتجشأ من قبل .

سؤال : هل هذا علامة للتسمم ؟

جواب : ربما . لا أعرف . غير أن الذي شاهدته في المرة الثالثة لايمكن اعتباره ناتجاً عن التسمم .

سؤال : وكيف عرفت ذلك ؟

جواب : لم تكن هلوسة . الهلوسة هي ما يكونه دماغي الشخصي ، أليس كذلك ؟

جواب : كذلك .

جواب : وهكذا فلا يمكن لدماغي أن يكوّن ما رأيته . لن أصدق ذلك أبداً لست قادراً على ذلك

سؤال : حسناً حدثنا بدقة أكثر عما رأيته ؟

جواب : أولاً أود أن أعرف تقييمكم لما رويته لكم .

سؤال : ما أهمية ذلك ؟

جواب : هذا أمر مبدئي بالنسبة لي . قلت لكم إنني رأيت مالا أستطيع نسيانه أبداً . و إن اعتبرت اللجنة حديثي صحيحاً بنسبة واحد بالمئة فقط فهذا يعني ضرورة البدء بدراسة هذا المحيط دراسة مناسبة . عندئذ سأكمل حديثي . وإذا اعتبرت اللجنة كلامي مجرد هلوسة فلن أضيف كلمة أخرى .

سؤال : لماذا ؟

جواب : لأن هلوستي ـــ إن كانت هلوسة ـــ فهي أمر شخصي أما أبحاثي عن سولاريس فهي شيء آخر .

سؤال : هل هذا يعني أنك ترفض الادلاء بأجوبتك حتى يتخذ أعضاء اللجنة من ذوي الصلاحيات قراراً بذلك ؟ عليك أن تعلم أن اللجنة لاتملك صلاحية اتخاذ قرارات فورية .

جواب : نعم .

هنا انتهى البروتوكول الأول وكان هناك مقطعاً من بروتوكول آخر مؤرخ بعد أحد عشر يوماً من التحقيق الأول .

« ممثل اللجنة : بعد أن أخذت اللجنة المؤلفة من نائب رئيس البعثة وثلاثة أطباء و ثلاثة بيولوجيين وفيزيائي ومهندس ميكانيكي كافة معطيات السيد بيرتون بعين الاعتبارتوصلت إلى أمر هام هو أن المعلومات التي قدمها السيد بيرتون تحوي في مضمونها على هلوسة مجسدة في مجموعة من التصورات الناتجة عن تأثير المناخ السام للكوكب وعن أعراض غم في وعيه رافقه تهيج شديد في مناطق اللحاء الدماغي ويمكن اعتبار المعلومات التي تقدم بها لامعنى لها أو تكاد أن تكون .

بيرتون : عفواً . ماذا تعنون بقولكم « لامعنى لها أو تكاد أن تكون » ؟ ماذا تقصدون بعبارة « تكاد أن تكون » هل يقصد بذلك ضخامة ؟

ممثل اللجنة : لم أنته بعد . وقد تم تسجيل VOTUM SEPARATUM * لدكتور الفيزياء السيد « أرتشيبالد ميسينجر » الذي عبر فيه عن إمكانية حدوث ما ذكره بيرتون في الواقع وأن الأمر يحتاج إلى دراسة وافية . هذا كل شيء.

بيرتون : أكرر سؤالي .

---

* الرأي الخاص .

ممثل اللجنة : هذا واضح . إن عبارة « أو تكاد أن تكون » تعني أن بعض الظواهر الواقعية استطاعت أن تولد لديك هذه الهلوسة يا سيد بيرتون . إن أي إنسان طبيعي يرى أشياء غريبة في شجرة تهتز بفعل هبوب الرياح . فما قولك عندما يتعلق الأمر بكوكب غريب سمم عقل مراقبه . لا أعتقد أن في هذا احتقار لك وماهو قرارك فيما أشرنا إليه سابقاً .

بيرتون : أريد أولاً معرفة خلفيات VOTUM SEPRATUM للدكتور ميسيجر .

ممثل اللجنة : عملياً لاشيء وهذا يعني أنه لن تجري أية أبحاث في هذا الاتجاه .

بيرتون : بخصوص ذلك أريد أن أقول ما أعتقده . وهو أن اللجنة قد عبرت عن عدم احترامها لروح البعثة العلمية وليس لي . أنا لا أقع ضمن دائرة الحسابات وانطلاقاً من تصريحي الأول فيما يتعلق بمتابعة الاجابة عن الأسئلة فإنني أعلن عن رفضي التام متابعة الرد على الأسئلة .

ممثل اللجنة : هل هذا كل مالديك ؟

بيرتون : نعم . لي رجاء أن ألتقي بالدكتور « ميسنجر » هل يمكنني ذلك ؟

ممثل اللجنة : طبعاً . » .

انتهى البروتوكول الثاني . وفي أسفل الصفحة سجلت بأحرف صغيرة ملاحظة تقول :

إن الدكتور ميسنجر أجرى في اليوم التالي حواراً سرياً مع بيرتون استغرق مدة ثلاث ساعات وتوجه بعده الدكتور ميسنجر إلى مجلس البعثة مطالباً القيام بدراسة معطيات الملاح بيرتون وألح على ذلك .

أكد الدكتور ميسنجر أن بيرتون قدم معطيات جديدة لصالح اتخاذ مثل هذا القرار وهو لايستطيع الكشف عن هذه المعطيات إن لم يتخذ المجلس

سلفاً قراراً ايجابياً بهذا الشأن . وقف كل من « شينون » و « تيمولیس » و « تراخيو » أعضاء هذا المجلس موقفاً سلبياً من هذا الاقتراح . وانتهت المسألة .

احتوى الكتاب أيضاً على صورة لرسالة وجدت بين أوراق ميسنجر وعلى الأرجح كانت مسودة رسالة . لم يستطع « رافينتسر » أن يعرف هل أرسلت هذه الرسالة أم لا وماهي نتائجها .

« ... هذا غباء فريد من نوعه ــ هكذا بدأ نص الرسالة . ــ لقد أتخذ المجلس قراره انطلاقاً من حرصه واهتمامه بسمعته وإذا عبرت بدقة أكثر فإن

« شينون » و « تيموليس » قد عارضا مطلبي ، (ولا أهمية لصوت « تراخيو ») . وأتوجه الآن إلى المعهد مباشرة وأنت تعرف أن هذا سيكون مجرد اعلان اعتراض ضعيف . للأسف لا أستطيع أن أبوح بما أخبرني به بيرتون لأنني أعطيته عهداً بذلك . أعتقد أنه قد توصل وهو إنسان دون ألقاب علمية إلى اكتشاف كبير كهذا كان له تأثيره السلبي على قرار المجلس ومع أخذ العلم أن أي باحث علمي حقيقي يمكنه أن ينظر إلى هذا الملاح وإلى رباطة جأشه وموهبته ودقة ملاحظته نظرة حسد . أرجوك جداً أن ترسل لي في البريد العائد المعطيات التالية :

١ ــ سيرة حياة فيخنر منذ أيام طفولته .

٢ ــ كل ما تعرفه عن أقربائه وعن علاقته مع أقربائه ، أعتقد أنه ترك وراءه طفلاً يتيماً .

٣ ــ صورة للمكان الذي ترعرع فيه .

كما أريد أن أخبرك أنني مازلت أفكر بكافة جوانب هذه المسألة . أنت تعلم أن بقعة تشكلت في مركز الشمس الحمراء بعد وقت قصير من تحليق فيخنر

و كاروتشي ، تلك البقعة التي تسبب في انقطاع الاتصالات في القسم الجنوبي من الكوكب أي في مكان تواجد قاعدتنا وذلك باستخدام أشعة مجسمة حسب معطيات التابع .

لقد ابتعد فيخنر وكاروتشي عن القاعدة أكثر من بقية فرق الانقاذ .

لم نلاحظ طوال فترة تواجدنا على الكوكب مثل هذا الضباب اللزج الذي ظهر بعد الحادثة . أرى أن ما شاهده « بيرتون » كان جزءاً من عملية « الانسان » التي ينفذها هذا الغريب اللزج . كما أعتقد أن فيخنر يشكل المصدر الحقيقي لتلك الظواهر التي شاهدها بيرتون ودماغه الآن في طريقه إلى « التشريح النفسي » لأننا لم نفهمه بعد . الحديث يدور حول تجربة إعادة صياغة أو إعادة تشكيل بعضاً من آثار ذاكرته وعلى الأرجح الأكثر منها ثباتاً .

أعرف أن هذا يبدو أمراً خيالياً ويمكنني الوقوع في الخطأ . أرجو أن تساعدني أنا الآن على إلاريك* . انتظر جوابك .

أ. مسينجر

بدأ الظلام يسيطر على الحجرة وأصبح الكتاب رمادياً بين يدي والقراءة صعبة . وأخيراً بدأت الأحرف تتمدد . لكن الجزء الفارغ من الصفحة يشهد على أنني وصلت حتى نهاية هذه القصة التي تبدو معقولة جداً على ضوء تجاربي الشخصية . التفت نحو النافذة . كان الفضاء مخملياً غامقاً . في الأفق

---

* اسم احدى المحطات

بعض الغيوم الشبيهة بقطع جمر نائسة . لم يكن المحيط المغلف بالعتمة مرئياً . سمعت حفيف الأوراق على شبكة أجهزة التهوية .

بدا وكأن الهواء المصحوب برائحة أوزون خفيفة قد تكثف . عمت السكينة المطلقة على المحطة . فكرت أنه لم يبق أي شيء بطولي في قرارنا . لقد ولى عصر الصراع البطولي ، والبعثات الجريئة والموت المرعب ، كما حدث في مصرع فيخنر أول ضحية من ضحايا المحيط . لم أفكر بضيوف سناوت أو سارتوريوس ومن هم . أعتقدت أننا « سنكف عن الخجل من بعضنا بعضاً . ولن ننطوي على أنفسنا حتى وان لم نستطع التخلص من زوارنا . سنعتاد عليهم . سنتعايش معهم . إن بدَّل مخترعهم قواعد اللعبة فسنتكيف مع الجديد منها . وربما تعذبنا وتقلبنا ومن الجائز أن ينتحر هذا أو ذاك لكن سيعود كل شيء إلى التوازن في نهاية المطاف » .

ابتلعت العتمة الغرفة التي أصبحت شبيهة بحجرة أرضية . فقط كان شبح المغسلة والمرآة يلمعان في العتمة بواسطة اللمس .

وجدت كيس القطن على الرف . مسحت وجهي بقطعة قطن رطبة واستلقيت على السرير . كنت اسمع حفيف مكيف الهواء يعلو ويهدأ مثل خفقان أجنحة فراشة . لم أعد أرى نوافذ الحجرة . سيطر الظلام على كل شيء . فجأة لاحظت أمامي دفقة نور باهت لم أعرف مصدرها . لم أعرف ان كانت على الجدار أم هناك بعيداً في عمق الصحراء خلف النافذة وتذكرت كيف أرعبتني نظرة الفضاء السولاريسي سابقاً .

كدت أبتسم . قربت يدي من عيني . لمعت الأرقام الفوسفورية في ميناء الساعة . ستظهر الشمس الزرقاء بعد ساعة . تمتعت بهذه العتمة وتنفست عميقاً وشعرت بالفراغ والحرية من أية أفكار .

عندما تحركت أحسست بعلبة المسجل الملساء تلامس وركي . نعم ، غيباريان . لقد حفظ صوته مسجلاً على الشريط . لم يخطر في ذهني أن ابعثه من جديد . سأسمعه . هذا كل ما استطيع فعله من أجله .

أخذت المسجل لاخفيه تحت السرير وسمعت في هذه اللحظة حفيفاً وصريراً خفيفاً للباب الذي انفتح .

ـ كريس ؟ .... تناهى إلى مسامعي صوت هاري هامساً . ـ هل أنت هنا يا كريس ؟ ماهذا الظلام ؟

ـ هذا لايهم . لاتخافي . اقتربي .



المباحثات

استلقيت على ظهري دون أية فكرة . تكاثف الظلام الدامس في الحجرة . سمعت وقع أقدام . سقطت الجدران . حلق شيء مافوقي وارتفع إلى علو شاهق . تسمّرت ملتحفاً بأحضان العتمة . شعرت بشفافيتها المرنة . تناهى لي صوت خفقان قلب من البعيد وركزت كل إنتباهي وكل ما بقي لدي من قوة لمواجهة سكرات الموت ، لكنها لم تأت . كنت أتضاءل . لقد جعلت السماء اللا مرئية والآفاق البعيدة والفضاء و السحب والنجوم العديمة الأشكال مني مركزاً لها وهي تبتعد وتكبر . بذلت قصارى جهدي للاختفاء داخل ماأنام عليه . لكن لم أجد شيئاً تحتى . لم يعد الظلام يخفي شيئاً . أطبقت يداي على وجهي وأخفيته . اختفى وجهي . عبرت أصابعي من خلاله . أردت أن أصرخ أن أعوي ...

الغرفة رمادية ـــ سماوية . فقدت الجدران والرفوف والزوايا والأثاث ألوانها ولم تعد تظهر سوى ملامحها ، كأنها رسمت بخطوط ربداء عريضة . ظهرت لؤلؤة شفافة ناصعة البياض خلف النافذة . كنت مبتلاً تماماً من التعرق . نظرت إليها . نظرت إلي :

ـــ هل تخدرت يدك ؟

ـــ ماذا ؟

رفعت رأسها . كانت عيناها بلون الغرفة ـــ رمادية ، براقة محاطة برموش

سوداء شعرت بدفء كلماتها قبل فمها .

ـــ كلا ، آ . نعم

احطت منكبيها بيدي . شعرت بالقشعريرة من لمسها . وبهدوء احتضنتها باليد الأخرى .

ـــ هل رأيت حلماً سيئاً ؟

ـــ حلم ؟

ـــ نعم . حلم . ألم تنامي ؟

ـــ لا أعرف . جائز . وربما لم أنم . أنا لا أريد النوم .ثم أنت لماذا تنظر إلي بهذا الشكل ؟

غطت عيني . كان قلبها يخفق قربي بايقاع ودقة . « أداة تمثيل » هذا مافكرت به . لم يدهشني ذلك حتى لامبالاتي الشخصية . لقد تخلصت من اليأس والرعب . لامست بشفتي جيدها ثم قبلت تجويف حنجرتها الصغيرة الأملس مثل قوقعة الصدف . هنا خفقت نبضات قلبي . نهضت متكئاً على مرفقي . كان الأفق يشبه شفقاً أو فجراً ندياً وقد أحاطته هالة كهربائية زرقاء . اخترق أول شعاع منها الغرفة كسهم ، وبرقت الأشياء داخل الحجرة ببريقه . وتماوجت ألوان قوس قزح في المرآة وعلى مقابض الغرفة والأنابيب المطلية بالنيكل . تخيلت أن الضوء يصطدم بكل شيء وكأنه يريد أن يفلت أن يفجّر هذا المكان الضيق . صار مستحيلاً أن أتابع النظر . التفت جانباً . أصبحت حدقتا عينا « هاري » صغيرتين .

ـــ هل حل النهار ؟ سألت « هاري » بصوت خافت . شبه حلم . شبه حقيقة .

ـــ الحالة هنا دائما بهذا الشكل ياعزيزتي .

ـــ ونحن ؟

ـــ ماذا تقصدين ؟

ـــ هل سنبقى هنا طويلاً ؟

أردت أن أضحك لكن صوتي الأصم لم يكن ضاحكاً عندما أجبتها :

ـــ نعم سنبقى مافيه الكفاية . هل تعارضين ذلك ؟

رفَّ جفناها ونظرت إليَّ بتمعن . ربما غمزتني . وربما تراءى لي ذلك . سحبت الغطاء . احمرت على كتفها شامة مثلثة الشكل .

ـــ لماذا تنظر إلي بهذه الطريقة ؟

ـــ أنت جميلة جداً .

ابتسمت . كانت ابتسامتها مجرد رد لطيف وشكر على مجاملتي .

ـــ حقاً ؟ تنظر وكأنك ... وكأنك ....

ـــ ماذا ؟

ـــ كأنك تبحث عن شيء

ـــ تتوهمين .

ـــ لا . كأنك تفكر أن شيئاً قد حدث لي أو شيئاً لم أبح به لك .

ـــ من أين أتتك هذه الفكرة ؟

ـــ طالما أنك تفكر فهذا يعني احتمال ... حسناً كما تريد .

صار القيظ الأزرق الميت خلف النوافذ الملتهبة شديداً ، ظلَّلتُ عيني براحة كفي وبحثت عن النظارة . وجدتها على الطاولة . عدت إلى السرير وعلقت النظارة على عيني. شاهدت صورة « هاري » تنعكس في المرآة . كانت تنتظر . ضحكت عندما تمددت قربها من جديد .

ـــ وأنا ؟

ادركت فجأة .

ــ نظارات ؟

نهضت . بحثت في الصناديق وعلى الطاولة قرب النافذة وجدت نظارة قدمتها لهاري . جربتها . الحقيقة أنها كانت كبيرة بالكاد تعلق على أنفها .

في هذه اللحظة اهتزت الأبواب وبلحظة حل الظلام في المحطة كما تخفي السلحفاة عنقها داخل درعها . خلعت نظارتي ، ورفعت النظارة عن وجهها ووضعتها تحت السرير ، سألتني :

ــ ماذا سنفعل ؟

ــ ما يجب أن نفعله ، النوم .

ــ كريس .

ــ نعم

ــ هل أصنع لك كمادة جديدة ؟

ــ كلا . لاداعي ... ياعزيزتي .

فجأة لاأدري لماذا احتضنت كتفيها النحيلتين في الظلام الدامس . وآمنت بها وأنا أشعر برجفة كتفيها . رغم أنني ... لا أعلم . تراءى لي أنني أخدعها بدلاً من أن تخدعني ...وهذه حقيقة .

استيقظت عدة مرات . وفي كل مرة كنت ألاحظ تسارع دقات قلبي التي تعود لتنتظم ببطء من جديد . شددتها إليّ . كنت تعباً للغاية . لامست هاري وجهي وجبيني بحنان وتفحصت بدقة إن كنت أعاني من الحمى . إنها « هاري » ، « هاري » الحقيقية . لايمكن أن تكون واحدة أخرى .

تغير شيء ما في داخلي من هذه الفكرة . أقلعت عن صراع هذه الأفكار . أخذني النوم فوراً . أيقظتني لمسة خفيفة . شعرت ببرودة طفيفة على جبيني . شعرت بشيء رطب طري على وجهي ، سرعان ما ارتفع بهدوء

ورأيت « هاري » منكبة عليَّ . عصرت قطعة الشاش مرتين فوق وعاء خزفي . على الجانب كانت زجاجة دواء ضد الحروق . ابتسمت لي وقالت :
ــ هل تريد النوم ــ ومن جديد وضعت قطعة الشاش على جبيني ــ هل يؤلمك ؟
ــ كلا .

حركت جلد جبيني . الحقيقة أنني لم أعد أشعر بمكان الحروق . جلست هاري على طرف السرير وقد لفت جسدها ببرنس رجالي أبيض بخطوط برتقالية . وتناثر شعرها الفحمي على ياقته رفعت أكمام البرنس حتى مرفقيها كي لايعيقا حركة يديها .

شعرت بجوع شيطاني لأنني لم أضع في فمي شيئاً من الطعام منذ عشرين ساعة . ورفعت هاري الكمادة عني . نهضت ، فجأة شاهدت فستانين أبيضين بأزرار حمراء يشبهان بعضهما تماماً ملقيين قربنا ، الأول ذلك الذي ساعدتها على خلعه بأن قصصت ياقته و الثاني جاءت به البارحة لكنها فتحته وحدها هذه المرة بواسطة المقص وقالت : ربما استعصى السحاب .

كان الفستانان من أرعب الأشياء التي شاهدتها حتى الآن . وقفت « هاري » قرب خزانة الأدوية التي ترتبها . ابتعدت عنها ، وخلسة عضضت يدي حتى كاد الدم يسيل منها و أنا أنظر إلى هذين الثوبين، بالأحرى إلى هذا الفستان المكرر مرتين . قفزت بخفة نحو الباب . كان الماء ما يزال يسيل من الصنبور . فتحت الباب وتسللت خفية إلى الدهليز . أغلقت الباب خلفي بحذر شديد ، سمعت صوت خرير مياه صنبور واحتكاك زجاج . انقطعت هذه الأصوات فجأة واشتعلت مصابيح السقف الطولانية . صررت على أسناني وانتظرت وأنا أمسك بقبضة الباب ، علماً بأنني لم أكن متيقناً من

قدرتي على إيقافها . كادت قبضة الباب تفلت من يدي إثر دفعة قوية . لم ينفتح الباب بل اهتز وبدأ يصدر صريراً مرعباً . تركت قبضة الباب وابتعدت مذهولاً . حدث للباب شيء لايصدق . لقد تقعّر سطحه البلاستيكي الأملس إلى داخل الغرفة . كأنه ضغط بقوة هائلة من طرفيه . تمزق الغطاء إلى فتات صغيرة . اشتدت العضادة الفولاذية العارية . فجأة أدركت أنها تحاول شد الباب بقوة إلى الداخل نحوها لتفتحه بدلاً من دفعه نحو الدهليز . لمع شرر لبريق الضوء على السطح الأبيض الشبيه بمرآة مقعرة تلته قرقعة شديدة تصدّعت معها كتلة الصفيح التي تجوفت حتى النهاية . انخلعت قبضة الباب وانقذفت إلى داخل الغرفة . ظهرت في الحال أيدٍ مدماة تابعت الشد مخلفة وراءها على الصفيح بقع حمراء . انشطر الباب إلى نصفين وعلقت أطرافه على الجوانب . ظهر كائن أبيض بخطوط برتقالية بوجه مزرق ازرقاق الموت وانكب على صدري . كانت « هاري » تختنق من البكاء .

كان المنظر مروعاً بحيث جمدت في مكاني وإلا لهربت منذ البداية . كانت « هاري » تستنشق الهواء بتشنج وتضرب برأسها على كتفي ثم تهاوت على الأرض . أمسكتها وحملتها إلى داخل الغرفة . مررنا بقرب ردفة الباب المحطمة ووضعتها على السرير . الدم يسيل من تحت أظافرها المحطمة . قلبت يدها وشاهدت جلد راحة كفها الذي انسلخ عن اللحم . نظرت إلى وجهها . كانت عيناها تنظران إلي دون أية تعابير .

ـــ هاري !

وتلعثمت بكلمات لم أفهمها .

قربت إصبعي من جفنها . انخفض جفنها . توجهت إلى خزانة الأدوية . سمعت صريراً انبعث من السرير . التفت . كانت جالسة تنظر بذعر إلى يديها المدميتين وناحت :

ــ كريس . أنا .. أنا .. ما الذي أصابني .

أجبتها بجفاء :

ــ جرحت نفسك وأنت تحطمين الباب

شعرت بشفاهي ، وخاصة بشفتي السفلى وكأن النمل يسير عليها . عضضتها . كانت « هاري » تحدق في قطع البلاستيك المثلمة والمعلقة على العضادة وشاهدت بأية قوة كانت تقاوم الرعب الذي أصابها .

أخذت قطعة من الشاش الأبيض وذروراً ضد الجروح من الخزانة وتوجهت إلى السرير.فجأة تساقطت كل الأشياء التي أحملها بيدي وتحطمت زجاجة الكلودين ولم أنحن لأخذها ، لم تعد هناك حاجة لها .

رفعتُ يدها . كانت ما تزال الدماء التي تخثرت عالقة حول أظافرها . اختفت جروحها.اكتست راحة كفها بجلد جديد زهري اللون . شحبت آثار الجراح أمام عيني .

جلست . تأملت في وجهها وحاولت الابتسام لها . لا أعتقد أنني استطعت فعل ذلك .

ــ هاري ، لماذا فعلت ذلك ؟

ــ كلا ، هل .... أنا

وأشارت بعينيها إلى الباب .

ــ نعم ألا تذكرين ؟

ــ كلا لقد شعرت بخوف شديد عندما غبت عني و ...

ــ وماذا ؟

ــ بدأت أبحث عنك ، ظننت أنك في الحمام ... لاحظت أن الخزانة مزاحة قليلاً والطريق سالك إليه .

ـــ وبعد ذلك ؟
ـــ ركضت إلى الباب .
ـــ وبعد ؟
ـــ لا أذكر . كأن شيئاً قد حدث فعلاً !
ـــ ماهو ؟
ـــ لا أعرف
ـــ ماذا تذكرين ؟ ما الذي حدث بعد ذلك ؟
ـــ جلست هنا على السرير .
ـــ ألا تذكرين أني حملتك .

ماطلت ، تراخت زاويتا فمها إلى الأسفل وتوتر وجهها .
ـــ يتراءى لي ... من المحتمل ... أنا شخصياً لا أعرف .
وضعت قدميها على الأرض ونهضت . أقتربت من الباب المحطم .
ـــ كريس !

امسكتها من خلف كتفيها . كانت ترتعش . فجأة التفتت نحوي بسرعة وحدقت في عيني .
همست :
ـــ كريس ، كريس .
ـــ اهدئي .
ـــ كريس ... ربما ... كريس ربما كنت مصابة بمرض الصرع ؟
ـــ الصرع ، يارحمن يارحيم !
أردت أن أضحك :
ـــ مابك ياعزيزتي . هذا الباب ببساطة ... هل تفهمين . هذه الأبواب ،

كلها ... غادرنا الغرفة بعد أن سمعنا صريراً مديداً للأبواب الخارجية وظهر قرص الشمس المتهاوي في المحيط . توجهنا إلى المطبخ الصغير في الطرف الآخر للدهليز . وهناك تصرفت وهاري كأننا أصحاب هذا البيت . قلبنا محتويات الصناديق والبرادات .لاحظت أنها لم تتعب نفسها كثيراً بالطهي . تستطيع فعل ذلك بطريقة أفضل بقليل من فتح المعلبات بمعنى تستطيع فعل ذلك مثلي تقريباً .

ابتلعت محتويات علبتين وشربت عدداً لايحصى من فناجين القهوة . هاري أكلت أيضاً،لكن أكلها كان أشبه بأكل الأطفال الصغار الذين لايرغبون بإثارة حنق الكبار،أي بدون إكراه لكن بشكل آلي وبلا مبالاة .

دخلنا غرفة العمليات الواقعة قرب غرفة الارسال . كانت لدي خطة محددة قلت لهاري أنني أريد الكشف عليها . جلست على الكرسي الدوار . تناولت من المعقم حقنة ومصلاً كنت أعرف مكان الأشياء غيباً لشدة ما درسناها على الأرض . أخذت قطرة دم من رأس إصبعها . مددتها على شكل بقعة صغيرة . جففته في المخبر وفي الخلاء الفارغ ذررت عليه ايونات الفضة .. كان لهذه العملية تأثيراً مهدئاً . راقبت هاري وهي على وسادات الأريكة المفتوحة طريقة إجراء العملية التي قامت بها الأجهزة .

فجأة تعكر هذا السكون برنين جرس الهاتف الداخلي . رفعت السماعة .

ـــ أنا كيلفن ـــ أجبت دون أن أرفع نظري عن هاري التي أصابها خمول كأنها انهكت من معاناتها للساعات الأخيرة التي مضت .

ـــ أنت في العمليات ؟ أخيراً ! ـــ سمعت زفير ارتياح . كان سناوت .

ضغطت السماعة على أذني .

ـــ لديك زائر . أليس كذلك ؟

ـــ نعم

ـــ أنت مشغول ؟

ـــ نعم

ـــ تجري بعض البحوث ؟

ـــ وما الغريب في الأمر ؟ هل ترغب أن نلعب دوراً في الشطرنج ؟

ـــ كف عن ذلك يا كيلفن . سارتوريوس يرغب باللقاء معك . أقصد معنا .

أصابني الذهول .

ـــ هذا خبر فعلاً ! وماذا ...

قطعت حديثي وختمته :

ـــ هل أنت وحدك ؟

ـــ كلا . لم أعبر لك جيداً . إنه يريد أن يتحدث إلينا . سنجري اجتماعاً بواسطة الهاتف المرئي . شرط أن تحجب الشاشة .

ـــ هكذا ! لماذا لم يتصل بي إذن ! هل يخجل ؟

تلعثم سناوت وقال : شيء من هذا القبيل . وما العمل ؟

ـــ كيف نتفق ؟ لنقل بعد ساعة ما رأيك ؟

ـــ حسن

لم أر في الشاشة سوى وجهه بحجم راحة الكف . نظر إلى عيني بتمعن بعض الوقت.أخيراً نطق بعد كثير من المماطلة :

ـــ كيف هي أحوالك ؟

ـــ مقبولة . وأنت ؟

ـــ أعتقد أنها أسوأ من أحوالك بقليل . إنك لاتستطيع أن ....

ـــ أترغب بالقدوم إلي ؟

لقد عرفت قصده . نظرت إلى هاري . كانت متمددة تضع ساقاً فوق

ساق ضجرة تلعب بكرة فضية معلقة بواسطة سلسلة بذراع الأريكة .
ـــ دع هذا ، هل تسمع ؟ دعه ! جاءني صوت « سناوت » عالياً .

رأيت جانب رأسه . لم أسمع بقية كلماته . وضع يده على السماعة لكني رأيت حركة شفتيه .

ـــ لا أستطيع القدوم إليك . فيما بعد ، بعد ساعة . وأطفأ الشاشة .
علقت السماعة . وسألت هاري بلا مبالاة :
ـــ من تحدث إليك ؟
ـــ إنه ... سناوت . سيبيرنيتيك . أنت لاتعرفينه .
ـــ أيدوم ذلك طويلاً ؟ هل سيدوم طويلاً ....
ـــ ضجرت ؟

وضعت أول جزء من المستحضر في شريط الميكروسكوب النيتروني . وضغطت بالتتابع على أزرار المفاتيح الملونة . سمعت أزيزاً صماً لمجال القوى .
ـــ لامجال للتسلية هنا . إن كانت صحبتي المتواضعة لاتكفيك فهذا أمر سيء .
كنت أحدثها وأنا في حالة من الشرود واضعاً فواصل كبيرة بين الكلمات . وفي نفس الوقت كنت أسحب بيدي الرأس الأسود الكبير الذي يلمع في داخل العدسة العينية للمكروسكوب . وأضغط بعيني على واقية العين البلاستيكية المرنة . تحدثت « هاري » بشيء لم أسمعه . كنت أشاهد من بعيد ما يشبه صحراء مترامية الأطراف مطلية ببريق فضي ، توضعت فيها تلال صخرية مسطحة تبدو متشققة ومضمحلة مغطاة بشيء سديمي . هذه هي الكريات الحمراء . وضحت الصورة دون أن أرفع عيني عن العدسة غصت قدر استطاعتي في أعماق الفضة الملتهبة . في نفس الوقت كنت أدفع بيدي

اليسرى ذراع التسوية للطاولة . وعندما وقعت الكرة الشبيهة بجلمود في منتصف تقاطع الخطوط السوداء كبّرت الصورة . اقتربت العدسة من الخلية المشوهة المقعرة في وسطها والتي بدت كدائرة لفوهة بركان صخرية ذات ظلال سوداء حادة على الحتارات الجانبية . بعد ذلك تحرضت الحواف الدائرية من الغارة البلورية لايونات الفضة وابتعدت خارج مجال الميكروسكوب . ظهرت دوائر عكرة كأنها تلمع داخل مياه متلألئة ذائبة حتى منتصفها في سلسلة متصدعة زلالية . وبعد أن أوقعت واحدة من تلك القطع الزلالية السميكة في التقاطع الأسود ، ضغطت بسرعة على زر التكبير وبعد ذلك كدت أصل إلى نهاية الطريق في العمق حين غطت ظلال مضاعفة لإحدى هذه الجزيئات العدسة . توضحت الرؤية ـــ الآن !

لكن شيئاً لم يحدث . لم أر البقع النووية المهتزة الشبيهة بالمرق المتماوج . توهجت الشاشة بشدة . دفعت الذراع حتى النهاية . تضاعف الأزيز وأصبح حنقاً. لم ألاحظ شيئاً . حذرني رنين الاشارة من عدم احتمال الأجهزة . ألقيت نظرة أخيرة على الفراغ الفضي وفصلت التيار . نظرت إلى « هاري ».فتحت « هاري » فمها متثائبة وحولت تثاؤبها برشاقة إلى إبتسامة . سألتني :

ـــ كيف أحوالك ؟

ـــ جيدة جداً . لا أعتقد أن هناك من هو أفضل مني .

كنت أنظر إليها ومن جديد شعرت بحركة النمل على شفتي السفلى . ما الذي حدث ؟ ماذا يعني ؟ كم يبدو هذا الجسد ضعيفاً وهشاً من الخارج . لكنه غير قابل للفناء في حقيقة الأمر . تبين أن أساسه يتكون من ... اللاشيء ! ضربت بيدي على غطاء الميكروسكوب الدائري . هل هناك عطل

في الأجهزة ؟ لا تتوضح المجالات ؟ كلا . أعلم أن الأجهزة تعمل بانتظام . لقد تدرجت درجة وراء أخرى . لقد بدا كل شيء كما شاهدته سابقاً في آلاف المستحضرات : خلايا ، خليط زلالي ، جزيئات . لكن الخطوة الأخيرة من السلم لم توصلني لأي شيء .

أخذت دماً من عرقها وسكبته في أنبوبة مستقرة . قسمته إلى دفعتين ثم بدأت بتحليله أخذت العملية مني وقتاً أكثر مما توقعت . لقد تناقصت خبرتي . جرت التفاعلات بشكل طبيعي واعتيادي . انتهى رغم أنه ....

وضعت قطرة حمض مركز على الخرزة الحمراء . صعد دخان من القطرة واكتست بطبقة من رغوة وسخة . انحلال . كحول ميثيلي . بعد ، أكثر ! مددت يدي إلى أنبوبة الاختبار كادت الزجاجة الرقيقة تسقط من يدي عندما أعدت النظر إلى القطرة .

من جديد ظهرت كتلة حمراء ــ مسودة تحت طبقة الرغوة الوسخة في قعر انبوبة الاختبار. تجددت قطرة الدماء التي احترقت بالحمض ! هذا جنون ! هذا مستحيل !

ــ كريس ! سمعت صوتاً يناديني من بعيد . الهاتف ياكريس .

ــ ماذا ؟ آه . نعم . شكراً .

كان الهاتف يرن منذ مدة . لكني لم أسمعه إلا الآن . رفعت السماعة .

ــ كيلفن .

ــ « سناوت » . وصلت الخط . نستطيع الآن أن نتحدث .

ــ أحييك يادكتور « كيلفن » صدح صوت سارتوريوس الحزين العالي . لقد بدا صوته حذراً متيقظاً وهادئاً من الخارج . كمن يدوس على سقالة خطرة . أجبته :

ـــ احترامي دكتور « سارتوريوس ».

رغبت في الضحك لكني لم أكن واثقاً أن أسباب هذا الفرح واضحة في ذهني لأسمح لنفسي بذلك . وماهو الشيء المضحك ؟ كنت أمسك بشيء في يدي : انبوبة الاختبار مع قطرات الدم . هززت الانبوبة . كان الدم متخثراً . أمن الجائز أن كل ما حدث قبل هذا كان مجرد هلوسة ؟ أمن المحتمل أنه تراءى لي ؟

ـــ أردت إخبار الزملاء عن بعض الأفكار المتعلقة بهذه الفانتومات* كنت مصغ إلى سارتوريوس ولا أسمعه في نفس الوقت . كأنه دخل عنوة الى وعي . حاولت أن ابتعد عنه بأفكاري وحدقت في الأنبوبة وإلى الدم المتجمد فيها .

ـــ لندعوهم بالكائنات F قال سناوت بسرعة .

ـــ رائع .

اسود الخط الشاقولي في منتصف الشاشة الذي أشار إلى أنني أستقبل قناتين في وقت واحد . كان على وجهي المتحدثين أن يظهرا على طرفي هذا الخط . بقي الزجاج عاتماً عدا حاشية تشير إلى وضع التشغيل للأجهزة . لقد غُطيت الشاشات بشيء ما .

ـــ لقد قام كل منا بتجارب مختلفة ....

من جديد شعرت بالنبرة الحذرة لذلك الصوت الحزين . دقيقة من الصمت . وتابع كلامه :

ـــ اقترح أن نتبادل المعلومات أولاً ، بعد ذلك أستطيع اخباركم بما توصلت إليه شخصياً . هل يمكنك أن تبدأ أولاً يا دكتور « كيلفن » .

---

* من كلمة فانتوم . (الشبح) .

ـــ أنا ؟

فجأة شعرت بنظرة « هاري » وضعت الانبوبة على الطاولة بدون اهتمام فتدحرجت إلى أسفل المسند الزجاجي . جلست دفعة واحدة على كرسي مرتفع بثلاثة أرجل بعد أن سحبته بقدمي . أردت الاعتذار أولاً لكنني لسبب لا أعرفه أجبت :

ـــ حسناً . محادثة قصيرة . ممتازة ! قمت بأشياء قليلة هي مستحضر كحولي واحد . وتفاعلين . تفاعلين صغيرين . ولدي انطباع أن ...

لهذه اللحظة لم يكن لدي تصور عما سأقوله . بغتة انطلق لساني :

ـــ كل شيء عادي . تبدو المسألة مموهة . يغلفها قناع . يبدو الأمر كنسخة نموذجية حسب بعض المعطيات . إنه إعادة صياغة وانتاج أوضح وأدق من النسخة الأصلية . هذا يعني أننا نجد عند الانسان نهاية البذرة ، نهاية تركيبة الانشطار . أما هنا فيقودنا الدرب لأبعد من ذلك بفضل استخدام تركيب نووي أدق . وسأل سارتوريوس :

ـــ حالاً . حالاً . كيف تفهم ذلك ؟

لم يقل سناوت أية كلمة . كانت أنفاسه المسموعة من خلال السماعة وحدها تشاركنا محادثتنا . نظرت هاري إليّ . أدركت أنني نطقت كلماتي الأخيرة بكثير من التوتر . وعندما عدت لحالتي الطبيعية تقوقعت على الكرسي وأغمضت عيني . كيف أشرح لهم بشكل أوضح ؟

ـــ إن الذرات تشكل العنصرالنهائي في تركيب أجسادنا . أفترض أن الكائنات /ف/ مركبة من جزيئات أدق من الذرات العادية . أصغر بكثير . وسأل سارتوريوس دون أن يدهش :

ـــ من الميزونات مثلاً ؟

ـــ كلا ليس من الميزونات ... كان بالامكان اكتشافها فاستطاعة الأجهزة عندي هنا في الأسفل تصل حتى عشرة أس ناقص عشرين أنغستروم* هلّ هذا صحيح ؟ ومع ذلك لا يلاحظ شيئاً حتى في أقصى درجات التكبير . هذا يعني ليست ميزونات ربما نترونات .

ـــ كيف تتصور ذلك ؟ من المعلوم أن النظام النتروني غير مستقر ....

ـــ لا أعرف لست فيزيائياً . من الممكن أن يمنحهم الاستقرار مجال قوى آخر . أنا لا أفهم شيئاً في هذا المجال . على كل حال إن كانوا مركبين مما أفترضته فهذا يعني أن بناءهم يتألف من جزيئات أصغر بعشرة آلاف مرة على الأقل من الذرات . وهذا ليس كل شيء . إن كانت الجزيئات الزلالية والخلايا مصنعة مباشرة من هذه « الميكروذرات » فيجب أن تكون أصغر حجماً بطبيعة الحال . كذلك يجب أن تكون الكريات الدموية ، لكن شيئاً من هذا لايلاحظ . انطلاقاً من ذلك يمكن أن نستنتج أن كنه البنية الحقيقية المسؤولة عن أداء وظائف « الزائر » يغوص في الأعماق السحيقة الصعبة الإدراك .

خرج صوت « سناوت » شبيهاً بالصراخ :

ـــ كيلفن !

توقفت مرتعباً . قلت كلمة « زائر » ؟ نعم . لم تسمع هاري ذلك . حتى لو سمعت ذلك فلن تفهم شيئاً . كانت تسند رأسها على يديها وتنظر من خلال النافذة . كان جانب وجهها الرقيق النظيف يرتسم على خلفية الشفق الأرجواني . خرست السماعة صرت أسمع أنفاساً قادمة من بعيد .

دمدم « سناوت » : حديثك فيه شيء من الصحة .

ـــ نعم . ممكن ـــ أضاف سارتوريوس ـــ لكن هناك شيء يخالف ذلك .

---

* أنغستروم : أسم لعالم سويدي (١٨١٤ ـــ ١٨٧٤) وهي وحدة قياس تعادل جزءاً من عشرة مليارات من المتر . ويرمز لها (A^o) . تستخدم في العدسات لقياس الأمواج الضوئية ، كذلك تستخدم في الفيزياء النووية .

فالمحيط لايتألف من جزيئات كيلفن المفترضة . يتألف من جزيئات عادية .
وعلقت على كلامه :
ــ لكنه قادر على تشكيلها .

شعرت بخمول مفاجىء . لم يكن هذا الحديث في مكانه بل لم يكن ضرورياً .

تمتم « سناوت » : هذا يفسر مقاومتهم اللاعتيادية . وقدرتهم على إعادة توالدهم . ربما كان مصدر الطاقة يقبع هناك . في العمق . إنهم لايحتاجون للطعام ....

ــ اسمحوا لي بكلمة . صاح سارتوريوس .

إنه لايطاق ! خاصة أنه لم يتخلص من دوره الذي يتظاهر به .

ــ أريد الحديث عن الحيثيات . عن الأسباب . عن أسباب ظهور الكائنات /ف/ . اسأل نفسي من أي شيء تظهر الكائنات /ف/ ؟

هم ليسوا بشراً ، ليسوا نسخاً لانسان محدد ، بل إظهار مادي لما يحتويه دماغنا نسبياً عن انسان محدد .

أدهشتني دقة تعريفه . هذا السارتوريوس . ليس غبياً بغض النظر عن عدم ارتياحي له .

ــ هذا صحيح ــ قلت لهما ــ وهذا ما يفسر ظهور كائنات محددة ... وليس آخرين.لقد وقع الاختيار على أشد الآثار قوة في الذاكرة ، تلك المعزولة عن البقية ، رغم عدم امكانية فصلها كلياً عن البقية . وأثناء صناعة النسخة يمكن أن تتداخل في تركيبها بقايا آثار أخرى ، تواجدت صدفة قربها . لهذا يظهر القادم معرفة أكثر من تلك التي كانت تملكها ، وباعادة التكوين ....

ــ كيلفن ! صرخ سناوت من جديد .

أدهشني أنه كان يتعقب عدم حذري من بعض الكلمات . يبدو أن سارتوريوس لايخافها ، هل يعني ذلك أن ضيف سارتوريوس أقل وعياً من ضيف سناوت ؟ خلال لحظة تصورت قزماً أبلهاً يعيش قرب الدكتور العالم « سارتوريوس » .

ــ نعم ، نعم لاحظنا ذلك ــ قال في هذه اللحظة ــ والآن فيما يتعلق بظهور الكائنات ... لقد ولدت فكرة إقامة التجربة علينا بالذات . ربما كانت في غاية البشاعة.عندما نجري أبحاثاً فإننا ندرس النتائج ونتعلم من الأخطاء قبل كل شيء . ولهذا الشكل نكرر البحث بعد إجراء بعض التصليحات عليه . هذا أمر لايحتاج للمناقشة . أما هذه الكائنات فتظهر في كل مرة دون أن تتم عليها أية تصليحات ، تأتي دون أن تزود بأسلحة إضافية ضد ... محاولاتنا للتخلص منها ...

وعلقت قائلاً : باختصار لاتوجد حركة وظيفية في العلامة المصححة العائدة كما حدد الدكتور « سناوت » . ماذا نستنتج من ذلك ؟

ــ فيما يتعلق بالتجربة فهذا يعني خللاً لا مثيل له في أية علاقة كانت . المحيط .. دقيق جداً . وهذا ما يظهر من طبقتي تصميم الكائن /ف/ لدرجة أنهم يتصرفون كما لو كانوا حقيقة .... ويفعلون ...

لم يتخلص من حرجه .

ــ كما يفعل الأصليون . أكمل سناوت جملة سارتوريوس .

ــ نعم الأصليون . وفي حال تأزم الوضع بما لايتناسب مع ... هذا ... الأصلي الوسط . يتدخل شيء يشبه « تشغيل الوعي » للكائن /ف/ وعندئذ يبدأ القيام بأفعال مختلفة عن طبيعة الانسان .

ــ هذا صحيح ، لكننا لانقوم الآن إلا بوصف السلوك المختلف لهذه .... لهذه الكائنات . ليس أكثر من ذلك . وهذا لن يجدينا نفعاً .

ــ لست واثقاً من ذلك . دمدم سارتوريوس .

أدركت فجأة سبب عدم ارتياحي له . لم يكن يتحدث بل كان يخطب كما كان يفعل في مناقشات المعهد . ربما لايستطيع القيام بذلك بنحو آخر .
ــ هنا تدخل في اللعبة مسألة الفردية ، وليس لدى المحيط أي تصور عن هذا المفهوم . هذا ما يجب أن يكون ، يتراءى لي ، وأرجو المعذرة يا زملاء .
انه بالنسبة لنا ، هذا هو الجانب المزعج في التجربة الذي يفلت منه كلياً ، لأنه يقع خارج حدود ادراكه .
وسألته : ألا تعتقد أن هذا عمل مقصود ؟
أذهلتني هذه الفكرة . وبعدما فكرت فيها قليلاً ، اعترفت إنه لمن المستحيل استثناؤها .
ــ نعم . شخصياً لا أومن بوجود أي عذر أو شماته أو رغبة بتجريحنا بشكل حساس كما يفعل الزميل « سناوت » .
ــ أنا لا أنسب إليه أية أحاسيس إنسانية أو مشاعر ــ لأول مرة أخذ « سناوت » دفة الحديث ــ لكن هل يمكنك أن تفسر سبب تلك العودة الدائمة ؟
ــ من الجائز أن هناك آلة مرتبطة تعيد صنع المجموعة نفسها كاملة مثل اسطوانة . قلت ذلك برغبة واضحة لازعاج سارتوريوس .

وخرج صوت الدكتور الحزين :

ــ أرجوكم الابتعاد عن المهاترة يا زملاء . لم أخبركم بعد بكل شيء ، أعتقد أن اخباركم مسبقاً عن حالة تجاربي مازال عملاً مبكراً ، لكن نظراً لأهمية الحالة الخاصة أقوم بذلك كاستثناء . لدي انطباع أن الحقيقة تكمن في فرضية الدكتور كيلفن . أقصد فرضية التصميم النتروني ... اننا لانعرف مثل هذه

الأنظمة إلا نظرياً . و لم نفترض عدم إمكانية استقرارها . هنا تنبعث فرصة محددة وهي القيام بتدمير مجال القوى الذي يمنح هذا النظام الاستقرار ...

لاحظت أن الستارة التي تغطي شاشة سارتوريوس بدأت تتحرك . تكون شق في أعلى الشاشة ظهر من خلاله شيء متحرك زهري اللون . وفجأة سقط الغطاء الأسود عن الشاشة .

ارتفع صوت سارتوريوس في السماعة :

ـــ ابتعد ! ابتعد

ولمع بين يدي الدكتور سارتوريوس المتصارعة شيء كبير ذهبي يشبه القرص . انطفأت الأجهزة قبل أن أدرك أن ذلك القرص الذهبي لم يكن سوى قبعة قش ....

ـــ سناوت ؟ خاطبته بعد أن استنشقت الهواء .

ـــ نعم كيلفن . أجابني صوت السيبيرنيتيك المتعب .

في هذه اللحظة أدركت أنني أحبه ، ولم أعد راغباً بالتعرف إلى ضيفه .

ـــ يكفينا لهذا اليوم ؟

ـــ اعتقد ذلك ـــ أجبته ـــ اسمع . تعال إلي . إلى حجرتي إن استطعت . حسناً ؟ أضفت مسرعاً قبل أن يضع السماعة .

ـــ اتفقنا ـــ قال سناوت ـــ لكنني لا أعرف متى .

عند هذا انتهت محادثتنا .

الغولة

أيقظني ضوء في منتصف الليل . نهضت متكئاً على مرفقي ، ووضعت يدي على عيني . كانت هاري جالسة قرب قوائم السرير ترجف تحت غطائها الأبيض منكمشة على بعضها وقد غطى شعرها الفاحم وجهها وتبكي من دون صوت .

ـــ هاري .

تقلصت أكثر .

ـــ هاري ... ما بك ؟

جلست على الفراش . لم أصح بعد تماماً . كنت أتخلص من كابوس شاهدته منذ قليل . دفعتني بمرفقها .

ـــ حبيبتي .

ـــ لا تتكلم بهذه الطريقة .

ـــ ما الذي حدث يا هاري ؟

كان وجهها مبتلاً من الدموع . كانت قطرات دمعها الشبيهة بدموع الأطفال تسيل على خديها وتلمع في حفرة ذقنها و من ثم تنسكب على الفراش .

ـــ أنت لا تحبني !؟

ـــ من أين جئتني بهذه الفكرة ؟

ـــ سمعت .

شعرت ببرد يلفح وجهي .

ـــ ما الذي سمعت ؟ لم تفهمي . كان ذلك مجرد ...

ـــ كلا . لا . قلت . لقد قلت أنني لست أنا . لأذهب . أذهب . كنت ذهبت ، لكني لا أستطيع . لا أعرف كيف ! . أريد ولا أقدر . أنا هكذا ... دنيئة !

ـــ طفلة !!!

ـــ جررتها نحوي . ضغطت عليها بكل قواي . قبلت يديها وأصابعها المالحة المبتلة بالعرق ، وأعدت تكرار بعض العهود والأقسام وطلبت منها السماح ، وقلت لها أن ذلك مجرد حلم مقزز وغبي . هدأت هاري قليلاً وكفت عن البكاء والتفتت إليّ .

ـــ كلا ، لا تقل ذلك ، لا داع ، أنت لي لكن ليس بهذا الشكل ...

ـــ أنا لست ...

خرجت الكلمات مني كنحيب .

ـــ نعم . أنت لا تحبني . دائماً أشعر بذلك وأتظاهر أنني لا ألاحظ . ظننت أن ذلك مجرد تخيل ... لا إنك ترى نفسك بشكل آخر . أنت لا تعاملني بشكل جدي . كان حلماً ، وكنت أنا من شاهدتَه في حلمك . دعوتني باسمي . أنت تقرف مني . لماذا ؟ لماذا ؟

هويت على أقدامها واحتضنتها .

ـــ يا طفلة ...

ـــ لا . لا أريد سماع هذه الكلمات ، كلا لا أريد . هل تسمع ؟ لست بطفلة . أنا ...

انفجرت باكية وغطت وجهها بملاءة السرير . نهضت واقفاً . سمعت حفيف الهواء البارد الذي يدخل من فتحات التهوية . بدأت أتوجس . ارتديت ثوب النوم وجلست على طرف السرير . لامست بيدي كتفها .

ـــ هاري ! اصغ إلي يا هاري . سأقول لك شيئاً . سأقول الحقيقة ... نهضت

ببطء على ساعديها وجلست . لاحظت نبض وريدها تحت جلد عنقها الرقيق . تجلد وجهي من جديد . شعرت كأنني داخل براد . رأسي فارغ تماماً .

ــ الحقيقة ؟ كررت كلمتي بصيغة السؤال .

لم أجبها في الحال وشعرت باختناق في حنجرتي . لقد تعاهدنا على ذلك . لم يكن أحدنا يتجرأ على الكذب عندما ينطق أحدنا بكلمة الحقيقة . آنذاك كنا نتعذب من الطهارة الفائقة معتقدين بسذاجة أن ذلك سينقذنا . قلت جاداً :

ــ كلمة شرف . هاري ...

بقيت تنتظر .

ــ أنت تغيرت أيضاً . نحن جميعاً نتغير . أنا ... ليس هذا ما أردت قوله . الواقع ... يبدو أن السبب الذي نجهله سوياً ... هو نفسه الذي يمنعك من هجري . هذا شيء جميل لأنني لا أستطيع ، أنا أيضاً ...

ــ كريس !

حملت هاري وهي ملتحفة بملاءة السرير وبدأت أداعبها جيئة وذهاباً داخل الحجرة . نظرت في وجهي ... وقالت :

ــ كلا . أنت لم تتبدل أنا التي تبدلت . ما الذي يحدث معي ؟ أيمكن ذلك ؟

نظرت إلى الشكل المثلثي الأسود الذي شكل فراغاً في الباب المحطم والذي نقلت البارحة مساءاً قطعه إلى المستودع . « علي أن أبدل الباب » . فكرت بذلك وأجلست هاري على السرير .

وسألتها وأنا أقف قرب السرير ويداي مسبلتين :

ــ هل تنامين في أي وقت من الأوقات؟

ــ لا أعرف .

ــ كيف لا تعرفين ؟ فكري بالأمر يا عزيزتي .

ــ أعتقد أنني لا أنام نوماً حقيقياً . ربما كنت مريضة . كل ما أفعله هو أن

أتمدد بهذا الشكل وأفكر . وهذا ...

ارتعشت من جديد .

ـــ ما بك ؟ سألتها بهمس وشعرت بانقطاع حبالي الصوتية .

ـــ أفكار غريبة . لا أعرف من أين تأتيني هذه الأفكار .

« عليَّ أن أكون هادئاً حتى أسمعها » فكرت بذلك وتهيأت لسماع كلماتها كمن يتهيأ لتلقي ضربة قوية وسألتها :

ـــ هل تأتيني بمثال ؟

هزت رأسها بتراخ . ـــ هذا يشبه ... مثل ... حول ...

ـــ لا أفهم ...

ـــ كأن الأفكار ... أبعد من ذلك بكثير . ليست من داخلي ... كأنها ... لا أستطيع التعبير ، لا أجد الكلمات المناسبة ...

ـــ ربما تحلمين ـــ رميت بهذه الكلمات وتنفست الصعداء ... والآن أطفئي النور . لن يكون لدينا منغصات حتى الصباح . صباحاً سنهتم بالجديد منها إن شئنا . موافقة ؟

امتدت يدها نحو مفتاح الكهرباء ، وخيم الظلام في الحجرة . تمددت داخل الفراش البارد ، شعرت باقتراب أنفاسها الحارة . أخذتها في صدري .

ـــ أقوى ـــ همست . ثم أضافت بعد صمت طويل :

ـــ كريس !

ـــ ماذا !

ـــ أحبك .

أردت أن أصرخ .

صباح أحمر ، وقرص الشمس الهائل يقف في أسفل الأفق . وجدت رسالة ملقية على عتبة الغرفة . مزقت الظرف . هاري تستحم وأنا أسمع غناءها . بين

الفينة والأخرى كانت تنظر من هناك وقد التصق شعرها المبتل على جسدها . اقتربت من النافذة وقرأت : « كيلفن . لقد بدأنا . أخذ سارتوريوس الطاقة الفعالة على عاتقه . يعتقد أنه قادر على إلغاء استقرار النظام النيتروني . إنه بحاجة لكمية ضئيلة من البلازما كمادة أولية لإجراء التجارب . يقترح أن تخرج في جولة استكشافية لتجلب شيئاً من البلازما في الحاوية . افعل ما تراه مناسباً ، فقط أخبرني عن قرارك ، ليس لدي رأي في هذا الخصوص . أعتقد أن رأسي فارغ من أية أفكار على الإطلاق . أريد منك أن تفعل ذلك لسبب واحد . سيعد ذلك خطوة نحو الأمام . مع أنها ليست خطوة صائبة ، وإلا لن يبقى لنا سوى أن نحسد غيباريان . »

هوريك (سناوت)

ملاحظة : أرجوك أن لا تأتي إلى محطة الإرسال . افعل ذلك من أجلي ؟ « الأفضل أن تتصل بي » .

شعرت بانقباض في قلبي عندما قرأت الرسالة . أعدت قراءتها مرة ثانية . ثم مزقتها ورميت قصاصاتها في البالوعة . بدأت أبحث عن لباس لهاري . شعرت بالخوف . هل سيحدث كما فعلت معها في المرة الأولى . لكنها لم تعرف شيئاً ، وإلا لما فرحت عندما أخبرتها أنني سأخرج إلى الفضاء في رحلة استكشافية ، وطلبت منها أن ترافقني . تناولنا إفطارنا في المطعم الصغير (مع ملاحظة أن هاري بلعت الأكل بصعوبة كبيرة كما في السابق) ثم ذهبنا إلى المكتبة . أردت إلقاء نظرة على بعض الدراسات المتعلقة بمسائل المجالات والأنظمة النيترونية ، قبل أن أنفذ طلب سارتوريوس . وقررت في داخلي أن أراقب عمله عن كثب

دون أن أحدد كيف سأقوم بذلك . حطرت في ذهني فكرة مفادها : أن هذا المدمر النيتروني غير الموجود حالياً يمكنه أن يحرر سناوت وسارتوريوس . وآنذاك سأنتظر مع هاري مدة « تنفيذ العملية » في مكان ما في الخارج . في الصاروخ مثلاً . عملت بعض الوقت بالدليل الالكتروني الكبير . طرحت عليه أسئلة أجاب عليها إجابات مختصرة على قصاصات من الورق « لا توجد معلومات في الأرشيف » . أو كان يقترح علي الغوص في أعماق أعمال فيزيائية مختصة لا أعرف من أي جانب أقترب منها . لسبب مجهول لم أرغب بمغادرة هذا المكان الدائري الكبير ذي الجدران الملساء المليئة بالخزائن التي تكدس عليها عدد لا يحصى من الأفلام الدقيقة والكتابات الالكترونية .

تقع المكتبة في منتصف المحطة . لا نوافذ لها . إنها النقطة الأكثر عزلة داخل المحطة الفولاذية . من يعلم ؟ . ربما شعرت بالراحة فيها لهذا السبب . بغض النظر عن فشلي الذريع في أبحاثي . تمشيت في هذه القاعة الضخمة حتى وقفت أمام خزانة كبيرة مليئة بالكتب يلامس طرفها العلوي سقف القاعة . كانت مجموعة الكتب الكبيرة هذه مشكوك في قيمتها العلمية . احتفظوا بها كتعبير عن واجب الاحترام نحو ذكرى الباحثين السولاريسيين الأوائل . احتوت المكتبة على أكثر من ستمائة مؤلف كلاسيكي تبدأ من ملاحظات وأبحاث غيزيه التي شاخت وفقدت أهميتها . سحبت كتاباً شعرت بثقله فوراً وجلست على أريكة اتصفحه . وجدت هاري لنفسها كتاباً أيضاً . استطعت قراءة بعض الأسطر من كتابها من خلف كتفها . كان كتاباً نادراً يعود تاريخه إلى رحلة الاستكشاف الأولى . ويعد كملكية شخصية لغيزيه نفسه واسمه « الطبخ الكوكبي » . راقبت هاري وهي تقرأ بانتباه طريقة إعداد المأكولات الملائمة لظروف رواد الفضاء القاسية ، دون أن أتفوه بكلمة . ومن ثم عدت إلى كتابي المستقر على ركبتي . « عشرة أعوام من دراسة سولاريس » . لمؤلفه غيزيه . لقد نشر هذا

العمل في سلسلة « سولاريسيين » . ولأجزائه من الجزء الرابع وحتى الثاني عشر أهمية خاصة .

لم يكن غيزيه يمتلك خيالاً واسعاً . مع ملاحظة أن هذه الخاصية لا يمكنها إلا أن تسيىء إلى بحاثة سولاريس » لأنني أعتقد أن الخيال والقدرة السريعة على تكوين الفرضيات لا يشكل خطورة في أي مكان .

أخيراً ، أعتقد أن كل شيء يمكن حدوثه على هذا الكوكب . إن وصف الأشكال المتكونة من البلازما لا نظير له ودقيق بشكل مطلق . مع أنه لا يتعرض للتدقيق بسبب عدم تكرار المحيط لعمليات ارتقائه ونشوئه إلا في حالات نادرة . إن ما يدهش مراقبها أول مرة ، هو مقاساتها الضخمة وألغازها المحيرة . ولو أن هذه العمليات ظهرت في مكان آخر وبقياسات أصغر لاعتبروها « نتاجات للطبيعة » أو أحداثاً تجري صدفة كلعبة القوى العمياء . إن العلماء من الدرجة الوسط و العلماء الكبار يعتبرون ضعفاء أمام تشكيلات سولاريس المختلفة واللامنقطعة ، والتي لا تسهل بدورها عملية الاتصال بهذا المحيط الحي والشاذ . لم يكن غيزيه من هذا الصنف أو ذاك من العلماء . كان مجرد مُصَنِّف متحذلق من نوعية أولئك الرجال الذين يخفون وراء هدوئهم الخارجي اندفاعاً للعمل لا حدود له يطغى على كافة أمور حياتهم . ظل غيزيه يستخدم اللغة الأدبية طالما استطاع أن يسخرها لوصف تلك الظواهر . وعندما امتنعت هذه اللغة عن الانصياع لأفكاره بدأ يستخدم كلمات جديدة كثيرة لا تتناسب كثيراً في وصف تلك الظواهر التي تحدث عنها، مع ملاحظة هامة ، هي أنه لا يوجد أي اصطلاح علمي يمكنه تكوين تصور دقيق عما يحدث على سطح سولاريس . وتبدو اصطلاحات غيزيه مثل:« الأشجار الجبلية » ، « المتطاولات » ، « الأحدب » ، « العمود الفقري » ، « المتسارعات » ، « المتماثلات » ، و

« المقلدات » ، و « اللامتماثلات » ركيكة لدرجة فظيعة . بيد أنها تشكل تصوراً عن سولاريس حتى لأولئك الذين لم يشاهدوا سوى صور باهتة وأفلام ناقصة عن الكوكب . لا شك أن هذا المصنف الأخلاقي قد ارتكب إثماً كبيراً بحق الكثيرين بسبب متاهاته هذه . من المعلوم أن أي إنسان ، ومهما كان شديد الحذر ، فإنه يبدع فرضيات حول أي موضوع حتى لو لم يكن يعرف عنه شيئاً .

لذلك اعتقد غيزيه أن « المتطاولات » تشكل الظاهرة الأساسية ، وقارنها بضخامة وتدفق وهول أمواج البحار الأرضية . إن كل من يتمعن جيداً في الجزء الأول من مؤلفاته يلاحظ أنه كان يدعوها في بادىء الأمر « بالمتدفقات » . أصيب هذا المُنَظِّر المؤمن بمركزية الأرض بالعجز ، ولولا ذلك لاختلطت عليه كافة الأمور .

إذا مابحثنا على سطح الأرض عن نظائر لوصف هذه التشكيلات ، فإنها تفوق بمقاييسها وادي كولورادو الكبير ★ . وهي على شكل كتل تعلوها طبقة من رغوة هلامية كثيفة (مع العلم أن هذه الرغوة تتجمد في قطع مسننة هائلة سريعة الانكسار ، وإلى تخريمات ذات خلايا ضخمة ء حتى اعتقد بعض العلماء أنها تشكل « الهيكل العظمي المتنامي » .

تقع المادة الرئيسية تحت القشرة مباشرة ، وهي أكثر مطاطية ، وتبدو كعضلة متوترة . ومع ذلك مثل عضلة . تتصلب هذه العضلة على عمق عشرات الأمتار لتصبح صلبة كالصخر مع محافظتها على ليونتها . أما « المتطاولات » فتمتد على طول كيلومترات عديدة من بين الأغشية المشدودة على التضاريس الغريبة الأشكال والتي تتعلق بها الهياكل العظمية . تبدو المتطاولات كأشياء مستقلة . تشبه بشكلها الخارجي كتلاً اسمنتية جبارة ابتلعت جبالاً بأكملها . وهي تقوم

★ اسم واد يقع في الولايات المتحدة الامريكية (المترجم)

الآن بعملية الهضم . وتنبه أعضاء جسدها المشدود الشبيه بسمكة بواسطة حركات بطيئة متذبذبة . هكذا يبدو شكلها الخارجي من على متن أجهزة الطيران .

في حال اقترابك منها ، أي عندما تصبح « ضفتي الوادي » على ارتفاع مئات الأمتار ستبدو الكتل الاسمنتية كأنها تمتد إلى أفق الفضاء في حركة دورانية تسبب الغثيان . وتدرك تدريجياً أنك تقع فوق مركز القوى الفعالة ، تلك القوى الداعمة لمنحدرات السائل الكريستالي المتصاعدة إلى السماء رويداً رويداً . غير أن ما يسد حاجة الرؤية لايكفي حاجة العلم .

مرت أعوام كثيرة سادت فيها مناقشات عديمة الجدوى ، لمعرفة ما يجري في نوى « المتطاولات » ، تلك الملايين التي تغضنها الرحاب اللامتناهية للمحيط . ساد اعتقاد أن هذه « المتطاولات » ما هي إلا أعضاء المحيط تجري فيها عملية تبادل المواد مثل عمليات التنفس ونقل المواد الغذائية وأشياء أخرى لا يعرفها إلا المنهمكين في قراءة كتب المكتبات .

انهارت الفرضيات الواحدة وراء الأخرى بفضل آلاف الأبحاث الدقيقة والمغامرة أحياناً . هذا فيما يخص « المتطاولات » فقط . مع أن أشكالها بسيطة ومستقرة للغاية . (كانت تستمر في أشكالها عدة أسابيع أحياناً . وهذا يشكل ظاهرة استثنائية للغاية) .

أما الشكل الغامض والمذهل الذي كون امتعاضاً حاداً لمن راقبه فكانت « المقلدات » ويمكن القول أن غيزيه ولع بها ونذر نفسه لدراستها ووصف وشرح جوهرها .

في تسميته هذه ، حاول غيزيه أن يعكس أهم ميزة فيها تثير الإنسان . هذه الخصوصية التي تظهر في سعيها الدائم لتكرار تكوين الأشكال المحيطة بها بغض

النظر عن قربها أو بعدها عنها .

في أحد الأيام الرائعة ظهرت تحت سطح المحيط دائرة عريضة ملساء بنهايات ممزقة قاتمة اللون كأنها طليت بالقار . بعد مرور عدة ساعات من الزمن . بدأت الدائرة تنقسم إلى مقاطع . تتجزأ بدورها إلى أجزاء أخرى وهي تصعد في نفس الوقت إلى سطح المحيط . يستطيع كل من يرى هذه الظاهرة أن يقسم أن ما يراه ما هو إلا صراع حاد و قوي ، لأن فوهات البراكين الممتدة الشبيهة بشفاه معوجة ، كانت تسرع إلينا ، مع عدد لا يحصى من الأمواج الدائرية التي تتكدس فوق عمق الطين الأسود المتأرجح والمتمدد ، لتنتصب واقفة ، ومن ثم تنهار من جديد إلى الأسفل . وكل انهيار يعادل مئات آلاف الأطنان من البلازما يرافقه لثوان عديدة رعد لزج . أريد القول رعد شبيه بحركة المضغ . وكل ذلك يجري ضمن مقاييس هائلة . بدأت هذه الغولة الفاتنة تتراجع إلى الأعماق . كانت كل ضربة من هذه الضربات المتتالية تميّعُها وتحيلها إلى ندف متجزئة متعلقة كأنها أجنحة مبتلة . وتبتعد العناقيد المستطيلة لتنزرع في عقود طويلة تنصهر مع بعضها لتعوم نحو السطح جارَّةً معها قرص الأم المحطم الذي يبدو وكأنه يتعلق بها . في الوقت نفسه تتابع الأمواج الدائرية انهيارها بدون كلل من الأعلى لتغطس في الأعماق أكثر وأكثر .

كانت هذه اللعبة تستمر أحياناً ليوم وأحياناً أقل .

أطلق الطبيب غيزيه اسم « المقلدين الخدج » على هذه الحالة . وكأنه يملك معلومات دقيقة عن الهدف النهائي لكل جائحة من هذه الجوائح . ألا وهو ولادة « مقلد كامل » ـــ بمعنى تكوين مستعمرة بوليبية ★ لمتناميات بيضاء (عادة

★ بوليب . من الكلمة الاغريقية (رجل PUS عديد POLY)أي متعدد الأرجل . وتعني شكل حيوان مجتر في حالة الحلوس . وفي معناها الطبي ، هي عبارة عن نموات شاذة على شكل حرائيم أو فيروسات تنمو على قشرة ملساء مثل الأنف ، الرحم . (المترجم)

يكون حجمها أكبر من مدينة أرضية) ـــ بهدف محاكاة الأشكال المحيطة بها . وهنا من الطبيعي جداً أن يظهر اختصاصي سولاريسي جديد . إنه إيفينس الذي أقر بالطور الأخير لهذا الانتكاس والتحول والانطفاء ، لكن بأشكال مختلفة ، يبدو أن ظهورها مرتبط بمدى تفرع أجزائها وتحررها من السلطة « الأمومية » . لكن غيزيه الذي كان حذراً مثل نملة تزحف فوق شلال متجمد في وصفه للتشكيلات السولاريسية الأخرى ، كان واثقاً من نفسه في وصف هؤلاء المقلدين . حتى أنه وضع أنظمة لبعض مراحل تكوين المقلد وذلك حسب درجة نموه وتكامله .

يبدو للمراقب من علو . أن المقلد يشبه المدينة . وهذا خطأ ناتج من البحث عن مثيل له في الظواهر المعروفة . إذ تحاط كافة الأماليد مع قممها ـــ عندما تكون السماء صافية ـــ بطبقة من الهواء الحار . مما يسبب في تكوين ذبذبة وهمية ، وإلى تبدل في الأشكال التي يصعب تحديد ملامحها بطبيعة الحال .

يبدأ التفاعل عند مرور أول سحابة . تنفصل الطبقات وتندفع إلى الأعلى قشرة متطاولة شبيهة بالقرنبيط تكاد تنفصل كلياً عن أساسها . سرعان ما يشحب لونها . وبعد دقائق معدودة تقلد شكل السحابة المارة بدقة متناهية . ويلقي هذا التشكيل ظلالاً حمراء وتتبدل قمم المقلد من لحظة لأخرى ، مع ملاحظة أن حركة الغيمة المقلدة تكون دائماً في الاتجاه المعاكس لحركة الغيمة الحقيقية . أظن أن غيزيه يتبرع بيده مقابل أن يعرف سبب حدوث ذلك .

هذه الأعمال « الفردية » ليست ذات شأن قياساً بالنشاط العفوي للمقلد « المثار » من ظهور المواد والتصاميم التي يجلبها القادمون إلى سطحه من الأرض . إنه يعيد تصميم كل ما يقع حوله ضمن إطار يتراوح قطره بين ١٢ ـــ ١٥ كيلو متر . في غالبية الأحيان يكوّن المقلد أشكالاً مكبرة . وأحياناً يشوهها صانعاً

أشكالاً كاريكاتورية . أو يبالغ في تبسيطها وخاصة أثناء تقليد الآليات . طبعاً ، يستخدم المقلد لصناعة هذه الأشياء نفس الكتلة التي فجرها المحيط ، التي سرعان ما تصبح بيضاء اللون .

تتعلق هذه الكتلة في الهواء بدلاً من أن تسقط . وتلتحم حبالها السرية المتقطعة مع القاعدة التي تسير عليها ببطء وفي نفس الوقت تتشنج ليكبر حجمها . أو تنفجر لتكوّن برشاقة تصاميم معقدة . وبنفس السرعة تلك تتكون العارضة أو الدقل .

تجدر الإشارة إلى أن المقلد لا يعير اهتمامه للناس ، والادق ، لا يعير اهتمامه للكائنات الحية مثل النباتات التي أحضرها العلماء الدؤوبون إلى سولاريس بهدف إجراء التجارب عليها ، لكنه يقلد بسرعة ، المونيكان * والدمية ، والكلب البلاستيكي ، أو الشجرة البلاستيكية . إنه يقلد كل شيء مصنوع من أية مادة كانت .

يجب الأخذ بعين الاعتبار أنه نادراً ما يخضع المقلد لأمنيات الخبراء على سطح سولاريس . فهو يغيب ويظهر من وقت لآخر . أما المقلد الناضج فله « أيام عطلة » إن صح التعبير . لا يقوم أثناءها بأي فعل سوى أن ينبض ببطء . مع أخذ العلم أن نبضه لا يلاحظ بالعين المجردة . لأن إيقاع مرحلة واحدة من نبضاته يستغرق مدة ساعتين . لقد استخدمت أساليب تصوير سينمائية خاصة للتأكد من صحة هذه الظاهرة .

في مرحلة السكون هذه تسهل عملية دراسة المقلد الشيخ ، لأنه يكون مغموراً في المحيط مستنداً على القرص . وتعلو فوقه الأشكال التي تقدم دعامة متينة للأرجل .

* المونيكان : هي التماثيل البلاستيكية التي تلبس وتوضع في محلات الألبسة والأزياء .

طبعاً ، يمكن الوصول إلى نوى المقلد في أيام عمله . بيد أن درجة الرؤية في هذه الحالة تقترب من الصفر بسبب إطلاق أماليد الكتلة المختصة بالتقاليد لسوسبينزيونات * غراونية منفوشة شبيهة بالثلج . تصعب مراقبة هذه الأشكال من مسافات بعيدة لصغر أحجامها . فهي لا تزيد عن حجم الجبال الأرضية . إضافة لذلك يصبح الأساس « الفعال » في المقلد وحلياًمن الثلج اللزج الذي يتحول بعد ساعات الى قشرة قاسية أطرى بقليل من الخفان .

أخيراً ، من السهل أن يتوه الملاح من دون تجهيزات خاصة في متاهات الهياكل الضخمة التي توحي لنا بأشكال أعمدة مهشمة ، أو نوافير مياه حارة ، هذا ما يحدث أثناء سطوع نور الشمس ، ذلك النور الذي لايستطيع أن يتسرب عبر غيوم الكتلة التي تطلق في الفضاء « انفجارات كاذبة » طوال الوقت .

إن مراقبة المقلد في أيامه السعيدة (والأصح إن قلنا السعيدة للعلماء) يصبح مصدراً لتسجيل انطباعات لاتنسى ، في هذه الأثناء يعاني المقلد من « تحليقاته الابداعية » عندما تبدأ النتائج المضادة للطبيعة بالظهور . عندئذ يكوِّن المقلد أشكاله الخاصة الشبيهة بالأشكال المحيطة به . أحياناً يكوِّن أشكالاً في غاية التعقيد ، وأحياناً يقوم بعمله « كعمل روتيني » .وهكذا يمكنك أن تسخر ساعات طويلة من سعادة هذا الفنان التجريدي ، ومن الاحباط الذي يصيب العالم الذي يحاول عبثاً أن يدرك أي شيء مما يدور حوله .

أحياناً تظهر للمقلد أخطاء طفولية واضحة المعالم . ويقع أحياناً في انحرافات بارموترية ، إذ تبدو الأشياء التي صنعها منتفخة بشكل واضح مثل الفيل . ومن الجلي أن المقلدين العجز كثيراً ما يصنعون أشياء مثيرة للضحك الحقيقي .

---

* Suspensio : كلمة لاتينية تستخدم للتعبير عن نظام مشتت يتألف من قسمين،مواد سائلة ترتفع عليها مواد قاسية صلبة . (المترجم)

انكب العلماء في سنوات بحوثهم الأولى على دراسة المقلدين ، معتقدين أنهم يشكلون مراكز المحيط السولاريسي من أجل تجسيد أمنية اللقاء بين حضارتين . وسرعان ما تبين وهم هذا الحديث عن اللقاء ، لأن الأشياء كلها كانت تنتهي بزيف الأشكال كما تبدأ . لذلك لم يتوصلوا إلى معرفة أي شيء .

يوماً بعد يوم بدأ العلماء يتوجهون في أبحاثهم اليائسة إلى تقمص الآلهة في أشكال إنسانية أو حيوانية ، تلك الأشكال التي كانوا يشاهدونها في الإبداعات المختلفة للمحيط الحي ويرون فيها « أعضاء مفكرة » . أو « نهايات » . أما العلماء من أمثال مارتينس وإيكوناي فرأوا فيها « متسارعات » أو « أعمدة فقرية » مثل غيزيه . غير أن هذه الرؤية التي تعتبر هذا الشواظ الشمسي للمحيط الحي الذي ينطلق في الفضاء بارتفاع يصل إلى ثلاثة كيلومترات مجرد « نهايات » ، هي أشبه برؤية براكين الكرة الأرضية ، كألعاب جمبازية .

إن مُصَوَّر (أطلس) الأشكال المتوالدة من المحيط الحي تتكرر باستمرار على سطحه بحيث يمكنك خلال يوم واحد أن تتعرف على عشرات ، بل مئات الأشكال التي تحتاج لأكثر من ثلاثمائة تسمية على سببيل المثال .

أما الشيء اللاإنساني بتاتاً ، بمعنى عدم وجود شبيه له على الإطلاق مما رأته العين البشرية على الأرض فهي « المتماثلات » حسب مدرسة غيزيه . وأصبح واضحاً أن المحيط لا يخفي أية أفكار عدوانية ، ولا يقوم بأية أفعال من هذا القبيل . و لم يهلك في لجة البلازما إلا من أراد ذلك متقصداً ، (وهنا لا أتحدث عن الحوادث المؤسفة الناتجة عن تحطم جهاز التنفس أو المكيف) . حتى أنه يمكن اختراق الأنهار الأسطوانية « للمتطاولات » والجذوع الغريبة « للأعمدة الفقرية » التائهة بدون ثقة بين السحب ، وذلك بالمرور فيها على متن طائرة - أو أي جهاز طيران آخر - من دون أن يتعرض أحد لأي نوع من أنواع الخطر ،

إذ تقوم البلازما بإفراغ الطريق أمام الجسم الغريب بسرعة تساوي سرعة الصوت في فضاء كوكب سولاريس ، شاقة ـ إن أجبروها على ذلك ـ نفقاً عميقاً حتى على سطح المحيط . (مع أخذ العلم أن الطاقة المستخدمة لهذا الغرض هائلة جداً)

حافظ العلماء الذين درسوا المتماثلة بحذر شديد على أسس القواعد الأمنية أثناء عملهم في تقدمهم أو تراجعهم ، تلك القواعد الشكلية والمعروفة لدى أطفال الأرض . وقد نفذها أولئك العلماء الذين اخترقوا أعماق المتماثلة لأول مرة .

لا يمكن تفسير هذا الرعب الذي تولده تلك العملاقات من خلال شكلها الخارجي على الرغم من أن أشكالها تولد كوابيس مرعبة . على الأرجح يتولد الرعب من لا استمرارية الأشياء وعدم استقراريتها ، حتى أن عملية مخالفة القوانين الفيزيائية تتم في داخل هذه العملاقات . هذا ما دفع العلماء للاعتقاد بأن المحيط الحي ما هو إلا كائن عقلاني .

تظهر المتماثلة بغتة ، ويشبه تشكلها عملية انفجار . يبدأ المحيط باللمعان وكأن عشرات الكيلومترات المربعة من سطحه مغطاة بالزجاج مع ملاحظة هامة أن درجة لزوجته وإيقاع تموجه لا يتبدلان .

نادراً ما يحدث أن تتكون « المتماثلة » في مكان القمع الذي امتصته « المتسارعة » . بعد مضي بعض الوقت تصبح الغيوم زجاجية وتنطلق إلى أعلى على شكل فقاعات غريبة . تتشوه أحياناً ، تتحطم في أحيان أخرى ، وتنعكس فيها السماء بأكملها من شمس وغيوم وأفق .

لا مثيل للعبة الألوان هذه ، من انطفاء الضوء أحياناً ، أو انكساره في أحيان أخرى ، خاصة تلك المؤثرات الضوئية الحادة النابعة من « المتماثلة » التي تظهر

قبل غياب الشمس في الأيام الزرقاء . في هذه الأثناء يتولد انطباع أن الكوكب يلد في كل لحظة كوكباً آخر أكبر منه حجماً بمرتين . يخرج النموذج بصعوبة من الأعماق ويبدو براقاً من ألسنة النار . وعندما يصل إلى القمة يتصدع إلى قطاعات شاقولية . لا يعد هذا التصدع انهياراً ، إذ تمتد هذه المرحلة الجديدة التي أخذت تسمية لا تتناسب معها « مرحلة الكوكب الزهري »،تمتد إلى عدة ثوان . تبدأ هذه القناطر الصاعدة إلى السماء فوراً بتشكيل حبال قصيرة تجري في داخلها مئات العمليات .

بعد مضي بعض الوقت تبدأ « المتماثلة » بعرض أكثر خواصها إثارة ، إذ تبدأ بصنع نماذج ، و الأدق إن قلنا ، تبدأ بمخالفة قوانين الفيزياء . وتجدر الاشارة أنه لا توجد متماثلتان متشابهتان في وقت واحد ، لأن هندسة كل واحدة منهما ، تعتبر بمثابة اختراع جديد للمحيط .

بعد ذلك تبدأ المتماثلة بصنع ما يسمى عادة « بالآليات الفورية » في داخلها ، مع أن هذه التصاميم لا تشبه في أي من وجوهها الآلات التي ابتكرها الإنسان ، والحديث يدور هنا نسبياً عن الهدف الضيق للفعل الذي يبدو « ميكانيكياً » .

تشكل النوافير الصاعدة من الأعماق أروقة ثخينة ، أو دهاليز تتفرع في كافة الاتجاهات ، كما تشكل أغشية نظام الحبال المتقاطعة على السطح والمتعلقة بالقبب .

تثبت المتماثلات صحة تسميتها لأن تركيبة كل قطب من قطبيها تتناسب كلياً مع تركيبة القطب المقابل حتى في دقائق الأشياء .

بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة يبدأ هذا التشكيل الهائل الغوص في المحيط . أولاً يبدأ بانحناء محوره الشاقولي من ثمانية إلى إثنتي عشر درجة .

تختلف المتماثلات في أحجامها . منها الكبيرة ومنها الصغيرة ، ولكن حتى

المسخة منها ، تعلو فوق سطح المحيط أكثر من ثمانمائة متر بعد أن تغوص فيه ، ويمكن مشاهدتها من مسافة عشرات الكيلومترات .

تنعدم خطورة التحليق داخل المتماثلات بمجرد وصولها إلى حالة التوازن وذلك بعد أن يتوقف الهيكل عن الغوص ويعود إلى وضعه الشاقولي . وتبدو قمة المتماثلة أكثر إثارة للعلماء . إنها مثل قبعة قطبية ناعمة تحيط بالفضاء المخرم مثل شبكة نوافذ وأنفاق وحُجَرٍ داخلية . عموماً تبدو هذه المرحلة كنموذج لمعادلة صعبة ذات مجاهيل ثلاثة .

من المعلوم أنه يمكن التعبير بلغة الهندسة العالية عن أية معادلة كانت ، كما يمكن بناء جسم هندسي يكافؤها . من خلال هذا المفهوم يمكننا اعتبار المتماثلة قريبة من مخاريط لوباتشيفسكي * ، ومن منحنيات ريمان ** السلبية . إنها قريبة بعيدة بسبب تعقيدها الذي لا يوصف . على الأرجح تتكون المتماثلة من عدد كبير من الكيلومترات المكعبة كنموذج لنظام رياضي متكامل ، مع ملاحظة هامة أن هذا النموذج يعد بمثابة معادلة من أربعة مجاهيل ، لأن زوائد المعادلة تنعكس زمنياً أيضاً ، وذلك أثناء جريان التبدلات فيه .

طبعاً ، كانت أبسط فكرة لتفسير هذه الظاهرة ، هي النظر إليها « كآلة رياضية » للمحيط الحي تصفه بمقاييس تتناسب وعمليات الحسابات الضرورية له والمجهولة الأغراض بالنسبة لنا . والآن لم يعد أحد يؤيد نظرية فيرمونت هذه . ولم يكن هناك أي عجز في محاولاتها تكوين أي شيء قريب أو مرئي من نماذج

---

* لوباتشيفسكي . نيكيتا ايفانوفيتش لوباتشيفسكي (١٧٩٢ ــ ١٨٥٦) كان عميداً لجامعة قازان من عام ١٨٢٧ ــ ١٨٤٦ . نشر اكتشافه عامي ١٨٢٩ ــ ١٨٣٠ . لم يحظ اكتشافه باعتراف معاصريه . كان اكتشافه نسفاً للهندسة الاقليدسية التي سادت مدة ألفي عام . تسمى هندسته . بهندسة لوباتشيفسكي .م .

** بيرنهار ريمان . (١٨٢٦ ــ ١٨٦٦) عالم رياضيات ألماني شهير . م .

المتماثلات . وكل ذلك لم يثمر عن شيء .

المتماثلات فريدة من نوعها ، كما هي فريدة كافة العمليات التي تجري في داخلها . أحياناً يتوقف الهواء عن إصدار الأصوات . أحياناً تكبر أو تصغر عوامل الانكسار ، وتظهر تبدلات في إيقاعية التجاذب إقليمياً ، وكأن للمتماثلات قلب جاذبي ، ومن وقت لآخر كانت بوصلات العلماء تبدأ ذبذبة جنونية تظهر وتختفي معها طبقات الأيونات العالية ... يمكننا الحديث مطولاً عن هذه الظواهر مع ملاحظة هامة أنه في حال الكشف عن أسرار المتماثلات فستبقى اللامتماثلات ...

لقد قاست الرحلات الاستكشافية مئات الكيلومترات من أعماق المتماثلات . ونشروا أجهزة تسجيل وكاميرات سينمائية أتوماتيكية ، وسجلت العيون التلفزيونية للأقمار الاصطناعية عملية انبعاث ونمو واندثار المتشابهات والمتطاولات . وامتلأت المكتبات ورفوف الأرشيف بالمعلومات التي يصعب الحصول عليها من دون دفع مبالغ كبيرة أحياناً . وقتل سبعمائة وثمانية عشر إنساناً أثناء الجوائح التي لم يستطيعوا الخروج منها بعد أن حكمت العمالقة عليهم بالموت . مات من بينهم مائة وستة أشخاص في حادثة واحدة شهيرة ، لأن غيزيه نفسه مات فيها بعدما أصبح عجوزاً بعمر يناهز السبعين عاماً . كذلك هلك تسع وسبعون شخصاً في ألبستهم المدرعة مع آلاتهم وأجهزتهم وقد التهمهم انفجار طمي وحلي خلال ثوان قليلة ، كما أسقط هذا الانفجار برشاقته سبعاً وعشرين شخصاً متبقين كانوا يحلقون في طائراتهم العادية منها والمروحية فوق مكان الأبحاث . يقع مكان تلك الأبحاث على نقطة تقاطع الخط المتوازي الثاني والأربعين مع خط الزوال التاسع والثمانين ، وهي معلّمة على الخارطة « بمقبرة المائة والستة » . هذه النقطة موجودة على الخارطة لا يميزها أي شيء عن باقي نقاط المحيط .

لأول مرة في تاريخ أبحاث سولاريس ارتفعت أصوات آنذاك تطالب بتنفيذ الضربات النووية . هذا شيء أبشع من عملية انتقام ، لأن الحديث يجري عن تدمير شيء لا نفهمه . أثناء مناقشة هذا الاقتراح هدد تسانكين الذي عين صدفة رئيساً للمجموعة الاحتياطية لغيزيه ، بأنه سيفجر المحطة بنفسه ومن معه من المتبقين والبالغ عددهم ثمانية عشر شخصاً في حال الموافقة على قرار باستخدام الأسلحة النووية . لهذا الوقت لم يعلن رسمياً عن تأثير هذا الانذار بالانتحار على نتائج الاقتراع . يمكننا افتراض ذلك وحسب .

لقد مضى ذلك الزمن الذي كانت فيه أعداد كبيرة تشارك في الرحلات الاستكشافية المتوجهة إلى سولاريس . وكانت المحطة المصنوعة على شكل قرص قطره مائتي متر ، مع أربعة مقاسم في المركز واثنين في الجوانب عبارة عن تصميم هندسي بمقاييس يمكن للأرض أن تفخر بصناعتها لولا قدرة المحيط على بناء تصاميم تفوقها حجماً بملايين المرات وخلال ثوان قليلة . والآن ، تحوم هذه المحطة فوق المحيط على ارتفاع يتراوح بين ٥٠٠ ــ ١٥٠٠ م ، بسبب القوة الجاذبة الجارية في حركة تحول الطاقة . ومحطة سولاريس مزودة إضافة للأجهزة الاعتيادية التي تزود بها الأقمار الاصطناعية والمحطات المتجهة للكواكب الأخرى ــ مزودة بمحطات رادارية خاصة جاهزة لتشغيل استطاعة إضافية عند أصغر تبدل يطرأ على حالة سطح المحيط . ــ وعندما ظهرت أولى علائم ولادة غولة جديدة ارتفع القرص الفولاذي إلى الطبقة الطخروية .

لقد فرغت المحطة من الناس تماماً من ذلك الوقت الذي كفت فيه الأجهزة الاوتوماتيكية عن العمل لسبب لا أعرفه حتى هذا الوقت . سابقاً كان بإمكانك أن تتجول في المستودعات السفلية من دون أن تصادف شخصاً غريباً ، أما الآن فقد أصبح المرور فيها شبيهاً بمن يمر على مستودعات سفينة عائمة دون هدف

بعد أن تحطمت محركاتها وهلك طاقمها .

عندما أعدت الجزء التاسع من رسالة غيزيه العلمية إلى مكانه ، تراءى لي أن الفولاذ المغطى بطبقة سميكة من البلاستيك قد اهتز تحت أقدامي . تسمرت في مكاني . لم يتكرر الارتجاج . كانت المكتبة منعزلة عن جسم المحطة ولا يمكن لهذا الارتجاج أن يصيبها إلا نتيجة عملية إطلاق صاروخ . أعادتني هذه الفكرة إلى الواقع.لم أتخذ قراراً بعد حول تنفيذ أو عدم تنفيذ رغبة سارتوريوس . إن تظاهرت بالموافقة على خططه ، فكل ما سأفعله هو إطالة الأزمة في أحسن حال لا غير ، وكنت على ثقة أن الوضع سينتهي بالتصادم لأنني قررت بذل كل جهودي لانقاذ هاري . أصبح الأمر متعلقاً بمدى نجاح سارتوريوس . الفارق واضح تماماً بين قدراتنا ، لصالحه ـــ فهو فيزيائي ويدرك أبعاد المشكلة أفضل مني بعشر مرات . و لم يعد لي أمل إلا في المسائل الصعبة جداً التي طرحها المحيط أمامنا ، على الرغم أن الأمر يبدو متناقضاً . قضيت ساعة كاملة في استعراض الأفلام الدقيقة . محاولاً استنباط أي شيء منها أستطيع فهمه من ذلك البحر الجنوني من الرياضيات التي كانت تتحدث بلغة العمليات النترونية الفيزيائية . أصبت باليأس وخاصة أن الفرضيات المعقدة الشيطانية للمجالات النيترونية كانت خمسة كاملة ، وهي إشارة واضحة إلى عدم صحة أية واحدة منها . أخيراً وجدت شيئاً يشد من عزيمتي . سجلت بعض المعادلات . وفي هذه اللحظة سمعت قرعاً على الباب .

اقتربت بسرعة وفتحت الباب ووقفت في مدخله . ظهر سناوت أمامي بوجهه اللامع من العرق . الدهليز خلفه فارغ تماماً .

ـــ آه ، هذا أنت ـــ وفتحت ردفة الباب ـــ أدخل .

ـــ نعم ، هذا أنا .

كان صوته متحشرجاً وانتفخت عيناه . كان يرتدي سترة مطاطية لامعة مضادة للاشعاعات ، ذات حمالات . تحت السترة سرواله الملطخ بالبقع . تجولت عيناه في أرجاء القاعة الدائرية المضاءة أرجاؤها بإضاءة متساوية في التوزيع . توقفت عيناه عن التجوال حينما اصطدمتا بهاري الواقفة قرب الأريكة . تبادلنا نظرات سريعة . اسدلت جفناي . انحنى سناوت لها برشاقة . قلت بلغة المجاملة :

ـــ هذا هو الدكتور سناوت ، هذه زوجتي يا سناوت .

ـــ أنا ... عضو بسيط في الطاقم . لذلك ... ـــ فترة صمت . اقترب الخطر . ـــ لذلك لم تسنح لي الفرصة للتعرف إليك ...

ضحكت هاري ومدت له يدها . صافحها بخشوع . رفت عيناه عدة مرات ثم جمد في مكانه ينظر إليها حتى سحبته من كتفه .

ـــ اعذريني ـــ خاطبها سناوت . ـــ أريد أن أتحدث إليك يا كيلفن ...

ـــ طبعاً . أجبته بلغة اجتماعية لبقة .

بدا ذلك كمشهد من كوميديا مبتذلة . لم يكن هناك مخرج آخر .

ـــ عزيزتي هاري . أرجو أن لا تعيرنا اهتمامك . سنتحدث قليلاً عن أعمالنا .

أخذت سناوت من مرفقه وجلسنا على الأرائك الصغيرة في الجهة المقابلة للقاعة . جلست هاري على الأريكة التي كنت جالساً عليها ، لكنها أدارتها بحيث تستطيع أن ترانا بمجرد أن ترفع رأسها عن الكتاب . سألته بصوت خافت :

ـــ وماذا بعد ؟

ـــ انهكت ، ـــ أجابني بهمس يشبه الصفير . لو روى لي أحد هذه القصة بهذه البداية لكنت ضحكت تماماً ، لكن الاحساس بالفكاهة كان معدوماً . لقد عشت من يوم البارحة ما يعادل عامين يا كيلفن .. عامين ليسا سيئين ، وأنت ؟

ــ لا بأس ... ــ أجبته بعد لحظة ، لأنني لم أعرف ما أقوله . شعرت في هذه اللحظة بالخشية منه . بالأحرى بالخوف مما جاء من أجله .

ــ لا بأس ... كرر سناوت كلمتي بنفس اللهجة ــ هكذا إذن ؟

ــ عما تتحدث ؟ ــ تظاهرت أنني لا أفهم شيئاً .

جحظت عيناه المليئتان بالدم وانحنى نحوي حتى شعرت بحرارة أنفاسه .

ــ سنوفق يا كيلفن . لن أستطيع الاتصال مع سارتوريوس . فقط أعرف ما كتبه لك.لقد أخبرني بذلك بعد مؤتمرنا القصير ...

ــ هل أشغلَ بذلك الهاتف المرئيَّ ؟

ــ كلا . تسمع لديه رنات صغيرة متقطعة . يبدو أنه يفعل ذلك خصيصاً . أو ... ــ وهوى سناوت بقبضة يده كأنه يحطم شيئاً .

تأملته بصمت .

ــ كيلفن ؛ لقد جئت إليك من أجل ... ــ ولم ينهي جملته ــ ماذا تريد أن تفعل ؟

أجبته بهدوء

ــ أتقصد تلك الرسالة ؟ أستطيع فعل ذلك ، ولا أرى مانعاً ، وخاصة أنني جئت لهذا الهدف ، أريد أن أفهم ...

ــ كلا ، أنا لا أتحدث عن ذلك ...

ــ كلا ؟ سألته متظاهراً بالدهشة . ــ إذن أنا مصغ إليك .

ــ سارتوريوس ــ بدأ يتمتم بعد فاصل قصير ــ يعتقد أنه وجد الطريق ... هذا ... لم يرفع سناوت عينيه عني . جلست هادئاً وأنا أحاول أن لا تظهر على وجهي أية تعابير خاصة .

ــ أولاً ، تلك القصة ، قصة أشعة رونتجن الذي نفذها غيباريان .. هل تذكرها ؟ يمكننا تطويرها .

ـــ أي منها ؟

ـــ لقد أرسلنا حزمة من الأشعة إلى المحيط ، فقط طورنا توترها بقوانين مختلفة .

ـــ أعرف ذلك . لقد أجرى نيلين مثل هذه التجارب وعدد كبير من التجارب الأخرى .

ـــ صحيح . لقد استخدمنا إشعاعات شديدة بدل تلك الإشعاعات الخفيفة التي استخدمت سابقاً . لقد غرسنا في المحيط كل ما نملكه . الطاقة بأكملها .

ـــ هذا خرق لمعاهدة الأربعة ولمنظمة الأمم المتحدة ، ومن الممكن أن يؤدي إلى نتائج وخيمة .

ـــ لا داعي للسخرية يا كيلفن . تعرف جيداً أن المسألة فقدت أهميتها ، فلم يعد غيباريان من بين الأحياء .

ـــ أها ، فهمت ، لعل سارتوريوس يريد أن يرمي كل شيء عليه ؟

ـــ لا أعرف . لم أتحدث معه حول ذلك . وهذا ليس ذو شأن . يعتقد سارتوريوس أن « الضيف » يظهر حالما ينتهي الإنسان من نومه أي في لحظة استيقاظه ، كما يفترض أن المحيط يأخذ منا وصفة إنتاج « الضيف » أثناء الحلم ، ويظن أن أهم حالة بالنسبة للمحيط هي عندما نكون في حالة الحلم ـــ بالضبط . لذلك نراه على هذه الشاكلة . يطمح سارتوريوس أن ينقل إليه حالتنا في وقت الاستيقاظ ، أي أن يوصل إليه أفكارنا في حالة اليقظة ؟ هل تفهم ؟

ـــ بأية وسيلة ؟ بالبريد ؟

ـــ ستجد وقتاً آخر للمزاح . سنطور حزمة الشعاع بتيار من دماغ أحدنا .
توضحت الفكرة في ذهني الآن .

ـــ تقول بتيار من دماغ أحدنا . هذا يعني من دماغي أليس كذلك ؟

ـــ نعم ، لقد فكر بك .

ـــ أشكره من كل قلبي

ــ ما قولك في ذلك ؟

صمت . ونظر إلى هاري المنهمكة في القراءة . ثم نقل نظره إلي . شعرت أن لون وجهي يشحب ولا أستطيع إيقاف ذلك .

ــ ما قولك ؟ كرر سناوت سؤاله .

هززت كتفي .

ــ أعتقد أن التعاليم الرونتجينية عن عظمة الإنسان ما هي إلا هراء . ألا توافقني في ذلك ؟

ــ نعم .

ــ هذا رائع جداً ــ ابتسم وكأنني نفذت رغبته ــ هذا يعني أنك ضد القصة بأكملها ؟ لقد حاصرني في المكان الذي أراده ، ولا أعرف كيف تم له ذلك .

صمت . وماذا يمكنني قوله ؟

ــ ممتاز . لدينا مشروع آخر . إعادة توليف جهاز روشيه .

ــ المحول ؟

ــ نعم . لقد أنهى سارتوريوس حساباته الأولية . هذه حقيقة ، إنه لا يتطلب استطاعة قوية . سيعمل الجهاز مدة لا محدودة مشكلاً مجالاً مضاداً

ــ إن ... انتظر ! كيف تتصور ذلك ؟

ــ مسألة بسيطة . سيكون مضاداً للمجال النيتروني . إن من يتعرض للدمار هي الأنظمة النيترونية . هل تفهم ؟

ابتسم ابتسامة رضا . جلست فاغراً فمي . غابت ابتسامته تدريجياً . تفحصني بنظراته . تجهم وجهه . انتظر قليلاً ثم تابع :

ــ إذن سنلقي مشروع « الفكرة » جانباً ، أما الثاني فسارتوريوس منكب عليه طوال الوقت . سندعوه بمشروع « الحرية » .

أغمضت عيني لحظة . بدأت أحسب بسرعة : سناوت ليس فيزيائياً . أقفل سارتوريوس الهاتف المرئي أو حطمه . حسن جداً . قلت له بهدوء :

ــ كنت سميته تسمية أدق لو قلت « المجزرة » ...

ــ كنت جزاراً . ربما لم تكن ؟ والآن سيكون هذا شيء آخر كلياً .

لن يظهر « الزوار » . ولا أية كائنات F . ولا شيء آخر . ستبدأ لحظة الاندثار في لحظة بدء التكوين المادي .

ــ هذا شيء لا معقول . أجبته بشيء من الريبة وهززت رأسي وضحكت . تمنيت أن أبدو طبيعياً قدر الإمكان . ــ هذه ليست دغدغة ــ بل الاحساس الغريزي للبقاء . لا أريد الموت يا سناوت .

ــ ماذا ؟ ..

نظر إلي بتوجس وظهرت الدهشة عليه . أخرجت من جيبي ورقة مطوية ، تلك التي سجلت عليها المعادلات .

ــ لقد فكرت بذلك . هذا سيدهشك . أنا أول من فكر بالفرضية النيترونية . أليس صحيحاً ؟ انظر . يمكننا تهييج المجال المضاد ، وهذا لا يعد خطراً على المادة العادية . هذه حقيقة . بيد أن الطاقة الفائضة التي ستتحرر عند انهيار النظام النيتروني في لحظة عدم الاستقرار تقدر بـ $٩^{٨}$ ايرغ على كل كيلو غرام من الكتلة الساكنة ، وبذلك يمكننا الحصول من خمسة إلى سبعة على عشرة ضرب تسعة من أجل كل كائن من كائنات F . هل تدرك ماذا يعني ذلك ؟ هذا يعادل انفجار إعصار صغير داخل المحطة .

ــ ماذا تقول ؟ على ... سارتوريوس أن يأخذ في حسبانه ...

ــ ليس بالضرورة ــ أجبته بابتسامة شريرة ــ المسألة أن سارتوريوس من تلاميذ مدرسة فريزر ــ وكابولي . وبرأي المذكورين فإن الطاقة بأكملها في وقت الانهيار تتحرر على شكل إشعاعات مضيئة ، وهذا يعني حدوث بريق شديد

الوهج ربما لن يكون خطيراً . بالأحرى لن يكون مدمراً . هناك فرضيات أخرى حول المجال النيتروني . حسب **كاي وأفالفو وسيون** فإن طيف الشعاع أوسع بكثير ويمكنه أن يكون فعالاً مثل الأشعة الشديدة الوطأة . طبعاً من الجميل أن يخلص سارتوريوس لأساتذته ويؤمن بهم وبنظرياتهم ، لكن هناك نظريات أخرى . هل تفهم ما أردت قوله ؟ وهنا حاولت إطالة كلماتي بعدما لاحظت وقعها عليه . إن فعل ما فعله ، فمن الأرجح أنه اتبع المنهج الأمثل لذلك . بكلمات أخرى : ستكون أفعاله بمثابة البرهان الدامغ في صالح المدارس الأخرى ــ أي تلك المدارس المضادة له .

ــ أرني هذه الورقة ياكيلفن ...

أعطيته الورقة . نظر إليها متأملاً محاولاً أن يفهم ما خططت عليها .

ــ ما هذا ؟ وأشار بأصبعه .

أخذت الورقة منه .

ــ هذا حجم نقل التغييرات المفاجئة .

ــ أعطني كل ما سجلته ...

ــ ولماذا تحتاجها ؟ وعرفت بما سيجيب .

ــ سأريها لسارتوريوس .

ــ كما تريد . أجبته بلا مبالاة . تستطيع أن تأخذها . فقط عليك أن تعرف أن أحداً لم يثبت ذلك من خلال التجارب ، فهذه التصاميم ليست معلومة لدينا بعد . سارتوريوس يثق بفريزر . وأنا أجريت الحسابات حسب طريقة سيون . سيقول سارتوريوس أنني لست فيزيائياً . وسيون كذلك ليس فيزيائياً ، برأيه على الأقل . هذه مسألة تحتاج للجدل . وأنا لا أوافق على خوض مناقشة معه أضمحل من خلالها لصالح أمجاد سارتوريوس . أستطيع إقناعك أما هو فلا أستطيع . ولن أحاول .

ــ لقد انكب على ذلك . ماذا تريد أن تفعل الآن ؟ ...

كان صوته من دون لون . احدودب واختفت انتعاشاته . لا أعرف هل وثق بي أم لا . أصبحت لا مبالياً نحوه .

ــ أفعل ما يفعله أي إنسان يبغون قتله .

ــ سأحاول أن أتصل به . ربما فكر ببعض الاجراءات الأمنية ــ تمتم سناوت ورفع عينيه باتجاهي . ــ اسمع ، وإن تم الأمر رغم ذلك ؟ .. المشروع الأول . آ ؟ سيوافق سارتوريوس . على الأرجح . هي ... على كل حال مجرد فرصة .

ــ هل تثق بذلك ؟

ــ كلا ــ أجاب فوراً ــ لكن ... أين الإساءة في ذلك !

لم أرغب في إعطاء الجواب مباشرة ، لأنني كنت بحاجة لذلك . لقد وقع غريمي في لعبة المماطلة . وقلت له :

ــ سأفكر في الأمر .

وقال سناوت وهو ينهض وقد سمعت صرير مفاصل عظامه :

ــ حسن . سأذهب الآن . هل ستضع مخططاً دماغياً ؟ ومسح سترته بأصابعه محاولاً إزالة البقع الصغيرة عنها .

ــ حسن .

ودون أن يعير أدنى اهتمام لهاري (التي كانت جالسة تنظر بصمت إلينا والكتاب على ركبتيها) توجه نحو الباب . نهضت بعدما انغلق الباب .

مسدت ورقة المعادلات التي كنت أمسكها بيدي . كانت معادلات حقيقية . لم أزيف فيها شيئاً . غير أنني أشك في أن يوافق سينون مع ما طورته فيها . في الأغلب لن يوافق . انتابتني الرعشة . اقتربت هاري ولامستها يدي .

ــ كريس .

ــ ماذا تريدين يا عزيزتي ؟

ـــ من كان ذلك الشخص ؟

ـــ لقد قلت لك . إنه الدكتور سناوت .

ـــ أي نوع من الرجال هو ؟

ـــ لا أعرفه إلا قليلاً . لماذا تسألين ؟

ـــ كانت نظراته ...

ـــ ربما أعجب بك ...

ـــ كلا ـــ هزت برأسها نفياً ـــ لم تكن نظراته من هذا النوع . لقد نظر إلي وكأنه ...

ورفعت عينيها ثم أخفضتهما فوراً .

ـــ لنذهب من هنا .

سائل الأوكسجين

لا أعرف كم أمضيت من الوقت في الحجرة المظلمة مستنداً بخمول على لوحة الساعات المضاءة . سمعت صوت أنفاسي ودهشت لشيء ما مع أنني كنت لا مبالياً ، ربما كنت تعباً جداً . ملت على جانبي ، كان السرير عريضاً بشكل غريب . شعرت بحاجة لشيء ما لا أعرفه . حبست أنفاسي وتسمرت في مكاني . عم الهدوء . لم أسمع صوتاً . هاري ؟ لماذا لا أسمع صوت أنفاسها ؟ بدأت أبحث عنها بيدي داخل الفراش . وجدت نفسي وحيداً . هاري . أردت أن أصرخ ، سمعت وقع أقدام . كانت وقع أقدام شخص ثقيل قادم مثل ...

ــ غيباريان ؟ قلت بصوت هادىء .

ــ نعم . هذا أنا . لا تشعل الضوء .

ــ لكن ..

ــ لا داعي لذلك . هذا أفضل لنا .

ــ لكنك سبق ومت !

ــ هذا أمر لا أهمية له . ألا تعرف صوتي ؟

ــ نعم لماذا فعلت ذلك ؟

ــ الظروف . لقد تأخرتَ أربعة أيام . لو وصلت قبل ذلك ، ربما لما تجرأنا . أرجو أن لا تلوم نفسك . لم تعد الحالة سيئة بالنسبة لي .

ــ هل أنت حقيقي ؟

ـــ أها ، أتحسب أنك تراني في الحلم ، كما فكرت برؤيتك لهاري ؟

ـــ أين هي ؟

ـــ لماذا تعتقد أنني أعرف ؟

ـــ خمنت .

ـــ احفظ ذلك في قلبك . لنفترض أنني مكانها .

ـــ لكنني أريد منها أن تكون معنا أيضاً .

ـــ هذا مستحيل .

ـــ لماذا ؟ اسمع،إنك تعرف جيداً أن حقيقة الأمر ـــ أنّك لست أنت ـــ أنت أنا ولا غير .

ـــ كلا . أنا حقيقة . وإن أردت أن تكون متحذلقاً ، تستطيع أن تقول أنا في واحد آخر . دعنا لا نضيع الوقت .

ـــ هل أنت ذاهب ؟

ـــ نعم .

ـــ هل ستعود هاري ؟

ـــ هل تريد ذلك ؟ ومن هي بالنسبة لك ؟

ـــ هذا من شأني .

ـــ هل تخاف منها ؟

ـــ كلا .

ـــ وتقرف منها ...

ـــ ماذاتريد مني ؟

ـــ عليك أن تشفق على نفسك لا عليها . ستبقى هاري في العشرين من عمرها لا تتظاهر أنك لا تعرف ذلك !

لا أعلم كيف هدأت أعصابي فجأة واستمعت إليه بدم بارد . تراءى لي

أنه يقف قريباً من قوائم السرير . ومع ذلك لم أر شيئاً في هذا الظلام .
وسألته بهدوء :
ــ ماذا تريد ؟
ربما أدهشته نغمة صوتي . صمت دقيقة :
ــ استطاع سارتوريوس إقناع سناوت من أنك خدعته . والآن سيخدعك . سيتظاهران أنهما يولفان أجهزة رونتنجية ، وفي حقيقة الأمر سيركبان محول المجالات .
ــ وأين هي ؟
ــ ألم تسمع ما قلته لك ؟ لقد حذرتك .
ــ أينها ؟
ــ لا أعرف وتذكر : ستحتاج للسلاح . لا تستطيع الاعتماد على أحد .
ــ أستطيع الاعتماد على هاري .
وسمعت صوتاً ضعيفاً قصيراً . لقد ضحك .
ــ طبعاً تستطيع . إلى حد ما . في آخر المطاف تستطيع أن تفعل ما فعلته من قبلك .
ــ أنت لست بغيباريان .
ــ نعم ؟ ومن أكون إذن ؟ ربما كنت حلمك ؟
ــ كلا . أنت لعبتهم ولا تعرف ذلك .
وكيف عرفت من أكون ؟
حيّرني سؤاله . أردت النهوض ، ولم أستطع . همس غيباريان بشيء ما ، لم أفهم كلماته . كان صوته يائساً ضعيفاً ، ثم صدح من جديد قوياً ... استيقظت .
أخذت شهيقاً كسمكة تعاني من رعشات الموت . كان الجو دافئاً . هذا

حلم . كابوس . والآن ... « معضلة لا أستطيع حلها . سنلاحق بعضنا بعضاً . كثير من الحيوانات تستخدم طريقة اختيارية لتقوية قدراتها العقلية . إن البحث عن تعليل ذلك أشبه بتقمص الإله لأشكال بشرية . وهناك حيث لا يتواجد البشر ، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى تعليل . ولكي نتابع تنفيذ مخطط أبحاثنا ، علينا أن نحطم أفكارنا الخاصة ، أو أن نحطم التجسيد المادي لها . ليس بمقدورنا أن نفعل الشيء الأول ، والثاني أشبه بالانتحار ... »

استمعت في الظلمة إلى ذلك الصوت الوديع . صوت غيباريان الذي عرفته فوراً . مددت يدي إلى الأمام . كان الفراش فارغاً . جاءتني فكرة « أنني استيقظت الآن من أجل الحلم التالي » ، وصرخت :

ـــ غيباريان ؟ انقطع الصوت إلى نصف كلمة . اهتز شيء ما بهدوء . شعرت بلفحة ناعمة .

ـــ ماذا بعد يا غيباريان ؟ ـــ تمتمت وأنا أتثاءب . هل ستلاحقني من حلم لآخر ، أتعرف ... وشعرت بحركة غريبة .

ـــ غيباريان ! كررت ندائي بصوت أعلى .

سمعت صرير نوابض السرير . ثم همساً :

ـــ هذا أنا يا كريس ...

ـــ أهذه أنت يا هاري ... وأين غيباريان ؟

ـــ كريس ... لكنه أنت ... أنت بنفسك من قال إنه مات ..

ـــ يستطيع أن يحيا في الحلم .

لم أكن واثقاًأنني رأيته في الحلم . لقد جاء بنفسه وتحدث إلي .

كنت نعساً للغاية « ان كنت نعساً ـــ يعني أنني نائم » . فكرة جنونية أخرى .لامست بشفتي كتف هاري البارد ، وتمددت بالشكل الذي أرتاح فيه أكثر . أجابتني بشيء ما ، غير أنني أصبحت في عالم النسيان

صباحاً استرجعت في الحجرة المضاءة بنور الشمس الحمراء كل ما حدث ليلة البارحة .

حسناً ، حلمت أنني تحدثت مع غيباريان ، وماذا بعد ؟ سمعت صوته ، أقسم أنني سمعت صوته ، ومع ذلك لا أذكر شيئاً مما قاله .

لم يكن ذلك حديثاً ، بل تقريراً . كان صوت خرير الماء من صنبور الحمام مسموعاً . هاري تغتسل . نظرت تحت السرير لأخذ المسجل الذي تركته منذ فترة هناك . لم أجده في مكانه . ناديت هاري .

ــ هاري .

ظهر وجهها المبتل من خلف الخزانة .

ــ ألم تقع عيناك صدفة على المسجل تحت السرير ؟ مسجل صغير ،

ــ كانت هناك كثير من الأشياء ــ وضعتها كلها على ذلك الرف .

وأشارت إلى رف الأدوية قرب الخزانة واختفت داخل الحمام .

قفزت من مكاني . لم أجد المسجل هناك .

ــ لا بد أنك شاهدته ، ــ قلت لهاري التي خرجت من الحمام .

لم تجبني بشيء ــ وراحت تسرح شعرها أمام المرآة . لاحظت شحوب وجهها ، وكان في عينيها اللتين التقت نظراتهما بعيني من خلال المرآة شيء من الحذر .

ــ هاري ، بدأت الحديث من جديد مثل حمار ، ــ لم أجد المسجل على الرف .

ــ ألا تريد أن تقول لي شيئاً أكثر أهمية .

ــ اعذريني ــ أنت محقة . هذه سخافة .

لم يعد ينقصني شيء سوى أن أبدأ الشجار معها . ومن ثم ذهبنا لتناول الإفطار . لم تكن هاري على عادتها في هذا اليوم . بيد أني لا أستطيع تحديد الفارق . كانت طوال الوقت تحدق بعينيها دون أن تسمعني وكأنها غائبة في

لجة أفكارها . مرة واحدة لاحظت بريق عينيها عندما رفعت رأسها .
ـ ما بك ؟ ـ أخفضت صوتي حتى بدا مثل همس ـ هل تبكين ؟
ـ أوه . دعني وشأني . هذه ليست دموع حقيقية .

ربما كان عليَّ أن لا أتمتع بهذه الكلمات ، و لم أخشَ شيئاً كما أخشى « الأحاديث الصريحة » مع ملاحظة أن ما يدور في رأسي شيء مختلف تماماً ، و لم أفعل شيئاً سوى أنني حلمت بمغامرات سناوت وسارتوريوس . بدأت أفكر بإيجاد السلاح الملائم على متن المحطة . لم أفكر باستخدامه . أردت حيازته . قلت لهاري أنني أريد إلقاء نظرة على المستودعات . انطلقت ورائي صامتة . بحثت في العلب ، فتشت الصناديق ، وعندما نزلت إلى آخر درجة في المستودعات ، لم أستطع مقاومة رغبتي في إلقاء نظرة على البراد . لم أرغب أن تدخل هاري ، لذلك فتحته وتفحصت المكان برمته . كان الكفن القاتم مرتفعاً يغطيه شيء طويل . وصعب عليَّ من المكان الذي وقفت عليه أن أرى هل السوداء تتمدد عليه أم لا . تراءى لي مكانها السابق فارغاً .

لم أجد شيئاً مناسباً ، كان مزاجي عكراً ، فجأة لاحظت أنني لا أرى هاري . مع ملاحظة أنها جاءت في نفس اللحظة ـ تأخرت في الدهليز ـ لكن كان عليَّ أن ألاحظ مجرد محاولتها للتأخر ولثوان قليلة عني . ومع ذلك ثابرت كأبله ، أو ببساطة كأنني اغتظت من أحد مجهول . شعرت بأ لم يصيب رأسي ، و لم أجد مسحوقاً مناسباً ، وغضبت غضب مئة شيطان وقلبت محتويات الصيدلية رأساً على عقب . لم أرغب بالذهاب مرة ثانية إلى غرفة العمليات . نادراً ما أتصرف بهذا الغباء كما في هذا اليوم . كان ظل هاري يتحرك جيئة وذهاباً في المكتب ، ويختفي أحياناً لثانية . بعد الظهر تناولنا الغداء ـ (مع ملاحظة أنها لم تأكل شيئاً ، فتناولت طعامي دون رغبة و لم أحاول إقناعها بتناول الطعام ،

وهذا ما أدى إلى ازدياد ألم رأسي) ــ جلست هاري قربي ومدت يديها . سألتها آلياً :

ــ وماذا بعد ؟ ما بك ؟

تناهى لي صوت طرقات خفيفة أتية عبر المواسير . من المحتمل أن سارتوريوس يعمل في أجهزة التوتر العالي . رغبت بالصعود إلى الطابق العلوي . فجأة أدركت أن هاري ستذهب معي . ان كان ذهابها إلى المكتبة مقبولاً فإن ذهابها إلى مكان الآليات غير مقبول وسيوجه لي سناوت ملاحظات شديدة اللهجة . وهمست :

ــ كريس ! كيف هي أحوالنا ؟

أطلقت زفيراً رغم إرادتي . من الصعب وصف ذلك اليوم باليوم السعيد .

ــ في أحسن حال . عما تتحدثين من جديد ؟

ــ أريد التحدث معك .

ــ أنا مصغ .

ــ ليس بهذا الشكل .

ــ كيف ؟ تعرفين أنني أشعر بألم في رأسي ولدي كثير من الأعمال ...

ــ بعض الأمنيات يا كريس .

أجبرت نفسي على الابتسام وارتسمت على وجهي ابتسامة صفراء .

ــ نعم يا عزيزتي ، تحدثي .

ــ هل ستقول لي الحقيقة ؟

رفعت جفني . لم تَرق لي هذه البداية .

ــ ولماذا أكذب ؟

ــ ربما لديك سبب للكذب . سبب وجيه . إن كنت لا تستطيع فعل ... عموماً أرجو أن لا تخدعني .

بقيت صامتاً .

ـــ سأذكر لك شيئاً ـــ وعليك أن تجيب . حسن ؟ ستكون الحقيقة ، بغض النظر عن أي شيء .

لم أنظر إلى عينيها . بحثت هاري عن نظراتي . تظاهرت أنني لا ألاحظ ذلك .

ـــ لقد ذكرت لك أنني لا أعرف منشئي . ربما كنت تعرف أنت . انتظر . لم أنهِ حديثي بعد . ربما كنت لا تعرف . إن كنت تعرف ولا تستطيع أن تقول ذلك الآن فهل تستطيع ذكر ذلك لي مستقبلاً ؟ هذا ليس حلاً سيئاً ، فأنت تقدم لي فرصة على كل حال .

أحسست بتيار مياه باردة انسكب فوقي . تلعثمت كلماتي :

ـــ ماذا تقولين يا طفلة ؟ أية فرصة ؟

ـــ كريس ، بغض النظر عمن أكونه ، فأنا لست طفلة . لقد وعدت . قل .

شعرت بضيق في أنفاسي من كلماتها « بغض النظر عمن أكونه » لم أستطع سوى النظر إليها وهز رأسي بغباء كأنني أقيه من كلماتها .

ـــ لقد شرحت لك ، وأنت لست قرداً . يكفي أن تقول أنك لا تستطيع .

أجبتها بصوت متحشرج :

ـــ أنا لا أخفي شيئاً .

ـــ حسناً . ونهضت .

أردت أن أقول شيئاً . شعرت أنني لا أستطيع تركها على هذه الحالة . لكن الكلمات تعثرت في فمي .

ـــ هاري ...

وقفت قرب النافذة . كان المحيط الأزرق القاتم متمدداً تحت السماء العارية .

ــ هاري ، إن كنت تفكرين أنني ... هاري أنت تعرفين أنني أحبك ...
ــ تحبني ؟
اقتربت منها . أردت أن أشدها إلى صدري . لم تسمح لي فأبعدت يدي .
ــ كم أنت طيب ... تحبني ؟ أعتقد أنك تريد أن تضربني .
ــ عزيزتي هاري !
ــ لا ، لا ، من الأفضل أن تسكت .
اقتربت من الطاولة وبدأت بجمع الصحون . نظرت إلى الصحراء الزرقاء . استقرت الشمس ، وتموجت ظلال المحطة العائمة الكبيرة فوق أمواج المحيط . انزلق صحن من يد هاري وسقط على الأرض . سمعت خرير مياه صنبور المغسلة .
تحول اللون الأشقر المحيط بأطراف السماء إلى لون ذهبي أحمر وسخ . آه ، لو أعرف ما أفعله ! لو أعرف ! فجأة حلت السكينة . كانت هاري تقف قربي من الخلف .
ــ لا . لا تستدر ــ قالت هامسة ــ لست مذنباً في شيء يا كريس . أعرف . لا تعذب نفسك . مددت يدي لها . ابتعدت عني ورفعت كدسة من الصحون ... وقالت :
ــ مؤسف . لو ينكسروا ، لحطمتهم ، لكسرتهم جميعاً !
توقعت أن ترمي الصحون جميعاً على الأرض . لكنها تفرستني ثم ضحكت :
ــ لا تخف . لن أمثل عليك أفلاماً .
استيقظت في منتصف الليل متوتراً ، متحفزاً من دفعة تلقيتها . جلست على السرير . كان شعاع أملس يخترق الظلام المخيم في الغرفة قادماً من الدهليز عبر شق الباب المفتوح . تناهت إلى مسامعي ضربات صماء مبهمة . كان شيئاً ضخماً

يضرب خلف الجدار يرافقه أزيز سام .

لمعت في ذهني فكرة « أن نيزكاً اخترق الدرع . وهناك أحد ما ! » ثم سمعت شخيراً حاداً .

استيقظت . أنا في المحطة ولست في الصاروخ ، وهذا الصوت المرعب ... قفزت إلى الدهليز . شاهدت باب المخبر مفتوحاً على مصراعيه والضوء يلمع في داخله . هرعت . لفحني تيار هواء بارد . كان البخار المتكاثف يحول الأنفاس إلى ندف ثلجية وسحابة بيضاء تحوم فوق جسد مغطى بثوب الحمام يتحرك بصعوبة . إنها هاري . بالكاد ميزتها في هذا الضباب الثلجي . قفزت نحوها ، أمسكتها. لسعني ثوبها . كانت تتحشرج . حملتها إلى الدهليز بمحاذاة الباب. لم أعد أشعر بالبرد ، إذ كانت أنفاسها الساخنة مثل النار والمتصاعدة من فمها كغيوم من الضباب تلسع كتفي .

مددتها على الطاولة ، ومزقت ثوبها عند الصدر . نظرت لحظة إلى وجهها المعوج المرتجف . تجمد الدم حول فمها الفاغر ، وصبغة سوداء غطت شفاهها ، ونتف جليد كريستالي تلمع على لسانها .

سائل الأوكسجين . كان سائل أوكسجين المخبر معبأ في قوارير ديوار : رفعتها وشعرت أنني أضغط على زجاج مقرقش . كم تستطيع أن تشرب ؟ كم تريد ؟ قصبات الرئة محروقة ، الحنجرة ، الرئة . إن تأثير سائل الأوكسجين أشد من الحمض المكثف . أنفاسها تشبه صريراً جافاً مثل ورقة تتمزق . اختفت أنفاسها . عيناها مغلقتان . إنها تحتضر .

ألقيت نظرة على الخزائن الزجاجية المليئة بالمعدات والأدوية . ترى هل تحتاج إلى إدخال أنابيب التنفس إلى رئتيها ؟ أم إلى الحنجرة ؟ لم يعد لديها رئة ! لقد احترقت . الدواء ؟ كم من الأدوية ! الرفوف مليئة بالعلب والزجاجات المتعددة

الألوان . حشرجتها تملأ الغرفة . ما زال البخار يتصاعد من فمها .

الثيرموفور ...

بدأت أبحث عنه ، وقبل أن أجده ، خلعت باب الخزانة الآخر ، ورميت الحقن ... والآن المصل .... أين المصل ؟ في المعقم ... لم أستطع جمعه بيدي المنشغلتين . أصابعي صلبة ولا تنصاع لإرادتي . بدأت بجنون أضرب المعقم بيدي دون أن أشعر بذلك ، لم أشعر سوى بوخز ضعيف .

تحشرجت المتمددة بقوة . قفزت نحوها . كانت عيناها مفتوحتين .

ــ هاري !

لم يكن همساً ، بل لم تخرج الحروف من فمي . كان وجهي غريباً كأنه مصنوع من الجص . كان شعرها المبتل من الثلج الذائب ملتصقاً على جلد رأسها ، وأضلعها تهتز اهتزازاً عنيفاً وهي تنظر إلي .

ــ هاري !

لم أضف شيئاً . وقفت كجذع شجرة مع يدي المتخشبتين . بدأت شفتاي وقدماي وجفناي تلتهب أكثر فأكثر دون أن أشعر بذلك . سالت قطرة على خدها من حرارة الدماء ، ورسمت خطاً معوجاً . رجف لسانها لحظة ثم اختفى . ما زالت تتحشرج .

أخذت معصمها بيدي . لم أشعر بنبضها أبداً . رفعت الثوب عنها ووضعت أذني على جسدها البارد المرعب . سمعت من خلال أزيز شبيه بضجيج الحريق ضربات مجنونة تتكرربسرعة عالية بحيث لا يمكن قياسها . كنت أجلس القرفصاء مغمضاً عيني عندما شعرت بشيء يلامسني إنها أصابع يدها تداعب شعري . نظرت في عينيها .

ــ كريس . قالت متحشرجة .

أمسكت يدها ، وردت على لطافتي بأن عصرت يدي حتى كادت

تحطمها ، ولمع بياض عينيها بين جفنيها ، وتحشرجت حنجرتها وارتج جسدها وهي تتقيأ . ارتفعت عن الطاولة فاصطدم رأسها بطرف القمع الخزفي . سندتها وحاولت تثبيتها على المنضدة . كانت تفلت من يدي في كل تشنج يصيبها . تصبب العرق من جسدي خلال لحظة . أصبحت ساقاي رخوتين . حاولت أن أجلسها عندما كفت عن التقيؤ . راحت تستنشق الهواء بنحيب . فجأة التمعت عيناها على وجهها المدمى .

ــ كريس ــ وتلعثمت ــ كم .. كم سيستمر ذلك ؟

من جديد بدأ جسدها يتقلص ــ وظهرت رغوة على شفتيها مزقها القيء الذي اندفع من فمها . أمسكت بها بكل قواي . سقطت على ظهرها واصطكت أسنانها حتى كادت تختنق .

ــ لا . لا . لا . رددت مع كل زفير من أنفاسها الذي كان يبدو الأخير ولا ريب . عادت تتقيأ مرة أخرى ، ومن جديد بدأ يرتعش جسدها بين ذراعي وهي تستنشق الهواء في لحظات الاستراحة القصيرة مما أدى إلى بروز أضلاعها بروزاً تاماً . أخيراً غطى جفناها عينيها الناعستين ، وخمدت . ظننت أنها النهاية . حتى أنني لم أمسح الرغوة الوردية عن فمها . وقفت أنظر إليها منحنياً عليها مستمعاً إلى دقات جرس كبير بعيد ، وانتظرت نفسها الأخير لأقع على الأرض وأستريح . غير أن أنفاسها استمرت و لم تعد تتحشرج تقريباً . فجأة تحرك صدرها في إيقاع قلب نابض بعدما كان يبدو كهضبة ثابتة . وقفت محدودباً . بدا وجهها يتورد . لم أفهم حتى ذلك الوقت شيئاً . فقط شعرت بالعرق يتصبب من راحة كفّي ، وتخيلت أنني أصبحت أصماً ، وأن شيئاً مطاطياً ملأ أذني . بقيت اسمع ذلك الجرس الذي تحول إلى صوت أصم متصدع .

رفعت حاجبيها . التقت نظراتنا .

« هاري » أردت مخاطبتها ، و لم تخرج الكلمة من فمي ، كان وجهي أشبه

بوجه الأموات وعليه قناع ثقيل بحيث لا أستطيع سوى النظر كأنني من دون فم .

تجولت بعينيها في أرجاء الغرفة ، وتحرك رأسها . كان الهدوء مخيماً تعكره نقاط مياه تخرج من صنبور بإيقاع رتيب في عالم بعيد لا أعرفه . نهضت هاري واستندت على مرفقيها . ثم جلست . تراجعتُ القهقرى . بدأت تراقبني .

ـــ ماذا ، ـــ سألت هاري ـــ ماذا بك ؟ ألم ... تقدر ؟ لماذا ؟ .. لماذا ترمقني بهذه النظرات ؟

وصرخت فجأة

ـــ لماذا تنظر إلي بهذا الشكل ؟!

ـــ حل السكون من جديد ! نظرت إلى يديها . حركت أصابعها .

ـــ هذا ... أنا ؟!

ـــ هاري ، ناديتها بحركة من شفاهي فقط .

ـــ هاري كررت وهي ترفع رأسها وزحفت على الأرض ببطء ثم وقفت .

ترنحت في مشيتها ، ثم اعتدلت ، وخطت عدة خطوات . كانت تفعل كل شيء وهي تنظر إلي دون أن تراني .

ـــ هاري ؟ ـــ كررت ذلك مرة أخرى ـــ لكن ... أنا ... لست بهاري . فمن أكون ؟ هاري ! وأنت ؟ وأنت ؟

فجأة اتسعت عيناها وبرقتا ، وارتسمت على شفتيها ظلال ابتسامة وغمرت وجهها سعادة مصحوبة بذهول غريب .

ـــ كريس ! ممكن أن تكون أيضاً ؟! أليس جائزاً أن تكون أنت الآخر كذلك ؟

بقيت صامتاً مستنداً إلى الخزانة التي دفعني الرعب إليها .

سقطت يداها .

ـــ لا ، لا . أنت تخاف . اسمع ، لا أطيق الصبر أكثر من ذلك . هذا لا يجوز .

لم أعرف شيئاً . أنا الآن ... لا أفهم شيئاً . هذا مستحيل ؟ ــ أنا ــ وضغطت بيديها النحيلتين على صدرها . ــ لا أعرف شيئاً سوى ... سوى هاري ! هل تعتقد أنني أتظاهر بذلك ! لا . لا أتظاهر . نعم ،نعم لا أتظاهر .

تحولت كلماتها الأخيرة إلى نحيب وسقطت على الأرض باكية . لقد حطم صراخها شيئاً ما بداخلي فوجدتني أقفز نحوها وأمسكتها من كتفيها .

ابعدتني كأنها تدافع عن نفسها وهي تبكي دون دموع وتصرخ :

ــ دعني ! دعني ! إنك تقرف مني ! أعرف ! لا أريد ذلك ! لا أريد ! أنت ترى أنني لست أنا ، لست أنا ، لست أنا ، لست أنا ...

ــ اخرسي ! صرخت وأنا أهزها من كتفيها . كنا نصرخ سوياً دون أن ندرك ذلك ونحن جالسان القرفصاء . ترنح رأسها وهي تضرب به كتفي ، شددتهاإلى صدري بكل قواي . تسمرنا في مكاننا ونحن نلهث . كانت قطرات الماء تسيل من الصنبور .

ــ كريس ... قالت بصعوبة وهي تضغط برأسها على صدري . قل لي ما يتوجب عليَّ فعله كي لا أكون يا كريس ...

ــ كفي عن ذلك ! ،

رفعت رأسها ونظرت إلي .

ــ كيف ؟ ألا تعرف كيف ؟ ألا تستطيع إيجاد طريقة ؟ وسيلة ؟

ــ هاري ...

ــ أردت ... كنت أعرف . لا . لا . دعني . لا أريد منك أن تلمسني . تقرف مني .

ــ هذا ليس صحيحاً !

ــ تكذب ! يجب أن يكون ذلك مقرفاً بالسبة لك . أنا ... أنا بذاتي ... آه لو أستطيع . لو أستطيع فقط ...

ــ لقتلتِ نفسك ؟

ــ نعم .

ــ أنا لا أريد ذلك ، هل تفهمين ؟ لا أريد ذلك . أريدك أن تكوني معي هنا . ولا أحتاج لشيء آخر .

التهمتني عيناها الواسعتان الكبيرتان .

ــ كم تكذب . قالت هاري ببطء شديد .

تركتها ونهضت واقفاً . جلست هاري على الأرض .

ــ أخبريني ، ما الذي أستطيع فعله لتصدقيني ، لتصدقي ما أفكر به ؟ مع أنني أقول الحقيقة ولا شيء آخر .

ــ أنت لا تستطيع ذكر الحقيقة ، فأنا لست بهاري .

ــ من أنت إذن ؟

سكتت طويلاً ، ورجف صدغها ثم نكست رأسها وهمست :

ــ هاري ... لكن ... لكن أعرف أن هذا ليس حقيقة . فأنت لم تحبني هناك ... من قبل ...

ــ نعم . تلك غير موجودة . ماتت . أما هنا فأنا أحبك . هل تفهمين ؟

هزت رأسها .

ــ أنت طيب . أتمنى أن لا تعتقد أنني لا أقدر ما فعلته . كل ما فعلته حسن . لكنك هنا لا تستطيع فعل شيء . منذ ثلاثة أيام لم أكن أعرف شيئاً عندما جلست قربك على السرير صباحاً وانتظرتك حتى تستيقظ .

تملكني شعور وكأن ذلك جرى منذ وقت بعيد جداً . تصرفت بدون عقل . اختلطت في رأسي الأمور . لم أفهم ما جرى سابقاً ، وما الذي سيجري فيما بعد . لم أندهش من شيء . كأنني مخدرة أو معتلة منذ فترة طويلة . حتى أنني فكرت أنني مرضت فعلاً وأنت لا تريد إخباري بذلك ، ثم جاءت بعض

التفاصيل الصغيرة التي أجبرتني على التفكير . توضحت لي بعض الأمور بعد حديثك مع ذلك الرجل . ما اسمه ؟ ، آه سناوت . ولم ترغب أن تشرح لي شيئاً ، عندئذ نهضت ليلاً واستمعت إلى الشريط المسجل . كذبت عليك مرة واحدة لا غير ، وهي أنني أخفيت المسجل فيما بعد . كريس من كان ذلك المتكلم . ما اسمه ؟

ــ غيباريان .

ــ نعم ، غيباريان . عندئذ عرفت كل شيء . ومع ذلك لم أفهم شيئاً . إنني أقول الحقيقة . لم أعرف سوى شيء واحد ، وهو أنني لا أستطيع ... أنا لن ... سيستمر الوضع على هذه الشاكلة ؟ بلا نهاية ؟ لم يتحدث عن ذلك أبداً ، ومن الجائز أنه تحدث ، لكنك استيقظت فأطفأت المسجل . سمعت ما فيه الكفاية لأدرك أنني لست إنساناً ، بل مجرد أداة ولا غير .

ــ ماذا تقولين ؟

ــ نعم أداة لدراسة انفعالاتك ، أو شيئاً من هذا القبيل ، ولدى كل واحد منكم كائن ... مثلي . كائن مبني على الذكريات أو الخيال ... المنقبض . شيء من هذا القبيل . مع ملاحظة أنك تعرف ذلك أكثر مني . لقد نطق بأشياء مرعبة لا مثيل لها ، ولو لم يكن ما ذكره يتطابق كلياً مع ما يحدث معي لما صدقت ما يقوله .

ــ ما الذي يتطابق ؟

ــ أقصد ، أنني لا أحتاج للنوم . وأن عليَّ أن أكون دوماً ملازمة لك . البارحة صباحاً فكرت أنك تكرهني ، لهذا لم أكن سعيدة . أية غبية ! لكن قل ، قل بنفسك ، هل يمكنني أن أتصور لم يكرهها ؟ لكن كيف تحدث عنها ! عندئذ أدركت أنني ومهما فعلت فلن يتغير شيء ، شئت أم أبيت سيكون بالنسبة لك مجرد تجربة . بل أبشع من ذلك ، لأن أداة التجربة ميتة ، من دون دماء ،

مثل حجر بإمكانه أن يسقط ويقتل . لم أتصور أن أداة يمكنها أن تعشق وتتمنى الخير . أريد أن أحدثك عما كان يدور في خلدي بعدما أدركت كل شيء ، بعدما استمعت لذلك التسجيل . ربما سينفعك حديثي هذا . حتى أنني حاولت أن أسجل بصوتي ...

ـــ لذلك أشعلت الضوء ؟ سألتها بصوتي المنهك من ضغط حنجرتي .

ـــ نعم . لكني لم أصل لشيء . لأنني كنت أبحث في ذاتي ... عنهم ، عن الشيء الآخر مثل بلهاء . تراءى لي أن تحت جلدي لا يوجد جسد بل شيء آخر ... وأنني مجرد ... فقط من خلال شكلي الخارجي ... لأخدعك . هل تفهم ؟

ـــ نعم ، أفهم .

ـــ عندما أبقى ساهرة طوال الليل وحدي ، فإن أفكاري تذهب بعيداً جداً . في اتجاه غريب ، تعرف ...

ـــ أعرف ...

ـــ أحسست بقلبي ، وفهمت لماذا أخذت دماً مني . أية دماء لدي ؟ قل لي ، قل لي الحقيقة . تستطيع أن تقولها الآن .

ـــ مثل دمي تماماً.

ـــ أحقاً ؟

ـــ أقسم لك .

ـــ ماذا يعني ذلك ؟ هل تعلم أنني فكرت أن هناك شيئاً مخيفاً في داخلي ، وإن كان فعلاً فيجب أن يكون صغيراً جداً ، طبعاً لا أعرف أين . والآن أعتقد أن ذلك كان مجرد مراوغات من قبلي ، لأنني كنت خائفة مما عزمت على تنفيذه ، بدأت أبحث عن مخرج آخر . كريس ، إن كان دمي عادياً ... إن كان كل شيء كما تقول ، فإنه ... لا . هذا غير ممكن . كنت فارقت الحياة ـــ أليس

صحيحاً ؟ إذن لا بد من وجود شيء آخر . أين ؟ ربما في الرأس ؟ غير أني أفكر بشكل عادي تماماً ... ولا أعرف شيئاً ــ وان كنت أفكر مثله فعلي أن أعرف كل شيء وفوراً ، وأن لا أقع في حبك ، بل أتظاهر ولا غير ، وأعرف أنني أتظاهر ... أرجوك يا كريس أن تشرح لي كل ما تعرفه . ربما سنحت لنا فرصة لأن نفعل شيئاً ؟

ــ ما هو الشيء الذي سنفعله ؟

بقيت صامتة .

ــ هل تريدين الموت ؟

ــ أعتقد ذلك .

خيم الصمت من جديد . كنت واقفاً قرب هاري الجالسة ، أنظر إلى القاعة الفارغة وإلى لوحات التجهيزات المطلية بالميناء ، وإلى الأدوات اللامعة المنتشرة في كل مكان ، وكأنني أبحث عن شيء ضروري للغاية ولا أجده .

ــ هاري ، هل أقول لك شيئاً ؟

بقيت ساكتة تنتظر .

ــ هذه حقيقة . أنت لست مثلي تماماً . هذا لا يعني أنك أسوأ . على العكس . مع ملاحظة أنك تستطيعين أن تفكري بما شئت . بفضل ذلك الفارق بقيت على قيد الحياة .

ظهرت على وجهها ابتسامة طفولية بائسة .

ــ هل يعني ذلك أنني ... لن أموت ؟

ــ لا أعرف . في كل الأحوال ، أنت قابلة للبقاء أكثر مني .

ــ هذا مرعب .

ــ ربما اختلف الأمر عما نتخيله .

ــ لكن ، ألا تحسدني ...؟

ـــ هاري ، هذه مسألة تتعلق بالهدف ، هذا ما أظنه إن لم أخطىء التعبير . أتفهمين ، إن هدف وجودك على متن المحطة مبهم ، كما هو مبهم الغرض من وجودي أيضاً . إنهما سيتابعان تجربة غيباريان ، ويمكن أن يحدث كل شيء ...

ـــ أو لا شيء ...

ـــ أو لا شيء. وأضيف لك أنني لا أرغب بحدوث أي شيء . لا أقول ذلك من خوفي (مع أنه يلعب دوراً) ، بل لأن ذلك لن يثمر عن شيء . أنا على ثقة من ذلك ولا غير .

ـــ لن يثمر عن شيء . لماذا ؟ الحديث يدور حول هذا ... المحيط .

وارتعشت .

ـــ عن إقامة الصلة . نعم . إنهما يعتقدان أن ذلك أمر بسيط . إن إقامة الصلة تعني تبادل المعلومات ، والمفاهيم والنتائج ... وإن لم يكن هناك شيء نتبادله ؟ إن لم نر الفيل عبارة عن بكتيريا كبيرة ، فلا يمكننا أن نتصور المحيط عبارة عن دماغ كبير . طبعاً يستطيع الطرفان القيام بأفعالهما . وكنتيجة لأحدهما ، أنظر إليك الآن وأحاول أن أشرح لك ، إنك بالنسبة لي أغلى من العشرين سنة الفائتة والتي قضيتها في دراسة سولاريس ، وأنني أريد البقاء معك . ربما كان سبب ظهورك هو مجرد تجربة لي ، أو خدمة ، أو أبحاثاً ميكروسكوبية أو ربما تعبيراً عن الصداقة ، أو ضربة دنيئة ، أو سخرية ، أو كل ذلك مجتمعاً ـــ والاحتمال الأرجح ، لسبب لم أذكره بعد ولا أعرفه . ويبقى التساؤل الأساسي ، ما دام الأمر كذلك فهل علينا أن نشغل أنفسنا بمآرب والدينا * بغض النظر عن اختلافهما الكبير ؟

* المقصود هنا : الأرض وسولاريس (المترجم)

ستقولين أن مستقبلنا مرتبط بمآربهما . أتفق معك في هذه النقطة ، فأنا لا أستطيع أن أتوقع ما سيحدث ، كما أنت ، ولا أعدك أنني سأحبك دوماً . لن يدهشني أي شيء آخر بعدما شاهدته اليوم . لربما تحولت غداً إلى قنديل بحر أخضر،هذا شيء لا يتعلق بنا . سنكون معاً في الأمور المتعلقة بنا وحدنا . وهل هذا قليل ؟

ــ اسمع ــ قالت هاري ــ هناك شيء آخر ... أنا ... أشبهها أم تشبهني .... لهذه الدرجة ؟

ــ كانت تشبهك جداً ، أما الآن فلا أعرف .

ــ من هي ؟...

ورمقتني بعينيها الواسعتين .

ــ لقد حجبتها .

ــ هل أنت واثق أنك لا ... بل لي ؟ لي ؟

ــ نعم . لك . لا أعرف . أخاف أن تكوني الحقيقية ، عندئذ لن أستطيع أن أحبك .

ــ لماذا ؟

ــ لأني قمت بعمل مرعب .

ــ معها ؟

ــ نعم ! عندما كنا ...

ــ لا تتحدث .

ــ لماذا ؟

ــ لأني أريد منك أن تعرف أنني ــ لست هي .

المحادثة

بعد عودتي في اليوم الثاني من الغداء ، وجدت قصاصة ورق تركها لي سناوت على الطاولة قرب النافذة ، جاء فيها أن سارتوريوس قد توقف عن العمل في تجميع المحول وسيحاول لآخر مرة أن يؤثر على المحيط بواسطة حزمة شعاع كبيرة . قلت لهاري :

ــ عزيزتي ، علي أن أذهب إلى سناوت .

كان الشروق يلتهب فوق المحيط ويقسم الغرفة إلى قسمين . وقفنا في الظل ، وكان كل ما يقع خارج نطاق الظلال يبدو وكأنه صنع من النحاس ، بحيث لو سقط كتاب من على الرف لسمعت طنينه .

ــ سنتحدث عن التجربة . لا أعرف كيف ستتم . كنت أفضل ، هل تفهمين ..

ــ لا تشرح لي يا كريس . أنا بنفسي أريد ذلك ، شرط أن لا تطيل غيابك عني .

ــ أعتقد أنني سأكون مضطراً للخوض في غمار مناقشة طويلة : اسمعي ، إن رغبت تستطيعين الذهاب معي وانتظاري في الدهليز !

ــ حسناً . وإن لم أصبر ؟

ــ كيف يحدث ذلك ؟ سألتها وأضفت فوراً : لا أسألك من الفضول . أتفهمين ؟ إن عرفت ذلك فربما تستطيعين مقاومته .

ــ أنا خائفة ... ــ أجابت وشحب لونها قليلاً . غير أني لا أستطيع البوح

بما أخافه ، لأنني شخصياً لا أخاف ، بل ... أن أختفي . أشعر بالخجل في اللحظة الأخيرة ولا أستطيع تفسير ذلك، ومن ثم أعود لأصبح عادية . لذا أعتقد أنني مريضة ... ــ أنهت حديثها بكلمات هادئة ثم ارتعشت .

ــ ربما يخامرك مثل هذا الشعور على هذه المحطة اللعينة . سأبذل ما في وسعي لنغادرها في أقرب فرصة .

ــ أتعتقد أن ذلك ممكن ؟

ــ وما المانع ؟ فأنا لست مرتبطاً بها ... مع ملاحظة أن هذا الأمر يتعلق أيضاً بما سنقرره مع سناوت . كيف تفكرين ؟ هل تستطيعين البقاء وحدك طويلاً ؟

هذا أمر يتعلق ... قالت بصوت خافت ونكست رأسها ــ إن كنت أسمع صوتك فربما أستطيع مقاومة نفسي .

ــ من الأفضل ألا تستمعي إلى حديثنا . لا أطلب ذلك بهدف إخفاء الأمور عنك ، بل لأنني لا أعرف ما سيقوله سناوت ...

ــ لا داع لذلك . أفهم . حسن . سأقف بحيث لا أسمع سوى صوتك . هذا يكفيني .

ــ إذن سأتصل به من المخبر . سأدع الباب مفتوحاً .

هزت برأسها موافقة . خرجت إلى الدهليز عبر الجدار الملون بالأحمر . تراءى لي أن لون الدهليز أحمر مع أن المصابيح كانت مضاءة . كان باب المخبر الصغير مفتوحاً . وكانت قطع وعاء ديوار المتناثرة على الأرض في أسفل الاحتياطات الكبيرة من سائل الاوكسجين هي الأثر الوحيد المتبقي من ليلة البارحة . أضيئت الشاشة الصغيرة حالما رفعت السماعة وطلبت الرقم . بعد ذلك انشطر الشريط المزرق الذي كان يغطي زجاج الشاشة الأربد ، وظهر سناوت جالساً على كنبة مرتفعة مستنداً على يده ونظر مباشرة في عيني . وسمعت صوته :

ـــ أهلاً بك .

ـــ قرأت رسالتك . أود التحدث إليك . هل أستطيع القدوم إليك .

ـــ تستطيع . الآن ؟

ـــ نعم .

ـــ تفضل . هل ستكون معك ... ألن تكون وحدك ؟

ـــ وحدي .

اتخذ وجهه البرونزي المحروق النحيل بتجاعيده الحادة على جبينه تعابير ذات معان عديدة . كان يبدو من خلال الشاشة المدببة بجلسته المواربة أشبه بسمكة غريبة تعيش في حوض ماء .

ـــ إذن ، انتظرك .

ـــ لنذهب ياعزيزتي ـــ قلت بصوت مصطنع طيب وأنا أدخل الغرفة من خلال رسومات الظلال التي لم أر بعدها سوى خيال هاري .

انقطع صوتي . كانت تجلس متقوقعة على الأريكة متشبثة بمساندها . ربما سمعت صوتي متأخراً ، أو لم تستطع أن تخفف من وضعيتها المرعبة لتأخذ وضعها الطبيعي . إن ما شاهدته خلال ثانية كاف لأتصور كيف كانت تصارع تلك القوة الغريبة الداخلية والتي اختفت فجأة ، فانتابتني موجة غضب جنوني أعمى مصحوبة بشعور من الشفقة .

مشينا سوياً في الدهليز . مررنا قرب جزء من المحطة مطلي بميناء متعدد الألوان ليعطي جواً من التجدد في هذه القمـرة المعدنيـة وذلك حسب آراء مصمميه . ومن بعيد شاهدت باب محطة الاتصالات مفتوحاً ، تتسلل من خلاله حزمة ضوء أحمر ملساء طويلة : هذا يعني أن نور الشمس قـد وصل هـذه الناحية . ألقيت نظرة على هاري التي لم تحاول حتى أن تبتسم . لاحظت طوال الطريق كيف كانت تستعد لتقاوم نفسها . لقد غير هذا الجو المتوتر من تعابير

وجهها الذي شحب لونه ، كأنه أصبح أصغر مما كان عليه . وقفت بعيداً عن الباب بضع خطوات . التفتُّ نحوها فدفعتني برؤوس أصابعها . تراءى لي في تلك اللحظة أن كل مخططاتي والمحطة وسناوت ضئيلة قياساً بذلك العذاب الذي كان عليها أن تحتمله .

رأيت نفسي سفاحاً ، وأردت أن أعود إليها عندما غمرت حزمة ضوء عريضة ظلال إنسان . أسرعت في خطواتي ودخلت الغرفة . كان سناوت يقف قرب العتبة وكأنه قادم لملاقاتي . كانت الشمس الحمراء تلتهب خلف ظهره مباشرة مشكلة هالة أرجوانية تظهر من شعره الشائب . وقفنا صامتين بعض الوقت ننظر إلى بعضنا . بدا وكأنه يدرس تعابير وجهي . لم أستطع رؤية وجهه المعمي بالنور . مررت قربه ووقفت قرب المنضدة التي كانت تلوح عليها قضبان الميكروفونات المرنة ، التفت سناوت ببطء وراح يراقبني بهدوء ورسم على فمه تلك التصعيرة التي كانت تبدو أحياناً مثل ابتسامة وأحياناً كتعبير عن الإرهاق . اقترب سناوت من الخزانة المعدنية دون أن يرفع بصره عني ، تلك الخزانة المليئة بالقطع الاحتياطية العديدة لأجهزة الاتصال والمعدات والبطاريات الحرارية ، ثم جر الأريكة وجلس مستنداً إلى الباب المطلي بالميناء . تحول الصمت الذي كنا نحافظ عليه إلى شيء غريب . ركزت انتباهي إلى سكينة الدهليز حيث بقيت هاري ، لكنني لم أسمع أي صوت من هناك .

سألته :

ــ متى ستكون جاهزاً ؟

ــ يمكننا أن نبدأ اليوم ، لكن التسجيل يحتاج لبعض الوقت .

ــ التسجيل ؟ هل تعني البرنامج ؟

ــ نعم . لقد وافقت على ذلك . أم أنك غيرت رأيك ؟

ــ كلا ، أبداً .

ــ أنا مصغ ــ قال سناوت بعدما أصبح الصمت قاتلاً .

ــ أصبحتَ تعرف ... عني . ــ أخفضت صوتي حتى الهمس . ورفع سناوت حاجبيه .

ــ نعم ؟

تشكل لدي انطباع أن دهشته لم تكن حقيقية ، فلماذا يتظاهر بذلك ؟ لم تعد لدي رغبة بمتابعة الحديث لكنني استطعت التغلب على ذاتي . « ليكن ذلك وفاء مني ، إن لم يكن هناك سبب آخر » .

ــ بدأت تخمن ذلك بعد محادثتنا في المكتبة ، ثم راقبتني وقارنت الأشياء ببعضها ، بعد ذلك وجدت مسجل غيباريان واستمعت إلى شريط التسجيل .

لم يبدل من وضعيته ، وظل مستنداً إلى الخزانة واشتعلت النار في عينيه . كنت أرى الدهليز وأنا أقف قرب المنضدة . فتكلمت بصوت خافت جداً .

ــ ليلة البارحة حاولت الانتحار بسائل الأوكسجين عندما كنت نائماً .

سمعت حفيفاً ، شبيهاً بحفيف ورقة في مصد الريح . تسمرت مصغياً لما يجري في الدهليز . كان مصدر الصوت قريباً . صأصأ شيء مثل فأر . فأر ! ما هذه السخافة ! لا وجود للفئران هنا . نظرت إلى سناوت من تحت حاجبي .

ــ أستمع إليك . ــ قال سناوت بهدوء .

ــ طبعاً لم تستطع القيام بذلك . على كل حال هي تدرك من تكون .

سألني بسرعة :

ــ لماذا تخبرني بذلك ؟

لم أعرف ما أجيبه في بادىء الأمر .

ــ أريد أن تتخذ وجهتك .. أن تتفهم الوضع ..

ــ لقد حذرتك .

وارتفع صوتي رغماً عن إرادتي :

ـــ هل تقصد أنني أعرف ...

ـــ كلا . طبعاً لا . لكني شرحت لك كيف تجري هذه الأمور . إن كل « زائر » في لحظة ظهوره هو مجرد شبح خارج الذكريات والأشكال المشوهة التي يستمدها الإنسان من ... آدمه ، ويكون في تلك اللحظة فارغاً تماماً . بقدر ما يتعايش معك فترة أطول بقدر ما يصبح إنساناً أكثر . وبالتالي يحوز على استقلاليته ، طبعاً ضمن حدود معينة ، لذلك بقدر ما تستمر هذه الحالة ، بقدر ما يصعب ...

لم ينه عبارته ، ورمقني بنظرة خاطفة وقال بمرارة !

ـــ هل تعلم كل شيء ؟

ـــ نعم لقد كلمتك .

ـــ كل شيء ؟ أتعلم أنها جاءت قبل هذه المرة إلى المحطة وأنك ...

ـــ لا .

ضحك ساخراً .

ـــ اسمع يا كيلفن ، إن كان الأمر قد وصل إلى هذا الحد فما الذي ستفعله ؟ هل ستغادر المحطة ؟

ـــ نعم .

ـــ معها ؟

ـــ نعم .

صمت مفكراً بجوابي . كان صمته يتضمن شيئاً آخر . ترى ما هو ؟ من جديد سمعت تلك الصأصأة آتية من خلف الجدار الرقيق .

تململ سناوت في مكانه :

ـــ ممتاز . لماذا تنظر بهذه الطريقة ؟ هل تعتقد أنني سأقف في وجهك ؟ كلا يا عزيزي . تستطيع أن تفعل ما تشاء وإن أضفيتما طابع الحذر على عملكما

فستبدوان بمظهر لائق . لست عازماً على إعاقتك ، كل ما أريد أن أقوله : أنك تتصرف كإنسان في وضع لا إنساني . ربما يبدو لك الأمر جميلاً ، لكنه بدون فائدة ، مع أنني لست واثقاً من جمالية ما ستفعله . وهل يمكن للحماقة أن تكون جميلة ؟ والقضية ليست هنا . إنك ترفض متابعة بقية التجارب وتريد مغادرة المحطة معها ، أليس كذلك ؟

ـــ نعم .

ـــ هذا يبدو بحد ذاته بمثابة تجربة أيضاً . هل فكرت بذلك ؟

ما هو قصدك ؟ هل هي ... تستطيع ؟ إن كانت معي فإنني لا أرى ...

صرت أتكلم ببطء ومن ثم توقفت . تنفس سناوت بهدوء .

ـــ نحن هنا ننفذ سياسة طويلة الأمد يا كيلفن ، وفي أسوأ الاحتمالات نعرف ذلك على الأقل ، بيد أننا لا نباهي بها .

ـــ أنا لا أتباهى بشيء .

ـــ حسن لا أريد إزعاجك . اسحب كلامي فيما يخص النبالة . لكن السياسة الطويلة الأمد تبقى في مكانها وأنت تنفذ هذه السياسة في صيغة خطرة . إنك تخدع نفسك وتخدعها لتخدع نفسك من جديد . إنك على علم بشروط استقرار الأنظمة المبنية على المادة النيترونية ؟

ـــ كلا . وأنت لا تعرف أيضاً . هذا ما لا يعرفه أحد .

ـــ طبعاً . لكن هناك شيء معلوم ، إن هذا النظام لا يستقر ولا يتواجد إلا بفضل تيار لا ينقطع من الطاقة . لقد شرح لي سارتوريوس هذا . وهذه الطاقة تولد دوامة تثبيت المجال . لهذا أتساءل هل المجال مجرد غطاء خارجي بالنسبة « للزائر » ، أم أن مصدر هذا المجال يقع في داخله . أتفهم الفارق بين الأمرين ؟

ـــ نعم إن كان خارجياً و ... هي ... مثل ...

ـــ ستنهار . سينهار نظام تكوينها في حال ابتعادها عن سولاريس . نحن

لا نستطيع تأكيد ذلك ، وأنت من أجرى التجربة . فالصاروخ الذي أطلقته لا يزال يدور في المدار . لقد انتهزت فرصة فراغ وحددت عناصر حركته . وأنت تستطيع أن تحلق وأن تخرج بنفسك إلى المدار وتقترب من الصاروخ لتتأكد مما حصل ... مع المسافرة فيه .

وصرخت في وجهه .

ـــ هل جننت ؟!

ـــ أهذا رأيك ؟ ولنفترض ... حسن هيا بنا نعمل لإعادة الصاروخ إلى مكانه . فما رأيك ؟ هذا عمل سهل للغاية . تستطيع بواسطة أجهزة التحكم عن بعد إخراج الصاروخ عن مداره و ...

ـــ كفى .

ـــ لا توافقني على ذلك أيضاً ؟ هناك طريقة أخرى بسيطة جداً ولا تحتاج إلى عودة الصاروخ إلى المحطة . ولماذا نعيده ؟ لندعه يدور كما يشاء ولنجري اتصالاً لاسلكياً معها ، وستجيبنا إن كانت حية ...

ـــ لكن ... لقد انتهى الأوكسجين هناك منذ فترة بعيدة .

خرجت الكلمات مني بصعوبة .

ـــ إنها لا تحتاج للأوكسجين . تعال لنجرب .

ـــ سناوت ... سناوت ...

ـــ كيلفن كيلفن ... قاطعني متأثراً ـــ فكر أي إنسان أنت . من تريد أن تسعد ؟ أن تنقذ ؟ نفسك ؟ تنقذها ؟ هل تريد إنقاذ تلك التي ما زالت تحلق في الصاروخ أم هذه التي معك الآن ؟ وهنا الشجاعة لا تكفي لإنقاذ الاثنتين معاً . ها أنت ترى بنفسك إلى أي شيء يقودك هذا الأمر ! أقول لك ولآخر مرة ، لا يقع الوضع هنا ضمن المقاييس الأخلاقية .

فجأة سمعت ذلك الصوت من جديد ، كأن أحداً يخربش بأظافره على

الجدار . اعترتني لا مبالاة سلبية . شعرت كأنني أنظر إلى هذا الوضع وإلى شخصينا من مسافة بعيدة جداً ، من خلال منظار أستخدمه مقلوباً رأساً على عقب ، وبدا الأمر ضئيلاً مضحكاً لا قيمة له .

ــ حسناً ، إذن قل لي ماذا أفعل ؟ هل أبعدها ؟ وغداً ستظهر مثلها ، أليس كذلك ؟ وستتكرر المسألة ؟ هذا ما سيحدث كل يوم ؟ وإلى متى ؟ ولماذا ؟ وما فائدة ذلك ؟ ما فائدة ذلك بالنسبة لك وللمحطة ولسارتوريوس ؟

ــ لا ، عليك أن تجيب أولاً على سؤالي . هل ستطير معها وستكون ، لنقل شاهداً على التبدلات التي ستطرأ عليها . سترى بعد دقائق ...

ــ ما الذي سأراه . أعجوبة الأعاجيب ؟ الشياطين ؟ ماذا ؟

ــ لا ، سترى سكرات موت حقيقية . هل أنت واثق من عدم موتها ؟ أصدقك القول أنهم يموتون أيضاً ... ما الذي ستفعله آنذاك ... هل ستعود لتأخذ الاحتياطية ؟

ــ كفى !!! صرخت في وجهه وشددت على قبضتي .

رمقني بنظرة متسامحة من عينيه المتسعتين .

ــ آها . يجب أن أتوقف ؟ هل تعلم لو أنني في مكانك لقطعت هذا الحديث . من الأفضل أن تفعل شيئاً آخر . مثلاً أن تجلد المحيط بالسوط . ما الذي يعذبك ؟ إن كان ... ــ حرك يده بحركة وداع مبالغ فيها ، ثم رفع رأسه إلى السقف كمن يراقب شيئاً طائراً . ستكون دنيئاً ؟ أما هكذا ــ فلا . ألا تعد دناءة أن تبتسم في الوقت الذي ترغب فيه أن تعوي ، وأن تتظاهر بالهدوء والسعادة في الوقت الذي تريد ضرب رأسك بالحائط ؟ وما الذي ستفعله إن كان الوضع لا يسمح إلا أن تكون بهذا الشكل ؟ ستهجم على سناوت المذنب في كل شيء ، أليس كذلك ؟ وأضيف لك ، أنك أبله يا عزيزي ...

ــ أنت تصف نفسك ــ تمتمت ونكست رأسي ــ أنا أحبها .

ـــ من تحب ؟ ذكرياتك ؟

ـــ كلا . أحبها . لقد رويت لك ما أرادت أن تفعله . هذا أمر لا يفعله إلا قليلون ... من الناس الحقيقيين .

ـــ ها أنت تعترف بنفسك .

ـــ لا تتصيد كلماتي بالمعنى الحرفي لها .

ـــ حسن . وهكذا فهي تحبك إذن . وأنت تريد أن تحبها . ألا يعد ذلك أمراً واحداً .

ـــ أنت مخطىء .

ـــ كيلفن . مع أنني لا أستلطف هذا الحديث ، لكنك أنت من تحدثت عن أفعالك الودية . تحب . لا تحب . وهي جاهزة لتقدم لك حياتها . وأنت أيضاً . هذا شيء مؤثر جميل جداً ، بل رائع . كل ما تريده في غاية الروعة . لكن لا مكان هنا لكل ما تذكره . لا . هل تفهم ؟ . لا . أنت لا تريد أن تفهم . هذه قوى ليست تحت سيطرتنا . وأنت تدور في حلقة مفرغة لا مخرج منها ، وهي تشكل جزءاً من هذه العملية . تشكل مرحلة . تكرر نفس الإيقاع . إن كانت ... إن جاءتك كشيء يقوم بأفعال مرعبة لما تأخرت لحظة ومن دون أية ذبذبة في العمل على التخلص منها . أهذه حقيقة أم لا ؟

ـــ حقيقة

ـــ ربما ... لهذا السبب تبدو في صورة ليست موحشة ؟ أهذا ما سيكبل يديك ؟ وعن هذا الموضوع يدور الحديث ، أي كي تبقى يداك مكبلتان !

ـــ هذه نظرية يمكن إضافتها لتلك الملايين المحفوظة في المكتبة . دعك من هذا يا سناوت . إنها ... لا . لا أريد الحديث معك حول هذا الموضوع .

ـــ حسناً . أنت من بدأ الحديث . لكن فكر جيداً في جوهر الأمر . إنها ليست أكثر من مرآة ينعكس فيها جزء من دماغك . إن كانت رائعة فذلك يعود إلى

ذكرياتك الجميلة عنها . أنت من قدم الوصفة ــ الحلقة . لا تنسى ذلك .
ــ ما الذي تريده مني ؟ أن ... أن أبعدها ؟ لقد سألتك ولم تجبني .
ــ سأجيبك الآن . فأنا لم أطلب منك إقامة هـذا الحوار ، ولم أتدخـل في شؤونك . لم آمرك بشيء ، ولم أمنع عنك شيء ، حتى لو كنت أستطيع فعل ذلك ، فلن أفعل . أنت من جاء وصرح بكل شيء ، فهل تعرف لماذا ؟ كلا . إنك تفعل ذلك لترفع عن نفسك المسؤولية ، لترميها عن كاهلك . إني أدرك هذا الثقل ياعزيزي ! نعم ، نعم ، أرجو أن لا تقاطعني ! فأنا لن أقـف في وجهك على الرغم من أنك تريد ذلك . ستحطم رأسي إن وقفت في طريقك . وسيكون آنذاك حساب لك معي ، حساب مع أعمـى مـن دمك ولحمك وستشعـر بنـفسك أنك إنسان . أمـا هكـذا ... فلـن تحل المعضلـة ولـذلك تجادلني ... أما حقيقة الأمر فإنك تجادل نفسك ! قل لي أيضاً أنك ستحزن كثيراً لو اختفتْ فجأة ... لا ، الأفضل أن لا تقول شيئاً .
ــ إذن اسمع ! لقد جئت من شعوري بالوفاء نحوكما ، ولأخبرك أنني عازم على مغادرة المحطة .
هذا ما قلته لسناوت لأصد هجومه ، ومع ذلك بدت كلماتي غير مقنعة ، وهز سناوت كتفيه .
ــ من المحتمل أن تبقى على رأيك . لقد تحدثت معك لسبب ، هو أنك تحلق بعيداً بأفكارك ، والسقوط ... أنت تعرف ماذا يعني ... أصعد غداً في التاسعة صباحاً إلى الطابق العلوي ، إلى سارتوريوس ... هل ستأتي ؟
ــ إلى سارتوريوس ؟! ــ تعجبت . ــ إنه لا يسمح لأحد بالدخول إليه .
ــ لقد جهزت الأمور عنده . نحن لا نتحدث عن هذا الموضوع . وأنت ... أمر آخر كلياً . هذا لا يهم . هل ستأتي غداً ؟
ــ حسناً سآتي .

نظرت إلى سناوت . اختفت يده اليسرى خلف الخزانة . بدا الأمر كأنه صدفة . متى انفتح الباب ؟ ربما جرى ذلك منذ فترة طويلة أثناء ذلك الحديث الذي أزعجني ، لذلك لم أنتبه له . كان وضعه لا طبيعياً ، كأنه .. يخفي شيئاً هناك . أو أن أحداً يمسك بيده . مررت لساني على شفاهي :

ـــ مابك يا سناوت ؟

ـــ اخرج ـــ خاطبني سناوت بصوت هادىء خافت . ـــ اخرج .

خرجت وأغلقت الباب المضاء بهالة حريق أحمر . كانت هاري جالسة على الأرض على بعد عشرة خطوات من الباب ، ملتصقة بالجدار . قفزت واقفة عندما شاهدتني .

ـــ هل ترى ؟ ـــ قالت ورمقتني بعينيها البراقتين . ـــ لقد فعلتها يا كريس ... أنا سعيدة جداً . ربما ... ربما سنتخلص من ذلك ...

ـــ آ . ربما . أجبتها بذهول .

عدنا إلى حجرتنا ، وكاد رأسي ينفجر لكثرة محاولاتي معرفة سر تلك الخزانة الغبية . هل يعني أنه خبأ فيها ...؟ وحديثنا ...

بدأت وجنتاي تلتهبان حتى أنني فركتهما . ما هذا الجنون ؟ هل اتفقنا في شيء ؟ لم نتفق . الحقيقة أنه غداً صباحاً ...

غمرني الرعب فجأة ، كان رعباً شبيهاً برعب آخر ليلة . مخطط دماغي ... التسجيل الكامل لكافة العمليات الدماغية ، سيرسل إلى الأسفل كحزمة أشعة متذبذبة . إلى أعماق هذا المجهول الهائل اللامحدود . مثلما قال سناوت : « ستحزن جداً إن اختفت فجأة ، أليس كذلك ؟ » المخطط الدماغي . هذا يعني تسجيلاً كاملاً لعمليات العقل الباطني أيضاً . أيحتمل أني رغبت أن تموت ، أن تختفي ؟ إن لم تكن لدي مثل هذه الرغبة لكنت ذهلت من بقائها على قيد الحياة بعد محاولتها الفظيعة بالانتحار . ترى هل أنا مسؤول عن أفكاري الباطنية ؟

وإن كنت لست مسؤولاً عنها فمن المسؤول ؟ .. أية حماقة ؟ من أجل أية شياطين وافقت على أن يأخذ مخطط ... مخطط دماغي ... طبعاً أستطيع إلقاء نظرة تمهيدية على التسجيل ، لكن لن أتجرأ على قراءته . هذا شيء لا يستطيع أن يفعله أحد . الأخصائيون وحدهم القادرون على تحديد الأفكار التي وردت في رأس من يسجلون مخطط دماغه ، وهم في نفس الوقت غير قادرين على تحديدها إلا بخطوطها العريضة . مثلاً هم يستطيعون معرفة أن ذلك حلٌّ لمسألة رياضية ، لكنهم غير قادرين على تحديد تلك المسألة . ويؤكدون أن تحديد ذلك مستحيل ، لأن تخطيط الدماغ هو عبارة عن تسجيل ـــ تم مصادفة ـــ لخليط من العمليات المتعددة والكبيرة والمستمرة في الوقت نفسه ، يحتوي جزء منها على « بطانة » نفسية . أما العقل الباطني ؟ فهم يرفضون حتى مجرد الحديث عنه ، وكيف لهم أن يقرأوا ذكريات انقضت أم لم تنقض لشخص محدد ... لكن لماذا أخاف بهذا الشكل ؟ لقد قلت لهاري في هذا الصباح أن التجربة لن تجدي نفعاً إن كان أخصائيو الجملة العصبية غير قادرين على قراءة التسجيل فكيف لهذا السائل الهائل الأسود المرعب الغريب أن ...

لا أعلم كيف دخل إلى أعماقي ليقيس ذاكرتي ، وكيف وجد المكان المؤلم فيها . كيف أرتاب في ذلك . لقد استطاع من دون أية مساعدة ومن دون أن يستخدم أية « إرساليات شعاعية » الدخول إلى المحطة ويعبر درعها المحصن بجدارين . ومن ثم يجدني داخلها ، ثم يغادرها حاملاً معه الغنيمة ...

ـــ كريس ؟ نادتني هاري بهدوء .

وقفت قرب النافذة مثبتاً ناظري في العتمة المتكاثفة .

إن اختفت بعد ذلك فهذا يعني أنني أردت ذلك ... بمعنى أنني قتلتها . هل سأصعد إليهما ؟ لن يستطيعا أن يجبراني . وماذا أقول لهما . هذا ـــ لا ، لا أستطيع . إذن عليّ أن أكذب ، أن أمثل من جديد وباستمرار . وهذا ناتج

عن احتمال وجود أفكار وأهداف وآمال مرعبة مجرمة في داخلي ولا أعرف عنها شيئاً . أنا إنسان خرج ليتعرف على عوالم أخرى ، على حضارات أخرى ، دون أن يدرك تماماً مخابئه الداخلية ، دون أن يدرك أزقته وآباره وحواجزه وأبوابه القاتمة . هل أخونها من أجلهما ... لخجلي منهما ؟ هل أخونها لأن شجاعتي لا تكفيني ؟

ـــ كريس ... خاطبتني بصوت هامس .

شعرت بذلك أكثر مما لو كنت سمعت وقع أقدامها وهي تقترب دون جلبة . تظاهرت أنني لم ألاحظ شيئاً . رغبت بالبقاء وحدي في تلك اللحظة . كنت بحاجة لذلك . لم أتخذ قراري بعد و لم أصل لنتيجة . وقفت دون حركة أنظر إلى الظلام الذي بدأ يخيم على السماء رويداً رويداً وإلى النجوم التي بدت كظلال شفافة لنجوم الأرض ، وترعرعت ثقة عمياء لا مبالية في الفراغ الذي حل مكان الأفكار المتلاحقة المجنونة ، وهناك اخترت طريقي في أعماق وعي الذي لا أصل إليه وتظاهرت أن شيئاً لم يحدث ، و لم تكن لدي القوة الكافية لأحتقر نفسي .

التجربة

ــ ما بك يا كريس ، هل تعاني من أجل تلك التجربة ؟ ارتعشت من صوتها .
بقيت متمدداً عدة ساعات في الظلام دون نوم . لم أكن أسمع حتى أنفاسها .
كنت ضائعاً في متاهات أفكاري الليلية الشفافة اللامعقولة ، والتي كانت تكتسب من جراء ذلك أهمية جديدة ، ولذلك نسيت وجودها .

ــ ماذا ... كيف عرفت أنني لست نائماً ؟ خرج صوتي خائفاً .

ــ من إيقاع أنفاسك ... ــ أجابت بصوت خافت خائف . ــ لا أريد إزعاجك ولا أطلب منك أن تجيب إن لم ترغب بذلك ...

ــ لا ، ولماذا لا أرغب . نعم هذا من التجربة . لقد خمنت صحيحاً .

ــ ما الذي ينتظرونه من التجربة ؟

ــ إنهما لا يعرفان ما يريدان . لا يعرفان أي شيء . لا يجوز أن نسمي التجربة « الفكرة » بل « اليأس » . إنهما يحتاجان الآن لشيء واحد : إنسان لديه الشجاعة ، يأخذ على عاتقه مسؤولية القرار ــ مع أن الغالبية تنظر إلى هذه الشجاعة كجبن عادي ، لأن ذلك يعد تراجعاً . أتفهمين ، استسلام ، هروب لا يشرف الإنسان . إنهما يعتقدان أن ما يشرف الإنسان هو غمسه ، طمسه وإغراقه في شيء لا يفهمه ولن يفهمه أبداً .

توقفت لحظة ، وقبل أن تنتظم أنفاسي المتسارعة اعترتني موجة غضب عارمة .

ــ طبيعي أن يكون الإنسان العملي أبعد ما يكون عن النواقص . يقولان أننا

سندرك أسرار المادة بدراستنا لهذه البلازما ــ لهذه التشكيلات الحية الطائشة التي تخرج منها وتختفي في كل يوم بغض النظر عن إمكانية إقامة الاتصال معها : يبدو الأمر وكأننا لاندرك أن ذلك مجرد هراء وكذب ، شبيه بدخولنا إلى مكتبة مليئة بآلاف المجلدات المخطوطة بلغات لا نعرفها بحيث لا نستطيع إلا أن نتفرج عليها وعلى أغلفتها المختلفة الألوان ... وإلا كيف ؟!

ــ هل هناك كواكب أخرى مثل هذا الكوكب ؟

ــ لا نعلم . من الجائز أن تكون هناك كواكب أخرى ، بيد أننا لا نعرف سواه . وفي كل الأحوال هذه مسألة نادرة للغاية . إنه لا يشبه الأرض . نحن ... نحن عاديون ، نحن مجرد حشائش مزروعة ونفتخر بعاديتنا العامة هذه ، ونعتقد أنها تتسع لكل شيء . هذا هو مخطط الرواد الذين انطلقوا بجرأة وسعادة يجوبون العوالم الأخرى ! وماذا يعني العوالم الأخرى ؟ هل سنخضعهم أم سيخضعوننا ــ لم نفكر بشيء آخر ... آ . حسن ، هذا أمر لا يستحق الحديث عنه .

نهضت واستطعت بطريقة اللمس أن أجد علبة ملساء للمهدئات في الصيدلية وقلت لهاري في هذا الظلام الساكن الذي كان يعكره أزيز مكيف بعيد :

ــ سأنام يا عزيزتي . يجب أن أنام .

شعرت بالارتياح والفتوة عندما استيقظت صباحاً . بدت لي التجربة لا أهمية لها . لم أفهم لماذا أعطيتها كل هذه الأهمية . كذلك لم تقلقني مسألة ذهاب هاري معي إلى المخبر . لقد ذهبت جهودها عبثاً بعد عدة دقائق من خروجي من الغرفة . رفضتُ بقية المحاولات التي أصرت عليها (إذ وافقت أن أغلق عليها الباب بالمفتاح) ونصحتها أن تأخذ معها كتاباً .

لقد أثارني ما سأراه في المخبر أكثر من الاجراءات التي ستتم . عدا تلك الثقوب الكبيرة في الرفوف والخزائن (لأن بعض جدران الخزائن قد تطايرت

وتشقق لوح باب إحداها على شكل نجمة متشعبة الرؤوس تشير بدقة إلى صراعات حادة وقعت ثم أزيلت آثارها بسرعة وبدقة .) لم يكن باستطاعتي ملاحظة شيء آخر في هذه القاعة المضاءة باللون الأزرق . كان سناوت يتمشى قرب الأجهزة ضابطاً أعصابه واستقبل قدوم هاري كشيء عادي تماماً ، وانحنى لها من بعيد . ظهر سارتوريوس بعدما مسح سناوت جبيني ووجنتي بمحلول فيزيولوجي . دخل سارتوريوس إلى مكان معقم من خلال باب صغير . كان يرتدي مريولاً أبيضاً وسترة دفاعية تصل حتى خديه . القى التحية وكأننا زملاء كنا نعمل سوياً في معهد كبير للأبحاث على الأرض وقد افترقنا البارحة .

لاحظت الآن أن تعابير وجهه الميتة ناتجة عن تلك الزجاجات التي يضعها تحت جفنيه بدلاً من النظارات . عقد سارتوريوس يديه على صدره ونظر إلى سناوت الذي بدأ بلف شرائط الدارة الكهربائية على رأسي . تجول بعينيه عدة مرات في القاعةولم يعر انتباهاً لهاري التي كانت تجلس على مقعد صغير قرب الجدار متحفزة بائسة تتظاهر بقراءة الكتاب . ابتعد سناوت عن أريكتي . أدرت رأسي المثقل بقطع معدنية وتيارات موصلة لأشاهد عملية تشغيل الأجهزة ، غير أن سارتوريوس رفع يديه بغتة وحدثني بروحانية :

ـــ أرجوك يا دكتور كيلفن أن تكون منتبهاً . لن آمرك بشيء لأن ذلك لن يجدي نفعاً ، فقط أرجوك أن تتوقف عن التفكير بنفسك وعني وعن الزميل سناوت وعن كافة الوجوه الأخرى بهدف إبعاد كافة المصادفات . أرجو أن تركز أفكارك على العمل الذي قدمنا من أجله ، أي على الأرض وسولاريس وعلى الأجيال المتعاقبة من البحاثة والعلماء الذين يشكلون وحدة متكاملة ، مع أن لحياة بعض الوجوه بداية ونهاية . أن تركز على إصرارنا على إقامة اتصال ذهني ، وعلى الدرب التاريخي الطويل الذي اجتازته البشرية ، وعلى ثقتنا بمتابعة الدرب ، وعلى استعدادنا لمواجهة كافة الصعاب والتضحيات ، وعلى إخضاع كل مشاعرنا

الشخصية في سبيل هدفنا ــ هذه هي المواضيع التي عليها أن تشغل وعيك . والحقيقة أن مجرى الأفكار لا يخضع بتاتاً للرغبات ، لكن مجرد وجودك هنا يؤكد حقيقة ما أشرت إليه . إن لم تكن واثقاً من نجاحك في إنجاز المهمة فأرجو أن تخبر زميلنا سناوت ليعيد التسجيل . لدينا كثير من الوقت ...

أطلق آخر كلماته مع ابتسامة شاحبة جافة وهو ينظر إلي بنفس تلك النظرة الثاقبة .

شعرت بأمعائي تتقطع من الأهمية التي أعطاها سارتوريوس لتلك العبارات التي نطقها بكل جدية . لحسن الحظ قطع سناوت الصمت الذي خيم وقال وهو يتكيء بمرفقه على جهاز التحكم العالي للمخطط الدماغي الكهربائي بدون تحفظ أو حذر ، كأنه يستند على ظهر أريكة :

ــ هل يمكننا أن نبدأ يا كريس ؟

شكرته من قلبي لمخاطبته لي باسمي .

ــ ممكن أجبته وأغمضت عيني .

وغاب القلق الذي كان يسيطر على دماغي حالما وضع سناوت أصابعه على الأزرار . من خلال رموش عيني شاهدت الضوء الوردي لمصابيح المراقبة على رصيف الجهاز الأسود . تدريجياً ، غاب شعور عدم الارتياح من ملامسة الدارات الكهربائية الباردة الرطبة . كنت مثل حلبة رمادية تنقصها الإضاءة ، وجمهور كبير لا مرئي يراقب هذا الفراغ من علو وقد انتشر حول حلبة مسرح قديم والصمت يعم المسرح بأكمله ، ذلك الصمت الذي يكبر فيه ازدراء ساخر لسارتوريوس ومهمته . رويداً رويداً ضعف التوتر الداخلي للمتفرجين . « هاري » فكرت فيها بحذر مصحوب بقلق مبهم ، بحيث كنت على استعداد للتراجع فوراً . لم تعارض ذلك نفسي المتيقظة العمياء . لبعض الوقت كنت مجرد حساسية تامة ، شفقة حقيقية مستعد للتضحية بدون حدود . لقد ملأتني

هاري من دون أشكال أو هالات وحتى من دون وجه . فجأة ظهر أبو السولاريسيين البروفيسور غيزيه من العتمة الرمادية بكل عظمته وتألقه وذلك من خلال شخصية هاري المندثرة البائسة والعاطفية . لم أفكر بالثوران الطيني ولا بعباب النتانة اللذين ابتلعا نظارته الذهبية وشاربيه وشعره الشائب المسرح بدقة . إن ما شاهدته كان صورةِ لوحة محفورة لوجهه على صفحة الألقاب في بحثه العلمي . كانت صورته مرسومة على خلفية مخططة بخطوط كثيفة رسمها الفنان حول رأسه لتبدو مثل هالة . لم يكن غيزيه يشبه والدي بملامح وجهه ، بل برزانته الأخلاقية القديمة الطراز ، وكان الشبه كبيراً بحيث لم أعد أميز من كان منهما ينظر إلي . لم يكن لأي منهما قبر معروف ــ وهذه حالة أصبحت اعتيادية ومكررة في وقتنا الحاضر . لهذا لم أعان من هذه المسألة .

اختفت الصورتان من أمامي في لحظة واحدة ــ لا أعرف كم استغرق ذلك من الوقت ــ نسيت خلالها كل ما يحيط بي ، المحطة والتجربة وهاري والمحيط الأسود ، وغمرني شعور بالثقة سريع كالبرق من أن هذين الاثنين المفقودين والصغيرين جداً اللذين تحولا إلى حفنة تراب ضئيلة استطاعا تقويض كافة الصعاب التي اعترضت سبيلهما ، وانطلاقاً من هذا الاحساس الرحب بالهدوء تبعثرت كتلة الجمهور الغامضة التي كانت تحيط بالحلبة الرمادية منتظرة لحظة فشلي الذريع بصمت مطبق . سمعت نقرتين متتاليتين ، وانطفأت الأجهزة وسقط شعاع من النور في عيني . كان سارتوريوس ما يزال على وقفته ينظر إلي متفحصاً . أما سناوت الذي أدار ظهره فقد كان مشغولاً بالأجهزة .

وصدح صوت سارتوريوس الكئيب المقزز :

ــ دكتور كيلفن هل تعتقد أنك نفذت المهمة ؟

ــ نعم .

ــ هل أنت واثق من ذلك ؟ سألني مرة أخرى وملامح الدهشة والارتياب بادية

على وجهه .

ـــ نعم .

استطاعت قناعتي الراسخة . وحدة أجوبتي أن تزيل عنه أهميته الباردة .

ـــ هذا ... جيد . تمتم سارتوريوس كأنه لا يعرف ماذا يفعل بي الآن . اقترب سناوت وبدأ يرفع الأحزمة عني .

نهضت وتمشيت في القاعة ، وعاد سارتوريوس في هذه اللحظة بعد أن غاب في الغرفة المظلمة حاملاً معه الشريط بعد إجراء عملية الاظهار والتجفيف . كان التسجيل يمتد بخطوط مهتزة ذات أسنان مضاءة على طول خمسة عشر متراً . كان شبيهاً بعفن ، أو بخيوط عنكبوت تمتد على الشريط الأسود الأملس .

لم يبق لي شيء أفعله ، لكني لم أغادر المكان . وضع زميلاي التسجيل في علبة متأكسدة لجهاز صنع النماذج . نظر سارتوريوس إلى نهاية التسجيل مرة ثانية . تفرس بتلك الخطوط بارتياب ، كأنه يحاول حل الرموز المسجلة لقراءة الفكرة .

اقترب سارتوريوس وسناوت من جهاز التحكم وأشغلاه . ظهر جرن في اللفافات الفولاذية السفلى رافقه صوت خرخرة ضعيف ، وتراكضت أضواء أنابيب المؤشرات الزجاجية العمودية إلى الأسفل مشيرة إلى هبوط الأنبوب الكبير لجهاز الأشعة إلى البئر العامودية ليتوقف في حنجرته المفتوحة .

تسمرت الأضواء في أسفل تقسيمات المدرج ، وبدأ سارتوريوس بمضاعفة التوتر . دارت العقارب . بالأحرى المؤشرات البيضاء التي حلت محل العقارب نصف دورة إلى اليمين . خف الأزيز حتى بات يسمع بصعوبة . و لم يحدث أي شيء أكثر من ذلك . دارت الملفات بالأشرطة تحت الغلاف ، وكان من الصعب رؤية ذلك ، أما العداد فراح يدق مثل ساعة ميكانيكية .

كانت هاري تنظر تارة إلي وأخرى إليهما . اقتربت منها . نظرت إلي بيأس .

انتهت التجربة الآن . اقترب سارتوريوس من رأس الجهاز المخروطي الكبير .
ــ هل نذهب ؟ سألتني هاري بحركة من شفتيها . أشرت برأسي موافقاً .
خرجت ومررت بمحاذاة سارتوريوس دون أن أودع أحداً . لوفعلت ذلك لبدا الأمر من دون معنى .

كان الغسق يلتهب بجمال خارق خلف نوافذ البهو العالي . لم يكن لوناً قرمزياً عادياً كئيباً متورماً ، بل ظلالاً عائمة مرشوشة بفضة زهرية اللون . ظهر سواد ثقيل جامد متورم لسطح المحيط اللامتناهي استجابة لهذه الاشراقة الدافئة اللامعة ببريق ليلكي خفيف . فقط بقي أفق السماء أشقر كما هو .

بغتة توقفت في منتصف الدهليز . لم أتصور أنني سأعود وهاري لنغلق الباب على أنفسنا من جديد في تلك الغرفة الشبيهة بالسجن ، حيث لا نرى منها سوى المحيط . قلت لهاري :

ــ هاري أريد ... أريد إلقاء نظرة على المكتبة ، ألا تعارضين ؟

أجابت بشيء من الانتعاش المصطنع :

ــ أوه ، بكل ارتياح ، سأبحث لنفسي عن كتاب أطالع فيه .

شعرت أن شرخاً قد حدث بيننا منذ البارحة . عليّ أن أكون معها أكثر طيبة . غير أن خمولاً شديداً غمرني فجأة . لا أعرف طريقة استطيع التخلص منها .

عدنا إلى الوراء . دخلنا إلى الموزع . كانت ثلاثة أبواب تفصلها خزائن ذات واجهات زجاجية ضخمة تحمي خلفها زهور مختلفة الألوان .

كان الباب المؤدي إلى المكتبة مغطى من جانبيه بجلد اصطناعي منتفخ لم أحاول لمسه من قبل أبداً لأسباب لا أعرفها . كان البرد يعم في الغرفة الدائرية الكبيرة ذات السقف المرسوم عليه شموس بأسلوب تجاري .

مررت بيدي على أغلفة مجلدات سولاريس الكلاسيكية . أردت أخذ مجلد غيزيه ، لكن نظري وقع على مجلد غرافينسكي المهترىء والذي لم ألحظ وجوده في المرات السابقة .

جلست على كنبة مريحة . كان الهدوء تاماً . بدأت هاري تتصفح كتاباً خلفي . كنت أسمع حفيفاً رقيقاً من جراء ملامستها لأوراق الكتاب . احتوى دليل غرافينسكي على كافة الفرضيات السولاريسية مرتبة حسب نظام أبجدية الحروف . لقد أدخل هذا المُصَنِفُ الذي لم يشاهد كوكب سولاريس البتة بحوث وبروتوكولات الرحلات الاستكشافية والمقالات المختلفة والمعلومات الأولية في دليله . كما أجرى دراسة مفصلة لأعمال علماء الكواكب الذين أجروا دراساتهم على كواكب أخرى ، وألف مصوراً مخيفاً مليئاً بمعادلات أصبحت تافهة في وقتنا هذا ، وقد حطم بذلك تلك الدقة المعقدة للأفكار الناتجة عن هذه الفرضيات .

لم يعد لهذا الدليل أية قيمة إلا كموسوعة طريفة ، فقد نشر منذ عشرين سنة خلت ، ومنذ ذلك الوقت ولغاية اليوم تكوّم جبل من الفرضيات التي لا يمكن لكتاب أن يضمها بين دفتيه . ولم يعد إلا قليل من أولئك العلماء الذين تحدث عنهم الدليل على قيد الحياة ، بالأحرى لم يعد أي منهم يمارس بنشاط مسائل سولاريس . وبعد مطالعة هذا الدليل الذي احتوى على مختلف التيارات والاتجاهات كثروة ذهنية ، يتشكل انطباع أن إحدى هذه الفرضيات لا بد أن تكون حقيقية ، ولا يمكن للواقع أن يخالف أو يغاير هذه الآلاف المؤلفة من المقترحات . لقد قسم غرافينسكي أبحاث سولاريس التي جرت خلال ستين عاماً إلى مراحل . بدأت المرحلة الأولى من لحظة اكتشاف سولاريس . في هذه المرحلة لم يتقدم أي من العلماء بنظرية تعتمد على المعرفة الحقيقية . لقد قرروا

عن طريق « الحدس » وبما يتناسب والمنطق الصحيح اعتبار المحيط كتلة ميتة من المواد الكيميائية تملك القدرة على تشكيل أشكال غريبة بفضل نشاطها « البركاني » . ويستقر المدار المتأرجح نتيجة للعمليات الأتوماتيكية المختلفة ، وهو أشبه برقاص يتمسك بالسطح الخلفي للمتأرجح . والحقيقة أن ماجينو تحدث بعد ثلاث سنوات فقط ولأول مرة عن الطبيعة الحية « للسيارة الهلامية » ، بيد أن غرافينسكي لم يؤرخ مرحلة الفرضيات البيولوجية إلا بعد مضي تسع سنوات ، وذلك بعد أن حازت نظرية ماجينو على أنصار كثيرين . قبل ذلك ظلت هذه النظرية وحدها في الظلام بعيدة عن الأنظار . وفي مرحلة وفرة المعلومات ، أي في السنوات التالية تكونت نماذج جديدة عديدة معقدة ومدعمة بتحاليل بيورياضية للمحيط الحي .

تميزت المرحلة الثالثة بانهيار كافة الفرضيات السولاريسية التي استمرت أعواماً كثيرة . وظهرت أعداد كبيرة من النظريات المنافسة بجد . كان ذلك عصر نشاط كل من بانماليز ، شتروبل ، فريهاوز ، أوسيبوفيتش ، وتعرضت مخلفات غيزيه لنقد قاتل . وصدرت أولى المصورات والأطالس والصور المجسمة للمتماثلات ، التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين مجرد تكوينات لا يمكن دراستها . لقد حدث هذا الانعطاف بفضل أجهزة الاستشعار عن بعد ، التي أرسلت إلى الأعماق المتدفقة وهي تهدد في كل لحظة بانفجار الجبابرة ، عندذاك ظهر أصحاب فرضيات « الحد الأدنى » الذين قالوا ، أنه في حال عدم إنجاز عملية « الاتصال » السيئة الصيت مع « الغول المفكر » فإن دراسة المقلدين والجبال الكروية التي يطلقها المحيط ليبتلعها فيما بعد . تقدم لنا معلومات كيميائية ، وكيما ـــ فيزيائية في غاية الأهمية ، وتقدم أيضاً معلومات جديدة عن بنيان الجزيئات الهائلة الخ . آنذاك لم يحاول أحد مجادلة أنصار هذه الأفكار . في تلك المرحلة لم تكن مصورات الأشكال المتحولة ونظرية فرانك البيو بلازمية قد

فقدت أهميتها بعد مع أنها دحضت كنظرية واعتبرت غير صحيحة . مع ذلك بقيت تلك المرحلة تقيم كمثال رائع لقوة المنطق وللسعة الذهنية .

لم تكن مراحل غرافينسكي سوى مراحل الشباب الساذج والعفوية الرومانسية المتفائلة . أخيراً ظهرت أولى الأصوات التشككية بنضوج العلم السولاريسي . من جديد ظهرت نظريات ميكانيكية غروانية عن لا عقلانية المحيط السولاريسي . واعتبرت كافة الأبحاث المتعلقة بإرادة الأمواج الواعية والعمليات الهادفة والأفعال الناتجة عن المتطلبات الداخلية للمحيط مجرد تصورات منحرفة نتجت عن خبل جيل كامل من العلماء . لقد دفع سعيهم الحثيث لنقض تلك التأكيدات القيام بإجراء عمليات تحاليل واعية اعتمدت على كمية هائلة من الوقائع التي جمعها فريق هولدين وايونيديس وستوليفي . كان ذلك عصر انتشار وتضخم الأرشيفات والميكرو ــــ أفلام ، والألبومات والفهارس . انطلقت البعثات الاستكشافية واحدة تلو أخرى ، وقد جهزت كافة البعثات بأحدث التقنيات من مسجلات آلية ومؤشرات ومسابر ، باختصار جهزت البعثات بكافة التجهيزات التي قدمتها تكنولوجيا الأرض . وقد اشترك أكثر من ألف شخص في بعثة واحدة . وفي الوقت الذي كان إيقاع جمع المعلومات في أشده بدت الفكرة التي غذت العلماء بالأمل ، بدت فكرة عديمة الجدوى . وبدأ العلم السولاريسي ينهار . (هذه مرحلة يصعب تحديدها زمنياً) .

إن تاريخ دراسة سولاريس يرتبط بأسماء رجال فريدين ومشهورين وعظماء ، من ذوي الشخصيات المتميزة أمثال غيزيه وشتروبل وسيفاد الذي كان آخر علماء السولاريسيين ولقد توفي في ظروف محيرة في منطقة القطب الجنوبي للكوكب . مات بشكل غبي مثل مبتدىء .

لقد توجه بطائرته المحلقة فوق المحيط إلى عمق « المتسارع » .

جرت الحادثة أمام أعين مئات المراقبين ـــ كانت واضحة تماماً ـــ حاول المتسارع أن يخلي الطريق له . ثم تحدثوا عن ضعف أصابه بغتة ، أو عن غيبوبة أو خطأ في التوجه . والحقيقة ، برأيي ، هي أن موته يشكل أول عملية انتحار ، أول انفجار مباغت لليأس . الأول وليس الأخير .

تدريجياً غابت الوجوه العظيمة عن العلم السولاريسي . لا شك أن ولادة رجال عظماء ، من ذوي القدرات الكبيرة مستمر بهذا الشكل أو ذاك ، غير أن اختيارهم لمجال عملهم مختلف من إنسان لآخر . إن انشغالهم أو قتلهم في مجال معين من مجالات العلوم مرهون بتلك الآفاق التي يفتحها أمامهم هذا العلم . إن التقييم المختلف لأهمية كلاسيكيي علم السولاريس لا ينفي موهبتهم ، بل يؤكد عبقريتهم .

لقد جذب هذا العملاق الصامت إليه خلال عشر سنوات ، أفضل علماء الرياضيات والفيزياء وأشهر اختصاصيي البيوفيزياء والكهرباء الفيزيولوجية.بعد ذلك بدأ هذا الجيش يفقد قادته عاماً بعد آخر . لم يبق سوى مجموعة صغيرة لا اسم لها يجمعون الوقائع بصبر وعناد ، إضافة لبعض الذين أجروا كثيراً من التجارب البديعة . و لم تعد هناك رحلات استكشافية ضخمة تغطي الكوكب ، بل تلك المجموعة الصغيرة التي توحد وتجمع الوقائع والظواهر والفرضيات المختلفة . بدأ علم سولاريس ينهار ، ورافقه بشكل متواز ظهور نظريات متعددة تختلف عن بعضها بتفاصيل ثانوية تتحدث عن انقراض وتخثر وموت البحار السولاريسية . من وقت لآخر كانت تظهر أفكار مؤثرة وأخرى خسيسة . بشكل عام اعتبرت هذه الأفكار المحيط عبارة عن مادة نهائية التطور ، أي أن المحيط عاش أعلى مرحلة تنظيمية منذ ألف سنة ثم انهار فيزيولوجياً إلى أقسام عديدة محتضرة لا فائدة منها .

لقد اطلعت على العديد من الأعمال الرائعة لعلماء نفس أوربيين درسوا ردود فعل الرأي العام خلال فترة زمنية طويلة . وقد سجلوا أقوالاً ساذجة مختلفة ، وآراء اللاإختصاصيين ، ثم أشاروا بدقة إلى الترابط القوي بين تبدلات الرأي العام والعمليات الجارية في نفس الوقت في مجال العلوم .

وهكذا امتدت التغيرات أيضاً إلى المجموعة الإحصائية التابعة لمعهد أبحاث الكوكب . حيث كانت تحدد فيه المساعدة المادية لهذا البحث أو ذاك.ونتج عن هذه التبدلات انخفاض تدريجي في موازنة قواعد ومعاهد سولاريس .كذلك خفضت المعونات المادية للرحلات الاستكشافية المتجهة إلى كوكب سولاريس .

وتلاقت أصوات المطالبين بتقليص الأبحاث مع أصوات المطالبين باستخدام الوسائل الأشد فعالية ، لكن أحداً لم يصل إلى ما توصل إليه المدير الإداري للمعهد العالي لأبحاث الفضاء ، الذي قال أن المحيط لا يتجاهل الناس ، بل ببساطة لا يلاحظهم،مثله مثل فيل ضخم تتنزه على ظهره نملة صغيرة ، ولكي نثير اهتمام المحيط ونلفت نظره إلينا لا بد من التأثير عليه بنبضات أشد ، أي باستخدام آليات ضخمة تغطي الكوكب بأكمله . وقد نشرت الصحف نكتة طريفة بخصوص هذا الحديث ، وهي أن من طالب برصد الأموال اللازمة لهذه البدايات الباهظة كان مدير أبحاث الفضاء وليس معهد أبحاث الكواكب الذي كان يمول أبحاث سولاريس . إنه كرم على حساب الآخرين .

وظهرت فرضيات جديدة ، وانتعشت آراء قديمة دون إجراء أية تغييرات جوهرية ... وفي النهاية بات العلم السولاريسي ضائعاً في متاهات مسدودة . وتكون في هذا الجو من اللامبالاة العامة والركود وإحباط العزائم محيط كبير من الأوراق العقيمة والعديمة الفائدة بحجم محيط سولاريس .

وفكرت « من الجائز أننا وصلنا إلى نقطة العودة » من الممكن أن يتم الرفض أو التراجع الآن أو في المستقبل القريب . ولم أعد أرى في مسألة الاستغناء عن المحطة مسألة مستحيلة أو لا يمكن حدوثها . لكنني لم أكن واثقاً أننا أنقذنا شيئاً بهذه الطريقة . إن مجرد وجود هذا العملاق المفكر لن يدع الناس على راحتهم . حتى لو استطعنا عبور المجرات وإقامة الصلات مع حضارات تعيش فيها كائنات تشبهنا سيبقى سولاريس نداءاً أبدياً موجهاً للإنسان .



أحلام

بعد ستة أيام اضطررنا لإعادة التجربة ، لأننا لم نلاحظ أي رد فعل من جانب المحيط ، مع ملاحظة هامة ، وهي أن المحطة التي بقيت طوال هذه المدة معلقة دون حراك على نقطة تقاطع خط الزوال السادس عشر مع الخط المتوازي الثالث والأربعين ، بدأت تندفع نحو الجنوب ، مع محافظتها على ارتفاع قدره اربعمائة متر عن سطح المحيط ـــ إذ أشارت محطات الرادار وأجهزة التابع اللاسلكية إلى ازدياد نشاط البلازما بشكل ملحوظ في تلك المنطقة .

طوال يومين كاملين ظل النموذج الجديد للبرنامج الدماغي يصطدم عدة ساعات بواسطة أشعة رونتجن بسطح المحيط الذي بقي أملساً كلياً .

في نهاية اليوم الثاني اقتربنا من منطقة القطب . كان قرص الشمس الأزرق يغوص خلف الأفق ، وكان النسر الأرجواني في الجهة المقابلة له يعلو حول السحب مشيراً إلى إشراقة الشمس الحمراء .

حالما غربت الشمس الزرقاء في اتجاه الشمال الغربي ، ظهرت « متماثلة » أشارت إليها أجهزة الإشارة على الفور . بدت كأنها مطلية بعتمة قرمزية ، وخلفها زهرة زجاجية هائلة تحيطها ومضات كأنها نتجت عن احتكاك البلازما بالسماء . لم تغير المحطة من اتجاهها . بعد ربع ساعة اختفت « المتماثلة » العملاقة خلف الأفق بعدما كانت تشع بلون أحمر مرتعش مثل لمبة ياقوتية منطفئة .

مر يومان آخران وكررنا التجربة لآخر مرة ، وبهذا الشكل تكون الأبر الرونتجينية قد زرعت على مساحة كبيرة من سطح المحيط . وظهرت في الجنوب الأرنيدات . كانت واضحة بغض النظر عن المسافة التي تفصلنا عنها وهي ثلاثمائة كيلومتر . والأرنيدات عبارة عن قطعة أرض صغيرة صخرية يابسة ذات ست مرتفعات ، تبدو قممها كأنها مغطاة بالثلوج . والحقيقة هي أنها مغطاة بطبقة عضوية المنشأ تدل على أن هذا التشكيل كان قعر المحيط في غابر الزمن .

غيرنا اتجاهنا نحو الجنوب الشرقي ، سرنا بعض الوقت بمحاذاة سلسلة جبال مغطاة بسحب اعتيادية من سحب اليوم الأحمر . بعد ذلك اختفت الجبال . مضت عشرة أيام على إجراء التجربة الأولى .

لم يجري أي شيء خلال هذه الفترة على سطح المحطة . كانت الأجهزة تكرر بشكل آلي برنامج التجربة الذي رتبه سارتوريوس لمرة واحدة . ولا أعتقد أن أحداً كان يشرف على عمل هذه الأجهزة . في نفس الوقت جرت في المحطة أحداث أكثر مما كنت أتمناه . والحقيقة لا علاقة للناس بها . كنت أخاف من أن يستأنف سارتوريوس عمله في تجميع المحول . عدا ذلك كنت انتظر رد فعل سناوت عندما يعلم من سارتوريوس أنني خدعته ، وذلك بتضخيم الخطر الذي يمكن حدوثه من جراء تدمير المادة النيترونية .

لم يحدث أي شيء وظل الأمر لغزاً يحير في بداية الأمر . طبعاً ، حسبت حساب أن يرتبا لي مكيدة . ظننت أنهما ينشغلان ببعض التجهيزات . كنت في كل يوم أتفقد المحول المحفوظ في حجرة دون نوافذ تقع تحت المختبر الرئيسي . لم ألتق بأي منهما هناك خلال جولاتي التفقدية . وظل الغبار الذي تجمع خلال هذه الأسابيع فوق الجهاز يشهد أن أحداً لم يمسه .

غاب سناوت عن الأنظار طوال هذا الوقت و لم أعد أحس وجوده مثل

سارتوريوس ذلك الشخص الغامض ، حتى أنه لم يعد يجيب على التلفون المرئي وعلى أجهزة الإرسال . لا شك أن أحدهما كان يوجه حركة المحطة ، و لم أعرف من منهما ، ورغم غرابة الأمر لم أهتم بذلك . عدم استجابة المحيط جعلتني لا مبالياً لدرجة أنني أقلعت بعد يومين أو ثلاثة عن الخوف منهما و لم أعد أحسب لهما حساباً كما نسيت المحيط والتجربة كلياً . أمضيت هذه الأيام في الغرفة أو في المكتبة مع هاري التي تلاحقني كظلي . بدت لي الأمور في غاية السوء ، ورأيت في وضعنا وضع احتضار وعدم استقرار لا معنى له ، لا يمكنه أن يستمر دون أن يصل إلى النهاية . كان علي أن أغير من طبيعة علاقتنا ، أن أحطمها ، لكني كنت أبعد عني كل أفكار التغيير و لم أكن قادراً على اتخاذ أي قرار محدد .

لا أستطيع وصف تلك الحالة . بلغة أدق ، تخيلت كل ما في المحطة ــ وخاصة علاقتي مع هاري ــ يقع في حالة عدم الاستقرار والتوازن . ويكفي أن تخل بأبسط القواعد حتى ينهار كل شيء . لماذا ؟ لا أعرف . والأغرب أن هاري شعرت بنفس ذلك الشعور ، أي كان شعورها ضمن هذا النطاق . عندما أفكر الآن بذلك أتصور أن شعور عدم الثقة ، ولحظية ما كان يحدث وتلك الارتعاشات المتواصلة كونت واقعاً غمر المحطة بأكملها ، ولا يمكن بأي قوة أخرى إظهار ذلك الواقع من جديد . وهناك لغز آخر . الأحلام . قررت أن أدون محتواها لأنني لم أر مثلها من قبل . ولهذا أستطيع الآن أن أتحدث عنها بالقليل . هذه مجرد مشاهد من أحلام أزيلت عنها حالات الرعب المختلفة .

توغلت وتلويت في جوهر المادة في ظروف غامضة شبيهة بظروف الفضاء حيث لا أرض ولا سماء ، ولا جدران . كان شكلي الخارجي غريباً عني . كأنه تحول إلى قطعة صخرية قاسية ميتة لا شكل لها ، بالأحرى أصبحتُ القطعة نفسها . في البدء أحاطتني بقع زهرية ــ شاحبة معلقة في الفضاء ذات خواص

ليست بصرية وتختلف عن الهواء ، إذ كانت الأشياء لا تتوضح إلا عن مسافة قريبة جداً ، والغريب أنها تتوضح بشكل يفوق الحالة الاعتيادية . شكل المحيط الملموس والمادي انطباعاً حسياً يفوق انطباع اليقظة . وكنت عندما استيقظ أشعر بإحساس متناقض وهو اعتبار اليقظة ، أي اليقظة الحقيقية ، حلماً وأنظر إلى ما أراه بعيني المفتوحتين كما أنظر إلى ظلال جافة .

هذه هي الصورة الأولى ، البداية التي ولد منها الحلم . لا أستطيع الحديث إلا عن أبسط الأحلام التي شاهدتها . أما بقية الأحلام فليس لها نظير أبداً في الواقع .

رأيت أحلاماً تحولت فيها في العتمة الراكدة الميتة إلى مادة لإجراء البحوث العلمية الهادفة . و لم أشعر بالأدوات التي كانوا يستخدمونها في دراستي . كان تثقيباً وتهشيماً وتدميراً حتى للفراغ التام . الرعب فقط من كان يضع حداً لهذه التجارب المسبرية . إن مجرد تذكر ذلك يجعل نبضات قلبي تزداد خفقاناً لعدة أيام متتالية .

كانت الأيام شبيهة ببعضها ، كأنها مطبوعة ، ومليئة بالقرف المضجر نحو كل شيء ، كانت تزحف بفتور إلى اللامبالاة اللامحدودة .

كنت لا أخاف إلا في الليل ، إذ كنت لا أعرف كيف أتخلص من هذه الأحلام . كنت أسهر مع هاري التي لا تحتاج للنوم أبداً . كنت أقبلها أداعبها وأعرف أنني كنت لا مبالياً نحوها ونحوي . كان رعبي من الأحلام يدفعني لأفعل ما فعلته ، وأعتقد أنها خمنت ذلك على الرغم من أنني لم أتفوه لها بكلمة واحدة عن تلك الكوابيس المرعبة . شعرت في إذعانها إذلال مستمر و لم أستطع أن أفعل شيئاً .

قلت أنني لم ألتق طوال هذه المدة مع سارتوريوس أو سناوت . الحقيقة

أن سناوت كان يخبر عن نفسه برسالة مقتضبة . وعلى الأغلب باتصال هاتفي يجريه بين فترة وأخرى . كان يسألني إن كنت قد لاحظت ثمة ما يمكن أخذه بعين الاعتبار على التجربة التي كررناها كثيراً . كنت أجيبه بالنفي وأطرح عليه السؤال ذاته ويهز رأسه نافياً في عمق الشاشة .

بعد مرور خمسة عشر يوماً من إيقاف التجارب استيقظت منهكاً في وقت أبكر من المعتاد . أنهكتني الكوابيس . كان استيقاظي أشبه بعودة الوعي بعد غيبوبة دامت طويلاً بسبب تناول المخدرات . كانت الستائر مرفوعة عن النوافذ فشاهدت مع أولى خيوط الشمس الحمراء كيف بدأ السهل الميت يثور بشكل يصعب ملاحظته . أصبح لون المحيط الأسود الكثيف باهتاً ، كأنه غطي بغشاوة من الضباب ذي الصلابة المادية . تشكلت مراكز الإثارة في أماكن مختلفة ، وسيطرت تدريجياً حركة مبهمة على أرجاء الفراغ المرئي . اختفي اللون كلياً . حجبته طبقة زهرية ـــ بيضاء من الأعلى ، لؤلؤية ـــ داكنة من الأسفل . خططت الألوان سطح المحيط وقسمت غطاءه المذهل إلى صفوف من الأمواج الجامدة . بعد ذلك اختلطت الأشياء ببعضها ، وسادت سطح المحيط رغوة انبثقت منها فقاقيع تتطاير في مزق ضخمة إلى الأعلى مباشرة نحو المحطة وحولها . في نفس الوقت ارتفعت في كل الجهات إلى السماء الحمراء الفارغة كتل رغوة مجنحة ذات نموات من على الجوانب امتدت أفقياً . لم تكن تشبه الغيوم أبداً . كان لون الكتل التي حجبها القرص في الأسفل أسود كالفحم مقارنة بقرص الشمس ، أما بقية الكتل القريبة من مركز الشمس فكانت تختلف ألوانها من واحدة لأخرى . وذلك حسب الزاوية التي تسقط عليها أشعة الشروق . فكانت تشقر وتلتهب بلون كرزي ، مخملي ـــ أحمر . بدت هذه العملية وكأن طبقات دم المحيط تقشرت . تارة يكشف عن سطحه الأسود وأخرى يغطيه بطبقة جديدة من الرغوة . كانت بعض هذه الكتل تتطاير وترتفع حتى نوافذ المحطة

وعلى بعد أمتار قليلة عنها . ولامست واحدة منها زجاج النافذة .

كنت بصعوبة أرى تلك الكتل التي ارتفعت إلى السماء أولاً وابتعدت . كانت مثل طيور تحلق في البعيد وطبقة شفافة تختفي في نفس الاتجاه .

توقفت المحطة عن الحركة . وبقيت معلقة مدة ثلاث ساعات . لم يتغير أي شيء . غابت الشمس خلف الأفق . أحاطت العتمة بالمحيط . ارتفع سرب الأشباح الزهرية الدقيقة عالياً عالياً ، كأنها أوتار غير منظورة وجامدة وعديمة الوزن . ظل الارتفاع يتعاظم حتى أطبق الظلام كلياً .

ذهلت هاري من حجم هذه الظاهرة الفريدة والفذة . وبدت لي كسولاريسي ظاهرة جديدة وغامضة كما كانت بالنسبة لهاري . لم أعلق عليها أبداً ، مع أخذ العلم أن كل مراقب يستطيع أن يسجل خلال عام واحد ظاهرتين أو ثلاث ظواهر جديدة تحدث على سطح سولاريس لم تسجلها بعد أية مصورات أو أطالس . وإن كنت محظوظاً فيمكنك رصد ظواهر أكثر .

كنا شاهدين لظاهرة أخرى في الليلة الثانية وقبل ساعة من بزوغ الشمس الزرقاء . كان المحيط يلمع مثل الفوسفور . لقد وصفت هذه الظاهرة من قبل . كان يمكن رصدها عادة قبل ظهور اللامتماثلات ، وبشكل عام يمكن اعتبارها بمثابة إشارة إقليمية لبدء نشاط البلازما الفعال . و لم يحدث أي شيء حول المحطة خلال الأسبوعين التاليين .

فقط مرة واحدة ، سمعت في عمق الليل صراخاً حاداً طويلاً وعال بشكل غريب ، آت من بعيد ، كان بكاءاً شديداً لا إنسانياً . عندما استيقظت من الكابوس لم أكن مقتنعاً من أن ما سمعته كان حلماً فاستلقيت مصغياً فترة طويلة ، بعد ذلك سمعت أصواتاً مكتومة من المخبر الذي يقع جزءٌ منه فوق حجرتي . كان الصوت أشبه بحركة من يتدحرج هناك . تراءى لي أن الصراخ يتناهى لي

أيضاً من الأعلى بشكل غامض لأن كـلا الطـرفين مصفـحين بعـوازل كاتمة للصوت . بقي الصوت المحتضر مسموعاً مدة نصف ساعة . ابتللت من العرق وكدت أفقد عقلي . أردت أن أهرع إلى الطابق العلوي ، فقد مزق الصراخ أعصابي ، هدأ الصوت تدريجياً ، ومن جديد لم أعد أسمع سوى صوت ذلك الثقل المتدحرج .

بعد يومين ، دخل سناوت علينا بغتة في المساء . كنا جالسين في غرفة المطبخ الصغيرة . كان سناوت يرتدي بذة أرضية حقيقية بدلت شكله كلياً . بدا أطول من المعتاد . بدا إنساناً جميلاً . اقترب من الطاولة دون أن يلقي علينا نظرة واحدة . انحنى فوق الطاولة وراح يأكل لحماً بارداً من المعلبات مع الخبز دون أن يجلس . انغمست أكمام بذته عدة مرات في العلبة وتلوثت بالدهن . قلت له :

ـــ إنك تلوث ثوبك !

ـــ آه ... م . ـــ تمتم بفمه الممتلىء

أكل بنهم شديد ، وكأنه لم يذق الطعام منذ عدة أيام ، ثم صب لنفسه نصف كأس من الخمر شربه دفعة واحدة ومسح شفتيه وأخذ نفساً عميقاً ثم نظر إلينا بعينيه الداميتين ، وقال :

ـــ هل أطلقت سراح لحيتك ؟! آ ...

رمت هاري صحنها في المغسلة وأحدثت ضجة كبيرة . خطا سناوت بخفة على كعبيه . تجهم وجهه وعلته تصعيرة . تخيلت أنه يفعل ذلك متعمداً . نظر إليَّ وسألني بتطفل !

ـــ ألا تريد أن تحلق ؟

لم أجب على سؤاله .

ـــ انظر ! لا أنصحك . هو أيضاً بدأ بذلك . توقف عن الحلاقة .

دمدمت قائلاً :

ــ إذهب ونم .

ــ ما بك ؟ لسنا مجانين ، فلماذا لا نتحدث مع بعضنا ؟ اسمع يا كيلفن أليس ممكناً أن ما يتمناه هو الخير لنا جميعاً ؟ ربما يريد أن يسعدنا لكنه لا يعرف السبيل إلى ذلك ! يقرأ أمنياتنا في أدمغتنا ، لكنك تعرف أن اثنين بالمئة من العمليات العصبية تقع تحت إشراف وعينا . وبالتالي فهو يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا . إذن علينا أن نصغي له ، أن نتفق معه . هل تسمع ؟ ألا تريد و لماذا ــ ارتعش صوته ــ لماذا لا تحلق لحيتك ؟

صرخت به :

ــ كف عن هذا . أنت سكران .

ــ ماذا ؟ سكران ؟ أنا ؟ وما الغرابة ؟ هل يمكن لإنسان يجرجر قذارته من طرف المجرة لطرفها الآخر ليعرف قيمة ذاته وتريد منه أن يكون صاحياً ؟ لماذا ؟ هل تثق بالمهمة ؟ آ ، قل لي ياكيلفن . كان غيباريان يحدثني عنك طوال الوقت ولغاية تلك اللحظة التي أُطلق فيها سراح لحيته ... أنت فعلاً كما وصفك غيباريان ... لا تذهب إلى المخبر أبداً . ستفقد إن ذهبت شيئاًمن خيالك ... هناك يعمل سارتوريوس على عكس(Au rebours)* فاوست ، إنه يبحث عن وسيلة ضد الخلود . إنه اخر فرسان الاتصال المقدس ... لم تكن فكرته السابقة سيئة أبداً ــ إطالة سكرة الموت ليست سيئة . آ ؟ أليس كذلك Agonia Peypetua ... قش ... قبعات قش ... كيف تستطيع أن لا تشرب يا كيلفن ؟

وتوقفت عيناه الصغيرتان مع حاجبيه المنتفختين على هاري الواقفة قرب الجدار دون حركة . ثم راح ينشد :

ــ آه يا أفروديت البيضاء ، يا من ولدت من المحيط . ــ وغرق في

---

* على العكس

الضحك . ـــ لقد أصبت الهدف تقريباً .. آ . أليس كذلك يا كيلفن ؟ وتحشرج صوته وسعل .

بدأ هدوئي الذي حافظت عليه طوال هذا الوقت يتحول إلى غيظ بارد .

ـــ كف عن ذلك ـــ همست . ـــ كف عن ذلك واذهب .

ـــ تطردني ؟ أنت أيضاً ؟ ترخي لحيتك وتطردني ؟ لم تعد راغباً بالسماع لنصائحي . لا ترغب في أن أقدم لك النصيحة كما يفعل رفاق النجوم ؟ هيا بنا يا كيلفن لنفتح كوى القعر في المحطة ولنصرخ إلى الأسفل . أليس ممكناً أن يسمعنا ؟ لكن ، كيف نناديه وبماذا ندعوه ؟ فكر . لقد سمينا كافة النجوم والكواكب . وربما كانت لديهم أسماءهم . ما هذا الاغتصاب ؟ اسمع ، لنذهب ونصرخ ... سنروي له ما فعله بنا حتى يرتعب بنفسه ... سيبني لنا متماثلات فضية . وسيصلي لنا برياضياته ويحيطنا بملائكته المدماة وسيصبح عذابنا عذابه ورعبنا رعبه . وأخيراً سيطلب منا النهاية . لماذا لا تضحك ؟ أنا أفرح ولا غير . لو كان إحساسنا بالنكتة متطوراً في أصلنا ، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه . هل تعرف ما يريد فعله ؟ يريد إخضاعه ، يريد إخضاع هذا المحيط ،يريد محاصرته حتى يصرخ بكل جباله فوراً ... أتعتقد أن الشجاعة لا تكفيه لمتابعة خطته ليثبت تلك السلطة المتصلبة التي أرسلتنا إلى هذا الكوكب لنكفر عن ذنوب غيرنا ! أنت محق ، تخاف ... على ... قبعتك . لن يعرض قبعتك للغير . إن فاوستنا ليس جريئاً لهذه الدرجة ...

صمت . بدأ سناوت يترنح أكثر وأكثر . انهمرت الدموع من عينيه . سالت على خديه وسقطت على بذته .

ـــ من فعل ذلك ؟! من فعل ذلك بنا ؟! غيباريان ؟ غيزيه . إنشتاين ؟ بلاتون ؟ أتعرف أنهم قتلة . فكر معي . يمكن للإنسان أن ينفجر داخل الصاروخ مثل

فقاعة ، أو أن يجمد ، أو أن يحترق ، أو أن ينزف دمه بسرعة لا يستطيع خلالها أن يصرخ . وستبقى عظامه فقط تصطدم بالمعدن ، دائرة في مدار نيوتن مع تصليحات أينشتاين . هذه كهوف تقدمنا ! ونحن نعمل لأن هذا درب رائع ... وصلنا ... في هذه الأقفاص . فوق هذه الصحون ووسط الغسالات الأبدية مع أطراف الخزائن الموثقة . نفذنا ... انظر يا كيلفن . لن أثرثر بهذا الشكل إن لم أكن مخموراً . سيقول ذلك أحد ما في نهاية المطاف . من المذنب في هذا كله ؟ أنت جالس هنا كمن يجلس في المسلخ ، وشعرك ينمو ... لأي ذنب ؟ أرجو أن تجيب على نفسك .

استدار وخرج . عند العتبة تمسك بالعضادة كي لا يقع ، وبقي صدى وقع أقدامه مسموعاً فترة طويلة آتياً من الدهليز .

تحاشيت النظر إلى هاري . لكن ، فجأة التقت نظراتنا . أردت أن أقترب منها وأحضنها وأداعب شعرها . لم أستطع فعل ذلك . لم أستطع .

النجاح

مضت أيام الأسابيع الثلاثة التالية شبيهة ببعضها . اليوم يكرر الأمس بدقة . ستائر النوافذ تفتح تارة وتنغلق أخرى . في الليل أنقذف من كابوس لآخر وأستيقظ في الصباح لتبدأ اللعبة . أتظاهر بالهدوء مثل هاري . كان ملاذنا الأخير في اتفاقنا الصامت ، في كذبنا المتبادل . تحدثنا مطولاً عن حياتنا المستقبلية على الأرض . تحدثنا كيف سنعيش في مكان قريب من مدينة كبيرة لا نغادر بعدها السماء الزرقاء والأشجار الخضراء . فكرنا سوياً بترتيب منزلنا المستقبلي . رسمنا الحديقة وتجادلنا حول أشياء ثانوية ... مثل السياج ... والمقاعد ... ترى هل كنت أؤمن بذلك ولو لثانية واحدة ؟ لا . عرفت أن ذلك مستحيل . حتى لو استطاعت مغادرة المحطة حية ، فعلى الأرض لا يهبط إلا الإنسان ، والإنسان يعني هويته ، وأوراقه الثبوتية . ستنتهي رحلتنا عند أول نقطة تفتيش .سيبدؤون الكشف عن شخصيتها . وستتعرف على بعضنا . المحطة هي المكان الوحيد الذي نستطيع فيه البقاء مع بعضنا . ترى هل كانت تعلم ذلك ؟ أعتقد أنها كانت تعلم وخاصة بعد الذي حصل .

ذات ليلة شعرت بحركة هاري وأنا نائم . أردت أن أضمها إلى صدري بصمت كعادتي الجديدة ، لأننا لم نعد نشعر بأنفسنا أحراراً إلا والظلام يحيط بنا ، عندها ننسى هذا العالم الذي يحيط بنا دون أن نجد مخرجاً منه . هذا ما كان يؤجل الألم لفترة قصيرة . لم تلاحظ هاري أنني استيقظت . انزلقتْ عن السرير قبل أن أمد يدي . كنت شبه نائم عندما سمعت حفيف أقدامها العارية . شعرت برعب غامض . وهمست :

ــ هاري . أردت الصراخ و لم أتجرأ . جلست على السرير . كان الباب مفتوحاً وحزمة ضوء آتية من الدهليز تخترق عتمة الغرفة . تخيلت أنني سمعت أصواتاً مكتومة . أكانت تتحدث مع أحد ما ؟ مع من ؟ . قفزت من السرير والرعب يأكلني . و لم تذعن ساقي لإرادتي . وقفت لحظة أسترق السمع ــ كان الهدوء مخيماً ــ عدت بهدوء إلى السرير . فشعرت بالدم يغلي في رأسي . بدأت العد . وعند الرقم ألف انفتح الباب بهدوء . انزلقت هاري تحت الغطاء وجمدت كأنها تستمع إلى أنفاسي . حاولت التنفس برتابة .

ــ كريس ؟ ... همست هاري بهدوء . لم أرد عليها ، فاختفت بسرعة داخل الفراش . شعرت بها كيف تسمرت مستوية . كنت متمدداً قربها دون حراك . حاولت أن أجد شيئاً أسألها عنه ، لكني فهمت بعد مضي بعض الوقت أنني لن أكون البادىء . وبانقضاء وقت آخر ، ربما بعد ساعة ، نمت .

كان الصباح طبيعياً . بدأت أراقبها في تلك اللحظات التي لا يمكنها أن تلاحظ ذلك . بعد الغداء ، جلسنا خلف النوافذ المقعرة . كانت السحب القرمزية تلتهب خلفها والمحطة تعوم في وسطها مثل سفينة . كانت هاري تقرأ في كتاب ، أما أنا فكنت في حالة تأمل أشعر فيها ولغاية هذا الوقت بالراحة . لاحظت أنني إذا استدرت قليلاً أستطيع رؤية خيالنا منعكساً في الزجاج بشكل واضح وشفاف . غيرت من وقفتي وسحبت يدي من تحت مرفق اليد الأخرى . لاحظت كيف رمقتني هاري بنظرة سريعة لتتأكد من أنني أراقب المحيط . انحنت فوق ذراع الأريكة ولامست بشفتيها ذلك المكان الذي لامسته منذ قليل . تابعت جلستي بهدوء غير طبيعي ، أما هاري فنكست رأسها فوق الكتاب . خاطبتها بهدوء :

ــ هاري إلى أين خرجت ليلة البارحة ؟

ــ في الليل ؟

ــ نعم .

ــ لعلّك حلمت بذلك ... هذا حلم ولا بد . لم أخرج لأي مكان .

ــ ربما ، ربما كان حلماً ...

عند المساء حدثتها من جديد عن رحلتنا إلى الأرض . قاطعتني قائلة :

ــ لا أريد سماع ذلك . لا داع لذلك يا كريس . أنت تعلم ...

ــ ماذا ؟

ــ لا ، لا شيء .

وعندما تمددنا للنوم قالت :

ــ هناك كأس من ا لعصير على الطاولة ، أعطني الكأس من فضلك .

شربت هاري نصف الكأس وقدمته لي . لم أرغب بشرب العصير فقالت :

ــ اشرب نخب صحتي . وضحكت .

شربت العصير . كان مالحاً قليلاً . لم أعر ذلك انتباهاً كبيراً . سألتها بعدما أطفأت النور .

ــ عن أي شيء تريدين أن نتحدث إن لم نتحدث عن الأرض ؟

ــ هل ستتزوج إن لم أكن موجودة ؟

ــ لا .

ــ أبداً ؟

ــ أبداً .

ــ لماذا ؟

ــ لا أعرف . عشت وحيداً مدة عشر سنوات و لم أتزوج . لا أريد الحديث عن ذلك يا عزيزتي ...

شعرت بدوار في رأسي وكأنني شربت زجاجة خمر على أقل تقدير .

ـــ لا ، سنتحدث ، من الضروري أن نتحدث . قل لي هل تتزوج إن طلبت منك أن تفعل ذلك ؟

ـــ أتزوج ؟ ما هذا الهراء يا هاري ، لست بحاجة لإنسان آخر سواك . انحنت فوق صدري . أحسست بأنفاسها الخارجة من بين شفتيها ، ثم شدتني بقوة إلى صدرها وفارقني النعاس خلال لحظة .

ـــ قل ذلك بصيغة أخرى .

ـــ أحبك .

ألقت برأسها على صدري . شعرت أنها تبكي .

ـــ مابك يا هاري ؟

ـــ لا شيء ، لا شيء ، لا شيء . رددت كلمتها بصوت اضمحل تدريجياً . حاولت أن أفتح عيني فلم أستطع . لا أذكر كيف جاءني النوم .

أيقظني الضوء الأحمر . كان رأسي ثقيلاً مثل الرصاص وعنقي يابسة كأن فقراتي قد تحطمت . لم أستطع تحريك لساني الخشن الشنيع . « ربما تسممت » فكرت بذلك ورفعت رأسي بصعوبة شديدة . مددت يدي إلى هاري ولامست فراشها البارد . قفزت من مكاني .

السرير فارغ . لم تكن في الغرفة . انعكس قرص الشمس متكرراً في النوافذ . قفزت من مكاني . كنت أشبه بمهرج ، وترنحت مثل سكران . وصلت إلى الخزانة مستنداً على قطع الأثاث . لم أجدها في الحمام . كذلك كان الدهليز والمختبر فارغين .

ـــ هاري !! صرخت وأنا أقف وسط الدهليز ألوح بيديَّ التعبتين .

هاري ... تلعثمت منادياً مرة أخرى وأدركت ما حصل .

لا أذكر بدقة ما جرى بعد ذلك . ربما ركضت نصف عارٍ أبحث عنها في أرجاء المحطة ، حتى أنني بحثت عنها في البراد ، وقرعت بيدي الباب المغلق لآخر

مستودع . ربما ذهبت إلى المستودع أكثر من مره . كانت السلالم تقرقع تحت أقدامي . وسقطت ، ونهضت ، ومن جديد هرعت إلى مكان غير معلوم ، حتى وجدت نفسي أمام الترس الشفاف حيث يقع المخرج إلى الفضاء ، خلفه : كان الباب مصفحاً على طبقتين . قرعته بكل قواي . صرخت وتمنيت أن يكون ذلك حلماً . وقف شخص قربي بعض الوقت يسندني ، ثم جرني بنفسه . وجدت نفسي داخل المخبر الصغير في قميص مبتل بالماء المثلجة وشعري ملتصق على جلد رأسي ولساني وأنفي محروقين من الكحول . كدت أختنق وأنا أتمدد على صفيح بارد . شاهدت سناوت في سرواله المبقع يبحث عن شيء لا أعرفه في خزانة الأدوية ، أخرج شيئاً منها . أشياء معينة ، معدات وزجاجات تقرقع بصوت مرعب .

فجأة شاهدته أمامي . كان ينظر إلي بانتباه وقد احدودب ظهره .

ـــ أين هي ؟

ـــ لا وجود لها .

ـــ أقصد هاري

ـــ لم يعد وجود لهاري . قال سناوت بصوت بطيء معبر بعدما اقترب مني بوجهه . بدا كأنه ضربني ويريد دراسة نتيجة فعله .

ـــ ستعود ... همست وأنا أغمض عيني . لم أشعر بالخوف . لم أرتعد من عودتها الشفافة . لم أفهم كيف يمكنني أن أخاف من ظهورها في أي وقت كان .

ـــ اشرب هذا .

قدم لي كأساً مليئاً بسائل حار . نظرت إلى الكأس . فجأة رشقت السائل في وجه سناوت . تراجع ومسح عينيه . عندما فتح عينيه وجدني منتصباً أمامه . بدا صغيراً بحيث لو ...

ـــ إذن أنت ؟

ــ عمن تتحدث ؟

ــ لا تكذب . تعرف جيداً عن أي شيء أتحدث . أنت من حدثها في تلك الليلة . أمرتها أن تسقني مخدراً ... ماذا فعلت بها ؟! تكلم !!!

بحث عن شيء في صدره . أخرج ظرفاً مطوياً . أخذته منه . كان مغلقاً . لم تكن عليه أية كتابة . مزقته بسرعة . سقطت منه ورقة مطوية أربعة طيات . كانت الكلمات مكتوبة بأحرف كبيرة شبيهة بكتابة الأطفال . لم تكن الخطوط مستقيمة . عرفت كاتبة هذه الكلمات :

« حبيبي . طلبت منه بنفسي أن يفعل ذلك . إنه طيب . آسفة لأنني خدعتك . لم تكن هناك وسيلة أخرى . استمع إليه . لاتفعل شيئاً يسيء إليك ــ من أجلي . كنتَ طيباً جداً » .

في أسفل الورقة استطعت قراءة كلمة مشطوبة « هاري » . كتبت الكلمة ثم شطبتها . هناك حرف آخر لم أستطع تمييزه جيداً أهو H أم K شطبته أيضاً . شعرت بالهدوء . غادرتني الهيستيريا . بيد أني لم استطع الكلام أو النحيب . همست :

ــ كيف ؟ كيف ؟

ــ اهدأ يا كيلفن . فيما بعد .

ــ أنا هادىء تماماً . تكلم . كيف ؟

ــ تحويل .

ــ كيف تم ذلك فالجهاز ؟! وأحسست بشيء يقذفني .

ــ لم ينفعنا جهاز روشيه . قام سارتوريوس بتصميم جهاز آخر . جهاز حاص بعدم الاستقرار . جهاز صغير لا تتجاوز فعاليته دائرة نصف قطرها عدة أمتار .

ــ ما الذي حل بها ؟ ..

ــ اختفت . ومضة ونسمة هواء . نسمة ضعيفة . لا شيء آخر .

ــ أتقول أن فعاليته لا تتجاوز الأمتار ؟

ــ نعم . لم تكن لديه مواد كافية لصنع جهاز أكبر .

شعرت كأن الجدران تنهار فوقي . أغمضت عيني .

ــ يا إلهي ، ستعود ، ستعود ...

ــ لا .

ــ وكيف لن تعود ؟!

ــ كلا يا كيلفن . ألا تذكر تلك الرغوة التي كانت تصعد إلى الأعلى ؟ لن تعود وتصعد بدءاً من هذه اللحظة .

ــ لن تعود أبداً ؟

ــ أبداً

ــ أقتلتها ؟

ــ نعم . وأنت ، ألن تفعل ذلك لو كنت في مكاني ؟ أجب !

قفزت من مكاني ورحت أسير جيئة وذهاباً . من الجدار إلى الزاوية . تسع خطوات وأعود . تسع خطوات ذهاباً وتسع إياباً . ثم توقفت أمامه :

ــ اسمع ، علينا أن نقدم تقريراً . سنطلب الاتصال مع المجلس مباشرة . هذا ما يمكننا أن نفعله . سيوافقون على ذلك . عليهم أن يوافقوا .

سنستثني هذا الكوكب من معاهدة الأربعة . سيسمحون لنا باستخدام كافة الوسائل . سنحصل على مولدي المادة المضادة . هل تعتقد بوجود شيء يصمد أمام المادة المضادة ؟ لا شيء لا شيء أبداً ، على الإطلاق لا شيء ! كنت أصرخ بانتصار وقد أعمتني الدموع .

ــ أتريد تدميره ؟ ولماذا ؟

ــ اتركني وشأني .

ـــ لن أدعك .

ـــ سناوت .

نظرت في عينيه فأجابني بحركة من رأسه « لا »

ـــ ماذا تريد مني ؟ ماذا تريد ؟

اقترب من الطاولة .

ـــ حسناً سنكتب تقريراً .

التفت وبدأت أخطو من جديد .

ـــ اجلس .

ـــ دعني وشأني .

للمسألة وجهان . الوجه الأول ـــ الوقائع ، الثاني ـــ مطالبنا .

ـــ أمن الضرورة أن نتحدث عن ذلك الآن ؟

ـــ نعم الآن .

ـــ لا أريد . أتفهم ؟ هذا أمر لا يخصني .

ـــ آخر خبر أرسلناه كان قبل وفاة غيباريان : يعني قبل شهرين . وعلينا أن نوضح طريقة ظهور ...

ـــ ألن تكف عن الحديث ؟ وأمسكته من صدره .

ـــ تستطيع ضربي ومع ذلك سأتكلم .

تركته .

ـــ افعل ما تشاء .

ـــ تنحصر القضية أن سارتوريوس سيحاول إخفاء بعض الوقائع . أنا شبه متأكد من ذلك .

ـــ ألست متيقناً ؟

ـــ لا لم أعد متيقناً الآن . الأمر لا يتعلق بنا وحدنا . وحول هذه النقطة يدور

الحديث . تبين أن المحيط قادر على القيام بالنشاط العقلاني . وهو يعرف البناء الدقيق لميتابوليزم أجسادنا ...

ـــ ممتاز لماذا توقفت ؟ أجرى سلسلة تجارب علينا . أجرى عملية تشريح نفسية حية معتمداً على معرفتنا التي سرقها من أدمغتنا دون أن يلتفت إلى ما نسعى إليه .

ـــ ليست هذه بوقائع ، ولا يمكن اعتبارها نتيجة يا كيلفن . هذه فرضيات فهو بهذا الشكل أو ذاك التفت إلى هدفه ، إلى ذاك الجزء الخفي والمغلق من وعينا . يمكن اعتبار ذلك هبة ...

ـــ هبة ! يا إلهي ! وضحكتُ .

ـــ كف عن الضحك ! صرخ سناوت وأمسكني من يدي .

قبضت على أصابعه وعصرتها حتى قرقعت عظامها . جحظت عيناه . تركته وابتعدت إلى الزاوية وخاطبته ووجهي نحو الجدار :

ـــ سأحاول السيطرة على أعصابي .

ـــ هذا ليس مهماً . ما الذي سنقترحه ؟

ـــ قل أنت . أنا لا أستطيع الآن . هل قالت شيئاً قبل أن ؟..

ـــ كلا لا شيء . أعتقد أن لدينا فرصة الآن .

ـــ فرصة ؟ أية فرصة ؟ لأي شيء ؟ ـــ والتفت إليه وفهمت فجأة ما يقصده .

إنها مسألة الاتصال من جديد ؟ أيعد ما شاهدناه قليلاً ؟ وأنت أيضاً ، أنت بنفسك ، وكل هذا المنزل المجنون ... الاتصال ؟ لا ، لا ، لا ، افعلوا ذلك دوني .

ـــ لماذا ؟ سألني بهدوء تام ـــ كنت تنظر إليه كإنسان وبشكل غريزي ، والآن تكرهه أكثر من أي وقت مضى . تكرهه .

ـــ وأنت ألا تكرهه ؟

ـــ لا . فهو أعمى البصيرة كما تعلم ...

ـــ أعمى ؟ هل هذا ما قلته ؟

ـــ طبعاً . نحن لسنا موجودين بالنسبة له كند لند . إن ما نراه من أجسام ووجوه تعرفنا على أفراد وشخصيات متفرقة . وهذا بالنسبة له مجرد زجاج شفاف . لقد دخل إلى أعماق أدمغتنا .

ـــ حسن ما الذي سينتج عن ذلك ؟ ماذا تريد أن تبرهن ؟ هل تريد أن تبرهن إن كان قادراً على إحياء وخلق إنسان لا يتواجد إلا في ذاكرتي . لقد صنعها شبيهة بها من كل النواحي ، عيناها ، حركتها ، صوتها ... صوتها ...

ـــ تكلم ، تابع كلامك . هل تسمع ؟!

ـــ سأتحدث ، سأقول ... نعم ، الصوت ... إنه البرهان على مقدرته أن يقرأ فينا كما يقرأ في كتاب . أتفهم ما أريد قوله ؟

ـــ نعم ، إن أراد فسيستطيع أن يفهمنا ، طالما أنه يقرأ أدمغتنا .

ـــ طبعاً ، أليس هذا أمر متوقع ؟

ـــ كلا . أبداً . لقد استطاع أن يأخذ وصفة الانتاج ولا غير ، تلك الوصفة التي لا تتألف من كلمات . إنها تسجيل تحتفظ به الذاكرة ، أي البناء الزلالي الشبيه برأس الحيوان المنوي ، أو البيضة . لا يحوي المخ على أية مشاعر أو كلمات . أما ذاكرة الإنسان فما هي إلا شكل مسجل بلغة الأحماض النيكلونية على بلورات عدد كبير من الجزيئيات اللامتزامنة . لقد أخذ أكثر الأشياء المنقوشة ، والأشد انغلاقاً والأكثر منطقية بشكل كامل ، هل تفهم ؟ لكن ، ليس ضرورياً أن يفهم ، ما أهمية ذلك لنا وما يعنيه . الأمر شبيه كما لو أننا صنعنا متماثلة ورميناها في المحيط بعد أن عرفنا تصميمها وتقنيتها والمواد الداخلة في تركيبها ، لكننا لا نفهم الهدف منها ، ودون أن نعرف ما تشكله بالنسبة للمحيط ...

ـــ هل هذا ممكن ؟ ـــ تساءلت ـــ نعم . إنه أمر جائز . هذا يعني أنه

لا يستطيع ولا يرغب في الدوس علينا أو في اجتياحنا . ـــ ربما . عن طريق الصدفة ولا غير ... ارتعشت شفتاي .

ـــ كيلفن .

ـــ نعم ، نعم . حسن . كل شيء على ما يرام . أنت طيب . وهو كذلك . كلكم طيبون . لكن لماذا ؟ فسر لي . لماذا ؟ لماذا فعلت ذلك ؟ ما الذي قلته لها .

ـــ الحقيقة .

ـــ الحقيقة ، الحقيقة ؟ أية حقيقة ؟

ـــ إنك تعرفها . لنذهب إلى حجرتي . سنعد تقريراً . هيا بنا .

ـــ انتظر . ألا تقول لي ما تريد فعله ؟ لا أظنك باق طوال العمر في المحطة .

ـــ نعم . أريد البقاء . أريده .



العجوز المقلد

جلست قرب النافذة أنظر إلى المحيط . لم يكن لدي ما أفعله .
لقد تحول التقرير الذي أعددناه إلى حزمة من الأمواج المتسارعة عبر الفراغ في مكان ما وراء برج أريون . عند وصول هذه الحزمة إلى الضباب المغبر العاتم الذي يشغل حجماً قدره ثمانية تريلون كيلومتر مكعب ، هذا الضباب الكاتم للأشعة الضوئية ولكافة أنواع الإشارات ستصطدم الحزمة بمحطة التقوية الأولى من سلسلة المحطات المنتشرة بكثرة والتي تشكل طوقاً كبيراً . ستنتقل من محطة لأخرى بقفزات تقدر بمليارات الكيلومترات ، ستمر عبر قوس كبير ريثما تصل المحطة الأخيرة ، وهي عبارة عن كتلة معدنية ضخمة مليئة بالأجهزة الدقيقة المغلفة والمجهزة بهوائي موجه ضخم . تقوم هذه المحطة بإعادة تركيز الحزمة لآخر مرة وتطلقها نحو الأرض . بعد شهور سترسل الأرض بحزمة طاقة شبيهة بهذه الحزمة تماماً ، يمتد خلفها تَلمُّ التشويه الضارب لحقل جاذبية المجرة ، ستصل هذه الحزمة إلى نهاية السحابة الفضائية وستنزلق على طوق المحطات المنسقة لتتغذى منها ومن ثم لتندفع إلى شمسيْ سولاريس دون أن تخفف من سرعتها .

بدا المحيط تحت قرص الشمس الحمراء مظلماً أكثر من العادة ، وكانت عتمة حمراء تمزجه مع السماء . كان النهار خانقاً بشكل مذهل ، ينذر بحدوث عواصف شديدة هائجة لا يمكن وصفها ، أي من تلك العواصف النادرة التي يشهدها المحيط مرات معدودة خلال عام كامل . ويتشكل لدى المراقب انطباع

أن القاطن الوحيد لهذا الكوكب يشرف على الطقس ويتحكم بإرسال هذه العواصف .

بقي لي شهور قلائل أقضيها وراء هذه النوافذ أراقب من علو إشراقة الذهب الأبيض والقرمزي المملّ اللذين ينعكسان في شكل من أشكال النفثات السائلة ، في الفقاعة الفضية للمتماثلة ، وأراقب حركة المتسارعات الممشوقة المحنية من عصف الرياح . وألتقي بالمقلدين المضمحلين المغمورين . وفي يوم من الأيام الرائعة سيغمر الضوء شاشات الفيديو ، وسينتعش نظام الإشارة الإلكتروني الميت . سيمتلىء بالنبضات المرسلة من على بعد مئات آلاف الكيلومترات مخبراً عن اقتراب عملاق معدني سيهبط فوق المحيط بجلجلة الجواذب الطويلة . سيكون مركبة « ويلس » أو « بروميثيوس » ، أو أي طوافة أخرى من طوافات العوم للمسافات البعيدة . سيشاهد الناس الذين سينزلون على السلالم من سطح المحطة صفوفاً من الناس الآليين الضخام والمدرعين الذين لا يشاركون الإنسان خطيئته الأولى ، وهم بريئون لدرجة أنهم ينفذون أية أوامر تصدر لهم ــ تدمير أنفسهم وتدمير أي عائق يمكن له أن يقف في وجوههم . هذا ما سيحدث إن كانت ذاكرتهم البلورية مبرمجة بهذا الشكل . بعد ذلك سيرتفع عابر النجوم بأسرع من الصوت . سيصحو الناس من فكرة أنهم عائدون إلى البيت عندما يصل مخروط الجلجلة المتقطعة إلى ثمانية مقاطع صوتية ، إلى المحيط . لكن المسألة ، ليست مسألة بيت واحد . بل أرض بأكملها . وأنا أفكر بمدنها الكبيرة المكتظة والمليئة بالضجيج ، بتلك المدن التي أضيع فيها ، أختفي كما لو أنني فعلت ما أردتُ فعله في الليلة الثانية أو الثالثة من وصولي ، وهو أن أرمي نفسي في المحيط المتقلب بشدة في الأسفل . إني أغرق في الناس . سأكون صموتاً ومنتبهاً،سيثمنني الرفاق لهذا السبب . سيكون لي كثير من المعارف والزملاء والنساء ، وربما امرأة واحدة . علي أن أبذل قصارى جهدي في المرحلة الأولى لأرسم ابتسامة على

شفتي وسأنحني بتواضع ثم أقف منتصباً ، على مراعاة آلاف الدقائق والتفاصيل التي تتألف منها الحياة على الأرض . ثم يصبح الأمر عادياً . ستظهر اهتمامات أخرى ، أشغال أخرى ، لكنها لن تجذبني أبداً . لن يشدني أحد أو شيء بعد الآن . ربما سأنظر في الليل إلى السماء . إلى هناك إلى عتمة السحابة المغبرة الشبيهة بستارة سوداء تُخفي خلفها بريق الشمسين . سأتذكر كل شيء ، حتى ما أفكر به الان . سأتذكر جنوني وآمالي أيضا بابتسامة متسامحة فيها شيء من الأسف والكبرياء في نفس الوقت . لا أحسب نفسي أسوأ من كيلفن * ، ذاك الذي كان مستعداً لفعل أي شيء من أجل القضية المسماة بالاتصال . لن يستطيع أحد أن يؤنبني .

دخل سناوت إلى الحجرة ، تجول بعينيه ورمقني بنظرة خاطفة . نهضت واقتربت من الطاولة . سألته :

ـــ أتحتاج شيئاً ؟ .. أجاب غامزاً بعينيه :

ـــ أعتقد أنك تنوء من العطالة ... أستطيع إعطاءك بعض الحسابات ، والحقيقة أنها ليست مستعجلة ...

ضحكت .

ـــ شكراً . لا داع لذلك .

نظر سناوت إلى النافذة وسألني :

ـــ أواثق أنت ؟

ـــ نعم . لقد فكرت في أشياء كثيرة و ...

قاطعني سناوت بصوت خافت لا يشبه صوته :

ـــ من الأفضل أن لا تفكر أيها المقلد .

---

* كيلفن يتحدث هنا عن نفسه كشخص آخر غير كيلفن .

ماذا ؟ آ . نعم . لقد شاهدته . إنه مقلد عجوز .

نظرنا إلى البعد المختلج بالعتمة الحمراء .

قلت فجأة :

ــ سأطير . خاصة أنني لم أخرج من قبل إلى الفضاء . وهذا باعث حقيقي . سأعود بعد نصف ساعة .

أصبحت عينا سناوت مستديرتين وقال :

ــ ما الذي جرى لك . تطير ؟ إلى أين ؟

ــ إلى هناك . ــ أشرت إلى الكتلة المتحركة في الضباب ــ لماذا لا أطير ؟ سآخذ حوامة صغيرة . سيكون مضحكاً أن أعترف للناس على الأرض بأنني لم ألامس برجلي سطح سولاريس وأنا السولاريسي . اقتربت من الخزانة ، وبحثت عن بذة مناسبة . بقي سناوت يراقبني بصمت ، ثم قال :

ــ هذا لا يعجبني .

التفت إليه واعتراني هيجان فظيع لم أعان منه منذ فترة بعيدة .

ــ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ الأوراق على الطاولة ! هل تخاف أن ... سخافة ؟! أعطيك عهداً أنني لن أفعل . حتى أنني لم أفكر بذلك . لا ، الحقيقة أنني لم أفكر .

ــ سأطير معك .

ــ شكراً . أرغب بالتحليق وحيداً . هذا شيء جديد . جديد كلياً . كنت أتحدث بسرعة وأنا أرتدي البذة الفضائية .

همهم سناوت بكلمات أخرى لم أسمعها . كنت منشغلاً بالبحث عن حاجياتي . وسألني بعدما ارتديت البذة :

ــ ألا يزال للعهد قيمة لديك ؟

ـــ أوه : يا إلهي ! إنك تتحدث عن موضوع واحد . لا يزال،وأنا أعطيك هذا العهد . أين هي الأسطوانات الاحتياطية ؟

عمت فوق المحيط وحدي لأول مرة . انتابني من جراء ذلك شعور جديد يختلف كلياً عما كنت أحس به وأنا أنظر إليه من خلف نوافذ المحطة . ربما كان الأمر متعلقاً بمدى ارتفاع التحليق عن سطح المحيط . عمت على ارتفاع لا يتجاوز عشرات الأمتار فوق الأمواج . أكد لي شعوري ما كنت أعرفه من أن الحدبات والمنحدرات الملونة واللامعة ببريق دهني والمنتشرة في لجة المحيط لا تتحرك كأمواج البحر أو السحب ، بل مثل حيوان . تبدو حركتها مثل ارتعاشات بطيئة للغاية وغير منقطعة فوق جسد أجرد معضل . كانت تضاريس الأمواج المتقلبة بنعاس ، تلتهب برغوة أرجوانية . وعندما استدرت لأسير بدقة على خط المقلد المنساب ببطء . سقط شعاع الشمس في عيني تماماً ، فلمعت أشعة الأمواج الدموية في الزجاج المحدب ، وأصبح لون المحيط أسود ـــ كحلي مع ومضات نارية عاتمة .

ثبت سرعة الطائرة بما يتناسب وانسياب المقلد وبدأت أهبط متراً وراء آخر . لم يكن مقلداً كبيراً . طوله حوالي نصف كيلومتر وعرضه عدة مئات من الأمتار . ربما انفصل عن تشكيل يكبره بالكثير ، ويعد بمثابة قلعة صغيرة حسب مقاييس سولاريس ، استمرت والله أعلم كم من الأسابيع و الشهور . وشاهدت وأنا أزحف فوق المحيط بين الدرنات المعروقة ما يشبه الشاطىء . كانت عشرات الأمتار منه تشكل منحدراً شديداً ، أما سطحه فكان شبه أملس ... وجهت الطائرة إليه . تبين أن عملية الهبوط أصعب بكثير مما توقعت . كادت طائرتي تعلق بلولب الجدار المتنامي أمام عيني . لكني استطعت التخلص من ذلك . أطفأت المحرك وفتحت الغطاء . ثم تأكدت من عدم انزلاق المروحة

في المحيط . كانت أمواج المحيط تلعق حافة المقلد الخشنة على بعد خطوات من مكان هبوطي . لكنه بقي واقفاً بثقة تامة على زحافتيه الواسعتين المتباعدتين .

قفزت إلى الأسفل ، وابتعدت قليلاً عن الطائرة . جلست على « أرض » خشنة متصدعة . زحفت موجة سوداء بتثاقل نحو الشاطىء وتناثرت . أصبحت بدون لون ثم تراجعت مخلفة وراءها خيوط مخامية دقيقة . نزلت قليلاً ومددت يدي للموجة التالية . تكررت تلك الظاهرة التي شاهدها الناس منذ ما يقارب المائة عام ــ تأخرت الموجة وتراجعت قليلاً . أحاطت بيدي دون أن تلامسها . بحيث بقيت طبقة رقيقة من الهواء تحيط بيدي في العمق الفاصل بين سطح يدي والجدار الداخلي الذي بدل من كثافته وأصبح مطاطياً . رفعت يدي ببطء . قامت الموجة ، بالأحرى ، امتد لسانها الرفيع مع حركة يدي محيطاً راحة كفي بغلاف مضيء أخضر وسخ . توقفت لعدم استطاعتي رفع يدي أكثر من ذلك ، واشتدت قطعة من مادة هلامية وأصبحت مثل وتر مشدود . لم تنقطع . التصقت قاعدة الموجة المتناثرة بطرف الشاطىء قرب قدمي تماماً دون أن تلامسها . بدت مثل كائن عجيب ينتظر بصبر فارغ نهاية هذه الأبحاث التي تجرى عليه . تبين أن زهرة قد نمت على سطح المحيط وتليدت قنياتها مثل أصابعي ، مكونة شكلاً يشبه يدي تماماً ، لكن بصورة سلبية (نيكاتيف) . تراجعت . اهتز عودها المرن المترنح المتمايل وتراجع إلى الأسفل وارتفعت الموجة لتحتضنه بصدرها ولتختفي فيما بعد وراء تضاريس الشاطىء . كررت اللعبة ، ومن جديد اقتربت موجة تالية تتدحرج بلا مبالاة كأنها ضجرت من مشاهدة هذه الأشياء ، أي كما حدث منذ مائة عام مضت . عدت لأجلس في مكاني من جديد ، لأني عرفت أن إيقاظ فضولها سيستغرق عدة ساعات . لقد غيرت الرؤية هذه في داخلي أشياء عديدة ، رغم معرفتي النظرية الجيدة لها مسبقاً . لن تستطيع أية نظرية أن تحل محل الإحساس الحقيقي .

لقد رافقت البراءة اللامرعبة والحذر ولادة ونمو وتطور هذا الشكل الحي - في كل حركة من حركاته . كان يسعى بحماس واندفاع لإدراك ومعرفة الأشكال الجديدة والمباغتة القادمة للقائه ، لكنه أجبر على التراجع من منتصف الطريق عندما ظهرت الحاجة لخرق حدوده المرسومة بقانون خفي .

لم يُصب المقلد العملاق بعدوى الفضول واستمر ينبسط لامعاً في أفق السماء .

لم أشعر من قبل بحقيقته الجبارة وبغرابته وصمته المطبق كما شعرت بها الآن وبهذه القوة . وقفت مذهولاً مصعوقاً وإحساس بالضياع يتصاعد في داخلي . كنت التحم باندفاع مع هذا العملاق الأعمى السائل دون أن أمارس العنف على ذاتي . سامحته على كل شيء دون أن أوجه إليه أية كلمات أو أية أفكار .

كان سلوكي لا مبالياً خلال الأسبوع الأخير ، لذلك كلت نظرات سناوت المتشككة عن ملاحقتي . كنت أبدو هادئاً من الخارج ، وأنتظر شيئاً لا أعرفه في داخلي . ترى ما هو ؟ هل أنتظر عودتها ؟ كيف أستطيع؟

إن كل منا يدرك أنه كائن مادي يخضع لقوانين الفيزياء والفيزياء البيولوجية ، ولن نستطيع مقارعة هذه القوانين ، حتى في حال توحيد كافة قوانا ومشاعرنا . كل ما نستطيع فعله هو أن نكرهها ولا شيء أكثر من ذلك .

إن إيمان العشاق والشعراء بقوة الحب الذي يعاني من الموت والقائل : Finis vie non amour * ما هو إلا كذب يطاردنا عبر قرون طويلة . إنه مجرد كذب لا فائدة منه ، لكنه غير مضحك . وكأنك تصبح ساعة لقياس الزمن . تلك الساعة التي يفككونها تارة ، ويجمعونها تارة أخرى ، ويسيل منها اليأس والحب منذ تلك اللحظة التي يدخل فيها المصمم عجلات الحركة ، ومن خلالها

* تنتهي الحياة ولا ينتهي الحب .

تعرف أنك تتدرب على العذاب الذي يتكرر بعمق أكثر ، ومن تكراره المستمر يصبح هزلاً ؟

والجنس البشري ، ألا يكرر نفسه مثل مقطوعة موسيقية يعيدها سكير ، وذلك بأن يرمي قطعة نقود معدنية في صندوق الموسيقا ؟

لم أصدق لحظة أن هذا العملاق الذي يحملني كذرة غبار دون أن يلاحظ ذلك سيتأثر من مأساة شخصين . وهو الذي هيأ الموت في داخله لمئات من الناس ، وعبثاً سعى جنسي البشري طوال عشرات السنين لمد خيط من التفاهم معه . بيد أن أفعاله كانت منصبة على هدف ما . والحقيقة أنني لم أتيقن من ذلك تماماً .

وإن غادرته ـــ فهذا يعني التخلي عن الفرصة الصغيرة الخفية والتي من الجائز أن لا تكون إلا في خيالي ، وهي من تخفي عوالم المستقبل .

وهكذا أمضيت سنوات وسط الأدوات والأشياء التي لامسناها سوياً في الهواء ، تلك الأشياء التي تذكرني بأنفاسها ! من أجل أي شيء ؟ هل لدي أمل في عودتها ؟ كلا. كان آخر ما تبقى لي منها هو الانتظار الذي يعيش في داخلي . ما الذي كنت أنتظره ؟ شيء من السخرية وشيء من العذاب .

لا أعرف . لكنني آمنت بشدة أن زمن العجائب المرعبة لم يولِ بعد .

انتهت





في عالم بعيد عن عالمنا الأرضي، تجري أحداث هذه الرواية فكيلفن بطل الرواية الذي صعد إلى كوكب بعيد ليلتحق بزملائه، ينتابه الرعب لما يجري هناك من أمور عجيبة وغريبة ويستسلمون لليأس. وبأحجية، تدخل الحبيبة التي كان قد افتقدها من سنين، تدخل المركبة التي يعمل فيها. كيف دخلت؟ أهو حلم؟ وما الذي فعلته وسط الجدب والبؤس المسيطر. اخضلّت الحياة وصار لها معنى. انتعش الأمل بحلول الدفء. يخطط للعودة إلى الارض من جديد. لكن المفاجأة الثانية المثيرة تحدث، وينتج عنها تلك الصرخة الحزينة، الضائعة، الباحثة عن معنى الوجود.

«وهكذا أمضيت سنوات وسط الأدوات والأشياء التي لامسناها سوية في الهواء، تلك الأشياء التي تذكرني بأنفاسها! من أجل أي شيء؟ هل لديَّ أمل في عودتها؟ كلّا. كان آخر ما تبقى لي منها هو الانتظار الذي يعيش في داخلي. ما الذي كنت أنتظره؟ شيء من السخرية وشيء من العذاب.

لا أعرف لكني آمنت بشدة أن زمن العجائب المرعبة لم يُولّ بعد.».